سلسلة القصص القرآني

دكتور

حمزة النشرتي

عبد الحفيظ فرغلي د.عبد الحميد مصطفى د.محمد شعلان

المجلد الأول

سلسلة
القصص القرآنى



دكتور
حمزة النشرتى
عبد الحفيظ فرغلى د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

المجلد الأول

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ؛ أعطى فأجزل ، وأنعم فأفضل ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ؛ سيدنا محمد ، النبى الأمى ، العربى الهاشمى القرشى ، وعلى آله وصحبه أجمعين ..

أما بعد ..

فإن أجمل ما تميل إليه نفس الإنسان ؛ هو : « القصة » ..

يقبل عليها ، ويصغى إليها ، ويستزيد منها ، ويتلذذ بسماعها وحكايتها ..

ومن أجل ذلك عُنِيت بها التربية الحديثة ، وجعلتها وسيلة من وسائلها التعليمية : حكايةً ، وحواراً ، ومسرحاً وتمثيلاً ..

ولقد سبق القرآن الكريم ذلك كله ، فتضمنت آياته الكثير منها ، وورد فى سبب نزول سورة يوسف أن الصحابة – رضوان الله عليهم – قالوا للنبى – ﷺ – : لو قصصت علينا .. فنزل قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ (١) .

وجمع القرآن الكريم كثيراً من القصص التي جعلها الله عبرة وذكرى ، وقال – سبحانه وتعالى – فى ذلك : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) من الآية ٣ من سورة يوسف . وانظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٢ ص ٤٦٧ (ط. دار الفكر العربى) .

(٢) الآية ١١١ من سورة يوسف .

لقد أشارت هذه الآية الكريمة إلى الهدف من القصة القرآنية .. فهى مادة سخية للعظة والاعتبار ، وفيها بيان لأحداث تاريخية وحقائق علمية ، وتعريف بأحوال الأمم الماضية والقرون الخالية ، وتصحيح لأخطاء تاريخية ، ووقائع وردت على ألسنة المحرفين ، وفى كتب الماضين ..

إن فى القصة القرآنية تثبيتاً للعقيدة ، وتسرية للنبي - ﷺ - والمؤمنين .. قال - تعالى - : ﴿ وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣).

كما أن فيها تأكيدًا للدعوة ، وتبليغاً لها ، وبياناً لأن جوهر الدين واحد ، فما جاء الرسل - عليهم السلام - جميعاً إلا لإثبات أن الله واحد ، وللدعوة إلى الإيمان به وبملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر ، وللدعوة إلى الأخلاق الكريمة ، والمثل الرفيعة ، وكان خاتمهم فى ذلك سيدنا رسول الله محمد - ﷺ - الذى بعثه الله - تبارك وتعالى - ليتمم مكارم الأخلاق ..

وقد جُبِلَ الناس على الإعراض والرفض ، فكان لابد من التكرار فى سرد القَصص بأساليب مختلفة ، فى مواضع متعددة ..

وقد تتداخل القصة الواحدة مع سواها ، وقد تأتى قائمة بذاتها ؛ كقصة يوسف - عليه السلام - ..

وقد تأتى مجملة .. وقد تأتى مفصلة ..

وقد تأتى منطوية على جزء فى موضع ، وتخلو منه فى آخر ..

فالقصة لها أثرها فى إثارة المشاعر وتحريك العواطف ، وهى وسيلة للتلقين والتوضيح ، والتوجيه والإرشاد ، وقرع الأسماع ، وإخراج العقول من البلادة ، وصرفها إلى التفكير والتأمل ، والإقبال والتدبر ..

---

(٣) الآية ١٢٠ من سورة هود .

ولذلك تكررت ..

ولكنها مع تكرارها لا تتغير فى جوهرها .. حيث إن التغيير يتناول الفرعيات التى تذكر أحياناً ، وتترك أحياناً ؛ تبعاً لسياق السورة الواردة فيها من جهة ، ولحكمة الله فى إحداث المغايرة من جهة أخرى ..

وهذا التغاير فى خدمة الغرض الأسمى من القصة .. ألا وهو الاستعانة بهذه الأنباء والأحاديث فى تأكيد العقيدة وبث الاعتبار ..

والقصة القرآنية فى منتهى البلاغة؛ لأنها جزء من القرآن ، وهو أبلغ بيان .. وقد وصف الله القَصَص القرآنى بأنه « أحسن القَصَص » ..

وقد تناول كثير من العلماء القدامى والمحدثين القِصَص القرآنية بأقلامهم ، وقدموها للقراء فى صور مختلفة من الأساليب ، وأُلِّفت فى ذلك كتب متعددة ، هدفها : خدمة القرآن الكريم ، وشرح بعض ما يدور فيه ، والانتفاع بهذه القصص فى تقديم أحداثها للناس بأسلوب البشر ..

وللإسهام فى هذا الميدان الذى ما زال فسيحاً ، وفى حاجة إلى عشرات الأقلام التى تخدم فيه : رأينا تقديم هذه السلسلة « سلسلة القصص القرآنى » فى أعداد أسبوعية ؛ إن شاء الله – تبارك وتعالى – .

هدفنا منها – فيما نرى – : ربط الناس بكتابهم الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ووقفهم على ما تضمنته هذه القصص من مُثُل كريمة ، وإشارات حكيمة ، وإرشادات قويمة ..

وبالإضافة إلى ذلك : عرض بعض القضايا والمشكلات المعاصرة ؛ للنظر فيها بما يتناسب وما جاء فى بعض تلك القصص ..

وعملُنا فيها : ربط أطراف القصص بعضها ببعض ، مع الاستعانة فى عرض هذه القصص بما جاء فى السنة النبوية الشريفة ، وما أشارت به الكتب الرائدة فى هذا الميدان .

لذا ستأتى هذه السلسلة شاملة لكل ما فى القرآن الكريم إن شاء الله من قصص الأنبياء وقصص الجن وقصص الطيور وقصص الحيوان ثم غزوات الرسول ﷺ مرتبة ترتيباً زمنياً .

من هنا سيكون العدد الأول عن قصة سيدنا آدم عليه السلام ثم قصة سيدنا إدريس ونوح فى العدد الثانى وفى العدد الثالث سنتناول فيه قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام ثم قصة سيدنا إسماعيل فى العدد الرابع وهكذا ..

واللّهَ نرجو أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يحقق به النفع .. وهو – سبحانه – من وراء القصد خير معين ..

﴿ رَبَّنَا .. آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ ..

* * *



(آدم)
عليه السلام

- ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ .
- ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ .
- ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ .
- ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ .
- ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ .
- ﴿ اهبطوا بعضكم لبعض عدو ﴾ .
- ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾ .
- ﴿ واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق ﴾ .

﴿ خلق السموات والأرض ﴾

قال الله – تعالى – :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١) ﴾

وقال – تعالى – :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) ﴾

قدرة الله لا تُحد .. وإذا أراد شيئاً قال له : كن فيكون ..

وقد أراد الله – جلّت حكمته – خَلْق السموات والأرض .. فخلقهما ..

يقول العلماء : أول ما خلق الله فى الكون الماء .. ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ (٣) .

---

(١) الآية ٢٩ من سورة البقرة .

(٢) الآيات ٩ – ١٢ من سورة فصلت .

(٣) من الآية ٧ من سورة هود .

فلما أراد الله خلق السموات أخرج من الماء دُخانًا ، فارتفع الدخان فوق الماء ، وأخذ يصعد ويصعد ، فسماه : سماء ، لسموه وارتفاعه ..

وهذا قوله – سبحانه – : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهى دخان ﴾ ..

قالوا : ثم أيبس الماء الذى جعله أرضاً واحدة فتقها إلى سبع أرضين .. وتم خلق الأرض فى يومين : الأحد والاثنين .

وحين مادت الأرض واضطربت خلق فيها الجبال .. وهذا قوله – تعالى – : ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾[٤].

وأنبت فى الأرض الأشجار ، وشق الأنهار ، وأجرى البحار ، وقدر الأقوات فى يومين : الثلاثاء والأربعاء ..

وخلقُ السموات فى يومين .. وقيل : إنها كانت سماء واحدة ففتقها سبع سموات ، وذلك فى يومى الخميس والجمعة ..

وفى آخر ساعة من يوم الجمعة خلق (آدم)[٥] .

---

(٤) من الآية ١٥ من سورة النحل ، ١٠ من سورة لقمان .

(٥) أخرج الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده ، والإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – : «خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق (آدم) بعد العصر من يوم الجمعة فى آخر الخلق ، فى آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل» ..

وانظر : الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير ؛ للسيوطى جـ ٢ ص ٥ (ط ٤ دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان) .

هذا ، ومما يجدر التنبيه إليه أن (آدم) – عليه السلام – ورد ذكره فى القرآن الكريم فى خمسة وعشرين موضعاً .. وذلك فى تسع سور ؛ هى : (البقرة) ، و (آل عمران) ، و (المائدة) ، و (الأعراف) ، و (الإسراء) ، و (الكهف) ، و (مريم) ، و (طه) ، و (يس) ..

انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . وضع : محمد فؤاد عبد الباقى ص ٢٤ – ٢٥ (مؤسسة جمال للنشر – بيروت – لبنان) .

وفى هذا اليوم - وهو عيد المسلمين الأسبوعى - تقوم الساعة [٦] ..

وأوحى الله فى كل سماء أمرها ..

أى : جعل لها خلقها الخاص بها من الملائكة وغيرهم من المخلوقات ..

خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها وملائكتها .. وقال ابن عباس : « ولله فى كل سماء بيت تحج إليه وتطوف به من الملائكة بحذاء الأرض »[٧] ..

وقال المسعودى :

« إنّ السماء الدنيا زمرّدة خضراء .
والسماء الثانية من فضة بيضاء .
والسماء الثالثة من ياقوتة حمراء .
والسماء الرابعة من درة بيضاء .
والسماء الخامسة من ذهب أحمر .
والسماء السادسة من ياقوتة صفراء .
والسماء السابعة من نور .. » [٨] .

وعمرت السموات بالملائكة الذين وصفهم الله بقوله : ﴿ .. عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [٩] ، وبقوله : ﴿ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [١٠] ..

---

(٦) أخرج الإمام أحمد والإمام مسلم والترمذى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة » ..

(٧) انظر : الجامع لأحكام القرآن ؛ للقرطبى ، تفسير سورة فصلت .

(٨) مروج الذهب ، الجزء الأول .

(٩) الآيتان ٢٦ - ٢٧ من سورة الأنبياء .

(١٠) من الآية ٦ من سورة التحريم .

إنها قدرة الله الخارقة التى لا يعجزها أمر ، ولا يحيط بها عقل ، ولا يقف فى طريقها مستحيل ، ولا يحتاج إثباتها إلى دليل ..

وإذن ؛ فقد خلق الله الأرض فى يومين .. وقدر فيها أقواتها فى يومين ..

فهذه أربعة أيام يشير إليها الحق – سبحانه وتعالى – بقوله : ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴾ .

وخلق السموات فى يومين ..

فهذه ستة أيام ..

لقد خلق الله الأرض قبل السماء ، وخلق كل شىء على غير مثال سابق ، بل ابتدعه بحكمته ، واخترعه بقدرته .. ﴿ بديع السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (١١) ..

ومن احتج على أن السماء خُلِقت قبل الأرض بقوله – تعالى – : ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ (١٢) ؛ أى : بعد أن قال : ﴿ أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ (١٣) ..

فإنه يُرَدّ عليه بأن الدُّحُوّ غير الخلق ، فقد خلق الله الأرض ، ثم خلق السموات ، ثم دحا الأرض ؛ أى : بسطها ومدها (١٤) .

ولم يكن خلق الأرض والسموات وما فيهن فى ستة أيام ، إلا ليتعلم الإنسان من ذلك الأناة والصبر ، وعدم التعجل فى الأمور .

وإلا فالله – جلت قدرته – إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون ..

---

(١١) الآية ١١٧ من سورة البقرة .
(١٢) الآية ٣٠ من سورة النازعات .
(١٣) من الآية ٢٧ من سورة النازعات .
(١٤) انظر : تفسير القرطبي : سورة البقرة ، والنازعات .

وكما عمرت السماء بالملائكة زيّنت السماء الدنيا بمصابيح هى النجوم التى تضىء الكون بنورها ، وتهدى الناس بضوئها .. قال - تعالى - : ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (١٥) ..

ثم أراد الله - تبارك وتعالى - أن يعمر الأرض بالخلق .. ولكنه برحمته - التى وسعت كل شىء - عمّرها أولاً بوجوه المنافع المختلفة التى يحتاج إليها هذا الخلق من طعام وشراب ومتاع وزينة .. ولنترك الآيات الكريمة التى تدل على ذلك تتحدث ، فهى أبلغ من كل كلام :

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦) ﴾

---

(١٥) الآية ١٦ من سورة النحل .

(١٦) الآيات ٤ - ١٨ من سورة النحل .

خلق الجن :

وقبل أن يخلق الله الإنس على الأرض خلق الجنّ من مارج من نار ، ومنهم : إبليس .

وأمر الجن أن يطيعوا ربهم الذى خلقهم ، ويعبدوه حق عبادته ، ونهاهم عن أن يسفكوا الدماء وأن يعيثوا فى الأرض فساداً ، وعن إظهار المعصية فيما بينهم .

ولكنهم لم يستجيبوا لأمر الله ، ولم ينتهوا عما نهى عنه ، فأفسدوا وبغى بعضهم على بعض .

فأرسل الله إليهم قبيلاً من الملائكة طردوا الجن إلى جزائر البحار وأطراف الجبال ، وقتلوا من شاء الله منهم .

قال العلماء : وكان إبليس طائعاً فى أول أمره ، فلم يلحقه الأذى الذى أصاب قومه ، وكان قد طلب من ربه أن يرفعه من بين هؤلاء العصاة الذين لم يستجيبُوا لنصح ، ولم يسترشدوا برشد ، فرفعه الله إلى السماء ، وصار مع الملائكة يعبد الله وحده ويقدسه ، ونزلَ مع الملائكة الذين حاربوا المفسدين .

وحكى الطبرى فى تفسيره أن إبليس كان من حى من أحياء الملائكة يقال لهم : « الحن » – بالحاء – خُلِقوا من نار السموم من بين الملائكة ، وكان اسمه « الحارث » – كما كان اسمه « عزازيل » أيضاً – وكان خازناً من خزان الجنة ، وخلقت الملائكة كلهم من نور غير هذا الحى .

وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار ، وهو لسان النار الذى يكون فى طرفها إذا ألهبت .

فأول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها ، وسفكوا الدماء ، وقتل بعضهم بعضاً .

فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة ، وهم هذا الحى الذين يقال لهم : الحن - بالحاء - فقتلهم إبليس ومن معه .. أ هـ

ويعتمد كثير من العلماء على أن إبليس من الجن - بالجيم - على قوله - تعالى - ﴿ وإذْ قُلْنا للملائكة اسْجدوا لآدَمَ فسجدوا إلا إبليسَ كان مِنَ الجن فَفَسَق عن أمرِ رَبِّه ﴾ [١٧] .. ففى هذه الآية ردّ على ما أورده الطبرى من حكايته السابقة ..

وأيًا ما كان الأمر فقد أصاب إبليس الغرورُ والزهوُ بنفسه ، فقد ارتفع عن طائفته ، وصار مع الملائكة الذين خلقهم الله من نور ، واصطفاهم لعبادته ، واعتقد أنه أفضل من غيره ؛ حيث إنه صنع شيئاً لم يصنعه أحد من جنسه ..

ولكن الله قد اطلع على خفايا نفسه ، فهو - سبحانه - يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ..

وطهرت الأرض من شر الجن المفسدين .. وأصبحت مهيأة لاستقبال خليفة الله فى الأرض ..

★ ★ ★

(١٧) من الآية ٥٠ من سورة الكهف .

﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾

قال – تعالى – :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٨)﴾

أية أرض هذه ؟

يذكر القرطبي – فى تفسيره – عن الرواة أن المقصود بالأرض : « مكة » .. وقد دُحيت الأرض من « مكة » ، ولذلك سميت : أم القرى . وقال : إن قبر نوح وهود وصالح وشعيب – عليهم السلام – بها بين زمزم والركن والمقام ..

ولا مانع أن يكون المقصود : مطلق الأرض .. و « مكة » كالحاضرة لها .

ولذلك قال الطبرى – فيما يرويه – : دُحيت الأرض من « مكة » ، وكانت الملائكة تطوف بالبيت ، فهى أول من طاف به ، وهى الأرض التى قال الله عنها : ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ .. وكان النبى إذا هلك قومه ونجا هو والصالحون معه أتوها فعبدوا الله بها حتى يموتوا ..

الحوار :

حين أراد الله خلق آدم قال لملائكته : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ..

---

(١٨) الآية ٣٠ من سورة البقرة.

وكان الملائكة قد رأوا ما حدث فى الأرض من فساد الجن وطغيانهم وسفكهم الدماء فقالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ؟ ﴾ .

وكأنهم استشرفوا للخلافة ، فقالوا : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ ..

ولكن الحق أجابهم بقوله : ﴿ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ..

ذلك أن الله – سبحانه – كان قد اطلع على قلب إبليس وما فيه من غرور وزهو ، فأراد أن يعلمه بأن الله سوف يخلق خلقاً أفضل منه وأهدى سبيلا ..

وقال بعض العلماء : إن الله حين قال للملائكة : ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ ؛ قالوا : ربنا ؛ وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال : يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا . قالوا : ربنا ، أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك .. قال : ﴿ إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾ ..

وكأن الملائكة كانوا يتطلعون لأن يعمروا الأرض كما عمروا السماء ، وأشفقوا أن يوجد خلق يعصون الله ويجحدون نعمته ، فقالوا ما قالوا ؛ وهم الدائبون على حمد الله واستغفاره والتسبيح له وتمجيده ..

قبضة الطين :

وأرسل الله جبريل – عليه السلام – ليقبض قبضة من طين الأرض ، وكان الله قد أوحى إلى الأرض – فيما يحكيه الثعلبى – : إنى خالق من أديمك خلقاً ، فمنهم من يطيعنى ومنهم من يعصينى ، فمن أطاعنى أدخلته الجنة ، ومن عصانى أدخلته النار (١٩) ..

---

(١٩) انظر : قصص الأنبياء للثعلبى ..

فقالت الأرض لجبريل : إني أعوذ بالله منك أن تنقصني .. فرجع ولم يأخذ شيئاً .. وقال : يارب ؛ لقد استعاذت بك .

فأرسل الله ميكائيل ، فقالت له الأرض مثل ما قالت لجبريل .. فرجع ولم يأخذ شيئاً .

فأرسل الله ملك الموت فقالت له الأرض مثل قولها السابق .. فقال لها : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أطعه ..

فقبض قبضة من الأرض جمعت بين ألوانها المختلفة .. فخصصه الله من أجل ذلك لقبض أرواح العباد ..

قال الثعلبي : ورجع بهذه القبضة إلى ربه عز وجل .. وقد سمع الله بكاء الأرض ، فقال لها : ما يبكيك ؟ فقالت : أبكي على ما نقص مني .. فقال لها : سأرد عليك ما أخذ منك ..

فهذا قوله – تعالى – : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ [20] ..

ووضعت هذه القبضة على باب الجنة ، وأمر رضوان أن يعجنها بماء التسنيم حتى صارت طيناً لازباً ؛ أي : متماسكاً .. قال – تعالى – : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ [21] ..

وتركت الطينة معجونة فترة طويلة – قدرها بعضهم بأربعين سنة – حتى صارت كالحمأ المسنون .. وهذا معنى قوله – تعالى – : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾[22]..

ثم صُوّر آدم من هذه الطينة ، وتُرك بلا روح من صلصال كالفخار ، وهذا معنى قوله – تعالى – ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ [23] ..

---

(٢٠) الآية ٥٥ من سورة طه .
(٢١) من الآية ١١ من سورة الصافات .
(٢٢) الآية ٢٦ من سورة الحجر .
(٢٣) الآية ١٤ من سورة الرحمن .

ولكرامة آدم خلقه الله بيده ، وسواه بحكمته وصوره بقدرته على هيئته التي خُلق عليها ، وتركه دون أن تنفخ فيه الروح أربعين سنة ، وهذا قوله – تعالى – : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾[٢٤].

وكانت الملائكة تمر بهذه الصورة العجيبة ، فيتعجبون منها ، ولكنهم يقولون : مهما خلق الله من خلق فلن يكون أكرم عليه منا ، ولا أعلم منا .

وكان إبليس أشدهم فزعاً من هذه الصورة ..

ووقف أمامها متحيراً مذهولاً ..

وإذا مر بهذا الخَلْق ضربه برجله فيظهر له صوت كالفخار حين يُضْرب ، وله صلصلة ..

وكان يدخل مِن فيه ، ويخرج من دبره ، ويقول : لأمرٍ مّا خُلِقْت .

نفخ الروح فيه :

وحين نفخ المولى – جل جلاله – من روحه فى آدم دَبَّت فيه الروح شيئا فشيئا ..

نفخ فيه من رأسه فاستيقظت حواسه ..

نظر بعينيه .. وسمع بأذنيه ..

وحين وصلت الروح إلى منخره عطس فنزلت الروح إلى فمه فألهمه الله قوله : « الحمد لله رب العالمين » ..

فرد عليه بقوله : يرحمك الله يا آدم ..

فأصبح تشميت العاطس سُنة [٢٥] ..

---

(٢٤) الآية الأولى من سورة الإنسان.

(٢٥) أخرج الإمام أحمد بن حنبل، والإمام البخارى والإمام مسلم عن أبى موسى –رضى الله عنه– قال: قال –ﷺ–: «إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمتوه، وإذا لم يحمد فلا تشمتوه».. وانظر: الجامع الصغير جـ١ ص ٣١.

ثم نزلت الروح إلى صدره ، فبطنه .. فلما وصلت إلى ركبتيه هم بالجلوس فلم يقدر .. فهذا قوله – تعالى – : ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولاً ﴾ (٢٦) .

فلما تغلغلت الروح فى جسده نهض ومشى ..

وكساه الله من نور جلاله وجماله ، وجعله بشراً سويا ، وحق لربنا أن يقسم قائلاً : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (٢٧) .

وظهر نور الكرامة على وجهه ، وألبسه الله من حلل الجنة ما شاء ، وعلمه من لدنه علما ..

قال – تعالى – : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٨) .

وظهر فضله على الملائكة ؛ حين أدركوا أنهم أمام امتحان دقيق ، فقد عجزوا عن الإنباء ، وعرفوا أن الله يعلم ما لا يعلمون ، وأن الذى خلقه ليس كسائر الخلق الذين عمرت بهم الأرض قبل ذلك ، بل هو طراز خاص ونشء ممتاز .. اختصه الله بما ليس فى طوقهم أن يعرفوه ..

قال الطبرى – فيما يرويه عن الحسن وقتادة – : علمه الله اسم كل شيء : هذه الجبال ، وهذه البغال ، والإبل والجن ، والوحش ، وجعل يسمى كل شيء باسمه ، وعرضت عليه كل أمة ..

لقد علمه الله كل ذلك فعلم ..

وأنى يعلم الملائكة علماً لم يعلمهم الله إياه ؟ !

---

(٢٦) من الآية ١١ من سورة الإسراء .

(٢٧) الآية ٤ من سورة التين .

(٢٨) الآية ٣١ من سورة البقرة .

لقد أقر الملائكة بالعجز ، وأدركوا أنهم غير قادرين على ما أمرهم به الله ، وسلموا فيه الأمر له سبحانه .. قائلين : ﴿ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [٢٩] ..

فقال لهم بعد أن أنبأهم آدم بالأسماء التى جهلوها : ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [٣٠] ..

وكان الذى أبدوه هو ما قالوه : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ !

وكان الذى أخفوه هو : لن يخلق الله خلقاً إلا كنا نحن أعلم منه وأكرم على الله ..

لقد أدرك الملائكة أن الله فضل عليهم آدم فى العلم والتكريم ..

فضل العلم :

علم الله آدم أسماء كل شيء ..

وأورث آدم ذريته العلمَ من بعده ..

وبهذا العلم عمرت الكائنات ، ونشأت المجتمعات ، وتطورت الحياة ، وظهرت المخترعات ..

ومن هنا تظهر فضيلة العلم الذى اختص الله به الانسان ، وكرّمه به ، وعلمه إياه ، ودعا إلى الأخذ بأسبابه والضرب فى الأرض فى سبيل اكتسابه ، قال – تعالى – : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُم طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُون ﴾ [٣١].

---

(٢٩) من الآية ٣٢ من سورة البقرة .
(٣٠) من الآية ٣٣ من سورة البقرة .
(٣١) من الآية ١٢٢ من سورة التوبة .

وتظهر فضيلة العلم أيضاً فى أن أول سورة من القرآن نزلت تدعو إليه وتحث عليه ، وهى سورة العلق .. قال – تعالى – : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[٣٢]..

الأمر بالسجود لآدم :

قال – تعالى – :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٣٣]

أمر الله الملائكة بالسجود لآدم .

إنه التكريم فى أعلى صوره ..

إن الملائكة الذين حكموا على الإنسان قبل أن يُخلق بأنه سيفسد فى الأرض ويسفك الدماء .. أُمِرُوا بالسجود له .

واستجاب الملائكة لأمر الله طائعين .. وسجدوا كلهم أجمعون ..

ذلك أنهم – كما قدمنا – من خصائصهم أنهم ﴿ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[٣٤]..

ولكن إبليس اللعين – وهو من طبقة غير طبقة الملائكة ، وكان قد امتلأ غروراً وكبراً – أبى أن يسجد ..

---

(٣٢) الآيات ١ – ٥ من سورة العلق .

(٣٣) الآيات ٧١ – ٧٤ من سورة ص .

(٣٤) من الآية ٩ من سورة التحريم .

كان من الجن ، ورفعته عبادته إلى درجة الملائكة .

وقيل فى سبب رفعه ما حدث به الطبرى : إنه كان من الجن الذى طردتهم الملائكة ، فأسره بعض الملائكة ، وذهب به إلى السماء ، وظل يتعبد معهم كما يتعبدون فحين أمر الملائكة بالسجود رفض إبليس أن يسجد ..

وكان الواجب أن يمتثل لهذا الأمر الإلهى ؛ لأن الأمر إذا صدر إلى الأعلى ؛ فالواجب على الأدنى أن يمتثل له تبعاً ..

ولكنه أبى واستكبر ..

لقد عاد إليه أصله ، أو عاد هو إلى أصله ..

وحين عصى الأمر الإلهى طرده الله من رحمته .. قال – تعالى – : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾[٣٥].

العداوة بين إبليس وآدم :

طُرِدَ إبليس من رحمة ربه .. فهل ينسى إبليس ذلك ؟

هل يترك آدم ينعم برضا الله ومغفرته ، ويستكين هو لذلك المصير السيىء المشئوم ؟

أين علمه الذى تعلمه ؟ ومكره الذى أتقنه ؟

ثم أين طبيعته النارية وخططه الجهنمية ؟

أين ما عرفه عن ذلك المخلوق حين كان صلصالاً أجوف يدخل من فمه ويخرج من دبره ؟ !

---

(٣٥) الآيتان ١٢ – ١٣ من سورة الأعراف .

لقد عرف خباياه الداخلية ، ودخل فى كل جزء من أجزاء جسمه ما عدا قلبه ؛ وكيف يتركه يعيش فى نعيم ؟ ولماذا لا يجره معه إلى نار الجحيم ؟ !

وقد عرف إبليس ضعف آدم ؛ فكيف يتركه دون أن ينفث سمومه فى داخل هذا المخلوق الذى يرى أنه ضعيف ؟ !

ذكر ابن كثير – فى كتابه « قصص الأنبياء » – ما توهمه إبليس فى آدم ؛ فقال :

خلق الله آدم بيده ؛ لئلا يتكبر عليه إبليس ، فخلقه بشراً ، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة ، فمرت الملائكة ففزعوا منه لما رأوه .

وكان أشدهم فزعاً منه إبليس ، فكان يمر به فيضربه ، فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة .. ويقول : لأمر ما خُلِقت ، ودخل من فيه وخرج من دبره ، وقال للملائكة : لا ترهبوا من هذا ، فإن ربكم صمد وهذا أجوف ، لئن سُلِّطْتُ عليه لأهلكنه ، ولئن سلِّط علىّ لأعصينه ..

إن ذلك الإنسان فى نظر إبليس خلق من طين ، فأين هذا الذى خلق من طين مهين من ذلك الذى خلق من نار السموم ؟ !

إن الطين تحرقه النار وتؤثر فيه ، ولكن الطين لا يستطيع التأثير فى النار ..

والنار من شأنها العلو والارتفاع ، أما الطين فشأنه الدنو والهبوط ..

وهكذا ظل إبليس يحدث نفسه ، ويتوعد آدم الذى أذل كبرياءه ، وحطم غروره ، وكان سبباً فى هبوطه إلى الأرض بعد أن كان ينعم بسعادة أهل السماء ..

ولقد سوّل له كبرياؤه المزعوم أن يجادل ربه ويناظره .. فيقول : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [٣٦] .

---

(٣٦) من الآية ١٢ من سورة الأعراف ، ٧٦ من سورة ص .

وهو يظن أنه بهذا المنطق العجيب يغير ما صدر من أمر بخصوص طرده ، ولكن حاشا لله ؛ فقد سبقت كلمته - سبحانه - وحق وعده ، ونفذت مشيئته فى إعمار الأرض بخليفة خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وجعله سيد هذه المعمورة ، وسخر له كل ما فى السموات والأرض .. وصدق الله - تعالى - إذ يقول : ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (٣٧) .

ولجّ إبليس فى العناد ، ولم يرد أن يتراجع عما صمم عليه من عصيان ، وكأنه أراد أن يفتح صفحة للتحدى بينه وبين هذا المخلوق الذى فضله الله عليه ، وقال مُخَاطِبا ربه ؛ متوعداً آدم :

﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(٣٨)

منزلة أخرى لآدم :

وأراد الله أن يرفع من قدر آدم ، ويزيده فخراً وفضلاً ، فأسكنه الجنة ؛ قال - تعالى - :

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾(٣٩).

---

(٣٧) الآية ١٣ من سورة الجاثية .
(٣٨) الآيات ١٤ - ١٨ من سورة الأعراف .
(٣٩) الآية ٣٥ من سورة البقرة .

ما هذه الجنة ؟

الجنة فى اللغة : البستان .

فأى جنة تلك التى أُسكن فيها آدم ؟

إنها – كما يقول أهل التحقيق من المفسرين – جنّة الخُلْد ..

وقد قال بعض العلماء : إنها لو كانت جنة الخلد لما دخلها إبليس ؛ لأن الله يقول فى حقها : ﴿ لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ ﴾ (٤٠) ، ويقول : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا . إلاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا ﴾ (٤١) .. ولو دخلها ما خرج منها ؛ لأن الله يقول : ﴿ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ (٤٢) ..

وهذه الجنة – أى : جنة الخلد – قدست عن الخطايا والمعاصى ، وهذا إبليس قد لغا فيها وعصى وكذب .. وخرج منها آدم وحواء ؛ لمعصيتهما ..

وإذا كانت هذه الجنة جنة الخلد ؛ فلماذا حرص آدم على أن يطلب شجرة الخلد – كما قال له إبليس – مع كمال عقل آدم وعلو مكانته ؟

قال هؤلاء : إنها ليست جنة الخلد ، بل هى جنة أخرى فى جهة « عدن » ، أو هى الأرض المقدسة بـ « الشام » التى أمر بنو إسرائيل أن يدخلوها – بعدُ – فى عهد موسى – عليه السلام – ..

وقد رد المحققون على هذه الاعتراضات ، وأكدوا أن الجنة التى دخلها آدم هى جنة الخلد فعلاً ..

ذلك لأن تعريفها بالألف واللام يعنى تخصيصها ..

ولأنه لا مانع عقلاً من دخول إبليس الجنة ؛ لتتم حكمة الله فى هبوط آدم إلى الأرض .

ودخول الجنة والخروج منها واقع بالنسبة للملائكة ، فمن الممكن أن يقع لغيرهم .

---

(٤٠) من الآية ٢٣ من سورة الطور .

(٤١) الآيتان ٢٥ – ٢٦ من سورة الواقعة

(٤٢) من الآية ٤٨ من سورة الحجر .

بل قالوا : وقد كانت مفاتيح الجنة بيد إبليس قبل معصيته ، ثم نزعت منه بعد المعصية .

وقد دخل النبى - ﷺ - ليلة الإسراء الجنة وخرج منها وأخبر بما فيها .. وأنها هى دار الخلد ..

خلق حوّاء :

وخلَق الله لآدم حوّاء ..

وتوجه الأمر لهما معاً بدخول الجنة : ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ ﴾ (٤٣) .

خلقها له من ضلعه الأيسر ..

وظاهر هذا الأمر يقضى أن حوّاء كانت قد خلقتْ قبل دخول الجنة .

وقال بعض العلماء :

لما أسكن الله - تعالى - آدم الجنة كان يمشى فيها وحده ، لا يجد من يجالسه أو يحادثه أو يؤانسه ..

فألقى الله - تعالى - عليه النوم فنام ، فأخذ الله ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر ، فخلق منه حواء ، دون أن يحسَّ آدم بذلك أو يجد له ألماً . قالوا : ولو تألّم آدم من ذلك لما عطف رجل على امرأة أبدًا ..

ثم ألبسها الله من لباس الجنة ..

ويشير إلى خلق حواء من آدم قوله - تعالى - : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾(٤٤)..

---

(٤٣) من الآية ٣٥ من سورة البقرة، ١٩ من سورة الأعراف.

(٤٤) من الآية ١٨٩ من سورة الأعراف.

كما تشير إليه السنة فى قوله – ﷺ – : « اتَّقُوا اللَّهَ فِى النِّسَاءِ فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ أَعْوَجَ ، وأَعْوَجُ شَىْءٍ فِى الضِّلَعِ أَعْلاهُ إِن ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ »(٤٥).

واستيقظ آدم من نومه فرأى حواء جالسة عند رأسه ..

وقالت له الملائكة يمتحنون علمه :

ما هذه يا آدم ؟ فقال : امرأة .

قالوا : ولم سُميت امرأة ؟ قال : لأنها من المرء أُخِذَت .

قالوا : وما اسمها ؟ قال : حواء .

قالوا : صدقت . ولم سُميت حواء ؟ قال : لأنها خلقت من حى .

قالوا : ولماذا خلقها الله – تعالى – ؟ قال : لتسكن إلىّ وأسكن إليها .

قالت الملائكة : أتحبها يا آدم ؟ قال : نعم .

وقالوا لحوّاء : أتحبينه يا حواء ؟ فقالت : لا ؛ وفى قلبها أضعاف ما فى قلبه من حبها .

هذا ما ذكره القرطبى .. وقال : فلو صدقت امرأة فى حبها لزوجها لصدقت حواء .

وهذا ما يشير إليه قوله – تعالى – : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٤٦) ..

---

(٤٥) أخرجه النووى فى رياض الصالحين عن أبى هريرة – رضى الله عنه – برقم ٢٧١ . ولفظه : « اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ، وَإِنَّ أَعْوَجَ مَا فِى الضِّلَعِ أَعْلَاهُ ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ ..

(٤٦) الآية ٢١ من سورة الروم .

وتاق الجنس إلى جنسه ..

ولكن سنّة الله جرت أن يكون لكل زواج صداق ..

فكان على آدم – إذن – أن يؤدى صداق حواء .. ولكل بيئة معاملاتها الخاصة بها . فأهل الأرض يتعاملون بالدرهم وبالدينار وبالقيراط وبالقنطار ..

أما الجنة فمعاملاتها تسبيح وتحميد ، وثناء على الرب وتمجيد .. فلا غرابة أن يكون صداق حواء تسبيحاً وتحميداً ، وذكراً لله وتمجيداً ..

روى الثعلبى فى كتابه ، قال : ذهب بعض العلماء إلى أن مهر حواء كان صلوات على النبى محمد – ﷺ – . أخبره بذلك الملائكة . فقال آدم : ومن محمد ؟

قالت الملائكة له : إن محمدًا هو آخر الأنبياء من ولدك .. يقول الله – تعالى – : ولولا محمد ما خلقتك ..

واستقر آدم وحواء فى الجنة زمناً .. ينعمان بخيراتها ، ويتلذذان بثمراتها ، ويتنزهان فى روضاتها ..

ولكن الله – جلت حكمته – لابد أن تتحقق كلمته ، ولابد أن تعمر الأرض التى أخبر ملائكته أنه جاعل فيها خليفة .

وإذن ؛ فلابد أن يهبط آدم إلى الأرض .. ولا محيص من أن يغادر هو وزوجه الجنة ، ليكدح أبناؤهما فى الأرض : يزرعون ويحصدون ، ويبنون ويشيدون ، ويبحثون وينقبون ، ويستخرجون من باطن الأرض كنوزها وخيراتها ، وتزدهر بأعمالهم الحياة حتى يأتى وعد الله الذى تشير إليه هذه الآية الكريمة :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ ﴾

﴿عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٧)﴾

حكمة الزواج :

لا يكون النسل المشروع الذى يباركه الله إلا من زوجين سلكا الطريق الصحيح فى التزاوج ..

هذا ما جرت عليه طبيعة الحياة التى خلقها الله ، إلا أن تكون هناك آية يلفت الله بها النظر ، ويُشهد بها على قدرته ، وأنه فوق الأسباب ، بل هو مسبّب الأسباب ..

فآدم خلَقه من طين لا أب ولا أم ..

وعيسى خلقه من أم وليس له أب ..

وقال فى حقهما :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٤٨) ..

وقد تعجبت مريم أن يكون لها ولد من غير أب .. فقالت : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٤٩) ..

لقد جعل الله عيسى وأمه آية ..

---

(٤٧) الآية ٢٤ من سورة يونس .

(٤٨) الآية ٥٩ من سورة آل عمران .

(٤٩) من الآية ٤٧ من سورة آل عمران .

والآية فى عيسى أنه خُلِق بدون أب .. والآية فى مريم أنها حملت بدون زواج .. وقال الله - تعالى - فى ذلك :

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (٥٠) ..

فكان لابد من التزاوج بين آدم وحواء ؛ لأن حفظ النوع طريقه المشروع هو الزواج .. وهو من سنن الفطرة التى دعت إليها الأديان جميعاً ، وأصبح الأمر به من شريعة الإسلام .. وقد حث النبى - ﷺ - على الزواج .. فقال - فيما يرويه الثقات - : « تَنَاكَحُوا تَكْثُرُوا فَإِنِّى أُبَاهِى بِكُمُ الأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٥١) .. وقال : « مَنِ اسْتَطَاعَ مِنكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ » (٥٢) ..

وهكذا .. تم الزواج بين آدم وحواء ..

وتمَّ لقاؤهما فى الجنة إلى حين ..

الخروج من الجنة :

وجد إبليس نفسه فى معزل عن آدم ، فأكل الغيظ قلبه ، وتأجج الحقد فى صدره ..

كيف يصل إلى الجنة التى يقيم فيها آدم مع زوجه وقد حرمت عليه ؟

لقد طُرد إبليس من رحمة الله ، وحق عليه أن يعيش مذءوماً محروماً ، طريداً ملعوناً فى كل مكان يحل فيه ..

---

(٥٠) الآية ٥٠ من سورة المؤمنون .

(٥١) رواه سعيد بن أبى هلال .. وانظر : الجامع الصغير جـ ١ ص ١٣٣ .

(٥٢) رواه عبد الله بن مسعود .. وانظر : صحيح البخارى جـ ٣ ص ٣٤ (ط الشعب) .

فأنى له أن يقترب من آدم ليغويه ويضله ويجره معه إلى الأرض ؛ حيث يمارس معه ومع ذريته ضروب الإغواء والإضلال ؟ !

وأخذ إبليس يقلب وجوه الرأى فى داخله ، وينقب فى أخاديعه عن وسيلة يتمكن بها من الوصول إلى آدم .

إن المشكلة الأولى التى تصادفه ، والعقبة الوحيدة التى تقف فى طريقه هى : عدم تمكنه من لقاء آدم ..

وهو إن لقيه هان كل شىء فى نظره بعد ذلك ..

إن إبليس كان قد علم أن الله أباح لآدم كل شىء فى الجنة ليتنعم به ، ما عدا شجرة واحدة حذره من الاقتراب منها فضلاً عن تذوقها .. وقد قال الله – تعالى – فى ذلك :

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[٥٣] ..

فعليه أن يلقى آدم أولاً .. وبعد ذلك يعرف الطريق إلى إغرائه بعصيان أمر ربه ، وإقناعه بالاقتراب من الشجرة وتذوق ثمارها ..

وتوجه إبليس صوب الجنة التى يعيش فيها آدم .. إنه يعرف الطريق إليها .. وقد كان بوّاباً عليها قبل ذلك ؛ كما قدمنا ..

ووقف على بابها يترقب اللحظة المواتية ليدلف إلى داخلها ..

وطال انتظاره ، حتى وجد طاووساً من طواويس الجنة خرج ؛ وكأنه يستعرض نفسه ويباهى بجماله ..

وانتهز إبليس هذه الفرصة الذهبية ..

وأسرع إلى هذا الطائر الجميل ..

---

(٥٣) الآية ١٩ من سورة الأعراف .

ولا يبعد أن يكون قد أطرى جماله وتغزل فى مفاتنه ومحاسنه .. ولعله لمس فى الطاووس جانب ضعفه ، وضرب له على الوتر الحساس فى داخل نفسه قائلاً له :

أيها الطاووس ؛ ما أبهاك وأجملك ! وما أعظمك وأحسنك ! .. إن حسنك لفتان ، وريشك أجمل ما أبدعته يد الفيض والإنعام ، وسحرك يسبى العقول ، ونورك يعشى العيون ..

لعله قال ذلك .. وأكثر منه ؛ حتى استماله إليه .. فقال له : أيها الطائر المبارك ؛ من أين جئت ؟

فقال الطاووس : من بساتين آدم ..

قال إبليس : إن له عندى نصيحة ، وأريد أن تدخلنى معك إلى الجنة لأسرها إليه ..

فقال له : ولم لا تدخل بنفسك ؟

قال إبليس : إنما أريد أن أدخل سراً ..

قال الطاووس : لا سبيل إلى ذلك ، ولكنى آتيك بمن يُدخلك سراً ..

وذهب الطاووس إلى الحيّة – ولم يكن فى الجنة أحسن منها خلقاً – وأخبرها قائلاً : إن على باب الجنة ملكاً من المكرمين ، ومعه نصيحة .

فأسرعت الحية إليه ..

وما زال بها هذا الخبيث ، ينفث لها السحر فى الحديث ، ويغريها بمعسول الكلام ، حتى استجابت لما نسج لها من أوهام ، وفتحت فاها ، فانساب فيه ، ودخلت به الجنة ، وأخرجته عند الشجرة ..

ما هذه الشجرة ؟

قال المفسرون : إنها شجرة الحنطة ، وكانت الحبّة من سنبلتها أحلى من العسل ، وألّين من الزبد .. ولما تاب الله على آدم جعلها غذاء لبنيه ..

وقال بعضهم : هى الكرمة .. ولذلك حرمت الخمر ، لأنها تعصر منها ..

وقال بعضهم : هى الكافور ..

وذهب بعضهم إلى أنها شجرة التين ..

وليس فى هذا التعيين خبر يعضده .. فالصواب أن يعتقد أن الله - تعالى - نهى آدم عن شجرة بعينها ، فخالف هو إليها بإغواء إبليس له ، وعصى بالأكل منها ..

والأولى أن تسمى هذه الشجرة : شجرة المحنة ؛ لأنها امتحنت آدم .. وحق قول الله - تعالى - فى ذلك :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ (٥٤) ..

ولم يأت فى القرآن الكريم تحديدٌ لنوع هذه الشجرة ؛ لأن تحديد نوعها لا يزيد شيئاً فى حكمة حظرها ..

إنها لحكمة التربية ؛ تربية الإرادة ، وترويض النفس على الصبر ، والوقوف عند الأمر والتزامه ..

ووقف إبليس عند هذه الشجرة .. واقتطف من ثمرها ، وقدمه لكل من آدم وحواء ؛ قائلاً لهما :

انظرا إلى ثمار هذه الشجرة . ما أطيب ريحها ! وما ألذ طعمها ! وما أحسن لونها !

هذه هى شجرة الخلد التى مَنْ ذاق ثمارها لا يفنى ولا يبلى .. إنه يبقى فى هذه الجنة الوارفة الظلال ، الطيبة المقام ، لا يخرج منها أبداً .. وقال لهما - ما حكاه رب العزة - :

﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾(٥٥).

---

(٥٤) الآية ١١٥ من سورة طه.

(٥٥) من الآية ٢٠ من سورة الأعراف.

وأقسم لهما – وهما يظنان أنه لا يقسم أحد كذباً – على أنه ناصح أمين .. وهذا ما ذكره القرآن عنه فى قوله – تعالى – :

﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (٥٦) .

وما زال إبليس بهما حتى لانا وتناولا منه هذه الثمار .. فأكلاها ..

وسرعان ما نزع عنهما لباسهما ، وظهرا عاريين فتواريا خجلا ..

قال – تعالى – :

﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٥٧) ﴾

ومنذ ذلك الحين اشتدت العداوة بين الإنسان والشيطان ..

وبين الإنسان والحية ..

لقد ذكر المفسرون أن الحية كانت خادماً لآدم فى الجنة تمتثل أمره ، فلما هبطوا من الجنة إلى الأرض تأصلت العداوة بينها وبين آدم . وتوارث الأبناء هذا العداء .

ولذلك أمر رسول الله – ﷺ – بقتلها فى الحل والحرم ، فقال – فيما رواه القرطبى فى تفسيره عن ابن عمر – : « خَمْسٌ يَقْتُلُهُنَّ الْمُحْرِمُ .. فَذَكَرَ فِيهِنَّ الْحَيَّةَ » (٥٨) .

---

(٥٦) الآية ٢١ من سورة الأعراف .

(٥٧) الآيات ٢٢ – ٢٤ من سورة الأعراف .

(٥٨) وانظر : الجامع الصغير جـ ٢ ص ٦ .

وروى أن إبليس قال للحية : أدخليني الجنة وأنت فى ذمتي .. فكان ابن عباس - رضى الله عنهما - يقول : اخفروا ذمة إبليس ؛ أى : بقتل الحية .

آدم وحواء فى الأرض :

وهبط الجميع إلى الأرض متفرقين ..

فقط هبط آدم بـ « سرنديب » فى « الهند » على جبل ؛ يقال له : الراهون ، كما ذكر المسعودى .. ويقول القرطبى : إن اسم الجبل : بوذ ..

وعليه الورق - أى : ورق الجنة - الذى خصفه على جسمه ليوارى سوءته ..

ويبس الورق وتناثر وذرته الريح ، فانتشر فى أماكن متفرقة ؛ فيقال : إن علة كون الطيب فى أرض « الهند » من ذلك الورق .

ويقال : لقد خصت أرض « الهند » . بالعود والقرنفل والأفاويه والمسك وسائر الطيب .

وجبالها نالها من ذلك الجمال نصيب ، فقد لمعت عليها اليواقيت ، وكثر فيها الماس ، وفى جزائرها الأحجار الكريمة ، وفى بحارها مغاصات اللؤلؤ .

وحكى المسعودى كذلك أن آدم حين هبط من الجنة خرج ومعه صرة من الحنطة ، وثلاثون قضيباً من شجرات الجنة فيها أصناف الثمار ..

منها عشرة مما له قشر ؛ وهى : الجوز ، واللوز ، والجلوز - وهو : البندق - والفستق ، والخشخاش ، والشاهبلوط ، والرانج ، والرمان ، والموز ، والبلوط .

ومنها عشرة من ذوات النوى ؛ وهى : الخوخ ، والمشمش ، والأجاص ، والرطب ، والغبيراء ، والنبق ، والزعرور ، والعناب ، والمقل ، والشاهلوج (وهذا اسم فارسى وتفسيره ملك الأجاص) .

ومنها عشرة مما لا قشر لها ولا حجاب دون مطعمها ؛ وهى : التفاح ، والسفرجل ، والعنب ، والكمثرى ، والتين ، والتوت ، والأترج ، والقثاء ، والخيار ، والخرنوب ..

وكان آدم طويلاً فائق الطول ، وربما مسح السحاب رأسه فاصلع ، وأورث أبناءه الصلع ، روى البخارى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال : « خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً » .. وأخرجه مسلم [٥٩] ..

وهبطت حواء بـ « جدة » ، قرب « مكة » ..

وهبط إبليس بـ « الأُبُلَّة » ، وهى بلدة على شاطىء دجلة ..

وهبطت الحية بـ « بيسان » ، وهى بلدة جرز بـ « الشام » ، وقيل : بـ « سجستان » وهى من مدن « خراسان » .. ولذلك يقال : إن « سجستان » أكثر البلاد حيات .. ولولا (العربد) – بسكون الراء وتشديد الدال – وهى حية تنفخ ولا تؤذى ، تأكل الحيات وتفنى كثيراً منها لهُجرت « سجستان » من كثرة ما فيها من الحيات .

وطالت الفرقة بين آدم وحواء ، وظل كل منهما يبحث عن الآخر ، فى أرض فسيحة لا دار فيها ولا ديّار ، ولا أنيس ولا جليس .

حتى أراد الله أن يلتقيا ، فالتقيا فى « عرفة » .. ومن أجل ذلك سمى هذا الموضع الذى يقف فيه الحجاج : عرفات .

حكمة الهبوط :

لقد تحققت بالهبوط حكمة الاستخلاف فى الأرض ، فقد أخبر الله ملائكته قبل خلق آدم بقوله – عز شأنه – : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ .

وخُلق آدم ليكون خليفة الله فى أرضه ، عليها يحيا ، وفيها يكدح ، ويسعى ويموت ، ومنها يبعث بعد ذلك .

---

(٥٩) وانظر : الجامع الصغير جـ ٢ ص ٥ .

ولقد كانت سكناه فى الجنة فترة تكريم له ، ونكاية فى إبليس الذى حاول الغضَّ من شأنه ، والحط من قدره .

ولم يكن إخراجه من الجنة - كما يقول العلماء - عقوبة له ؛ لأنه أهبطه الله بعد أن تاب عليه وقبل توبته .

لقد ندم آدم على زلته ، وكان ندمه هو طريق توبته .. وقد ورد عن النبى - ﷺ - قوله : « النَّدَمُ تَوْبَةٌ »[٦٠] ..

وفيما يرويه ابن كثير عن أبيّ بن كعب قوله : قال رسول الله - ﷺ - : قال آدم - عليه السلام - : أرأيت يارب إن تبت ورجعت أعائدى إلى الجنة ؟ قال : نعم . فذلك قوله - تعالى - : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[٦١] .

محاجّة آدم لموسى :

روى البخارى قال : حدثنا قتيبة ، حدثنا أيوب بن النجار عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : « حاج موسى آدم - عليهما السلام - فقال : أنت الذى أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم .

قال آدم : يا موسى ، أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وكلامه ؛ أتلومنى على أمر قد كتبه الله علىَّ قبل أن يخلقنى ، أو : قدره علىَّ قبل أن يخلقنى ؟

---

(٦٠) انظر : الجامع الصغير جـ ٢ ص ٨٩ . والحديث رواه : ابن مسعود ، وأنس رضى الله عنهما .

(٦١) الآيات ٣٨ - ٤٠ من سورة البقرة .

قال رسول الله - ﷺ - : فحج آدم موسى » ..

وذكر القرطبى أن الليث بن سعد قال : إنما صحت الحجة فى هذه القصة لآدم على موسى - عليهما السلام - من أجل أن الله - تعالى - قد غفر لآدم خطيئته وتاب عليه ، فلم يكن لموسى أن يعيره بخطيئة قد غفرها الله - تعالى - له ، ولذلك قال آدم لموسى : أنت الذى آتاك الله التوراة وفيها علم كل شيء ، فوجدت فيها أن الله قد قدّر علىّ المعصية ، وقدر علىّ التوبة منها ، وأسقط بذلك اللوم عنى ، أفتلومنى أنت والله لا يلومنى ؟ !

وقد قيل : إن آدم أب ، وليس تعييره من برّه .. فإن الله - تبارك وتعالى - يقول فى الأبوين الكافرين : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [٦٢] .. ولهذا قال إبراهيم - عليه السلام - لأبيه بعد أن قال له : لئن لم تنته لأرجمنك واهجُرنى مليا : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [٦٣] .

فكيف بأب هو نبىٌّ قد اجتباه ربه ، وتاب عليه وهدى ؟ !

هل يجوز للعصاة الاحتجاج بحجة آدم ؟

لقد أخطأ أبونا آدم وتاب ، وقبل الله توبته ، وأهبطه إلى الأرض لحكمة عالية أشار إليها الحق قبل إسكان آدم الجنة ، بل قبل خلقه .. وهى استخلافه فى الأرض . وقد سُجِّل ذلك فى الصحف الأولى وعرفه الملائكة .

ولا يجوز لمن يجيء بعد ذلك فيعصى أن يحتج بهذه الحجة ويقول : إن الله قد كتب علىّ المعصية فعصيت . وقد ردّ الله حجة من زعموا ذلك

---

(٦٢) من الآية ١٥ من سورة لقمان .

(٦٣) من الآية ٤٧ من سورة مريم .

حين قالوا : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا ﴾ (٦٤) .. وحين قالوا : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٦٥) .

لقد ردّ الله على هؤلاء مزاعمهم الباطلة بعد أن أرسل إليهم الرسل ، ورزقهم العقل ، وهداهم النجدين ، وأمرهم بالطاعة ، وحذرهم من المعصية ، ولذلك كانت حجة الله عليهم بالغة . وقد قال – تعالى – : ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (٦٦) .

الكلمات التى تلقاها آدم :

ولأهل العلم فى الكلمات التى تلقاها آدم أقوال متعددة ..

قال بعضهم : هى قوله – تعالى – : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٦٧) .

ويحكى الطبرى فى ذلك من قول بعضهم ما روى عن مجاهد ؛ هى : « اللهم لا إله إلا الله ، أنت سبحانك وبحمدك ، ربّ إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ، إنك خير الراحمين . اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك ، رب إنى ظلمت نفسى فتب علىّ ؛ إنك أنت التواب الرحيم » ..

قال ابن كثير : وروى الحاكم فى مستدركه ؛ قال آدم : يارب ؛ ألم تخلقنى ؟ قيل له : بلى . قال : ونفخت فىّ من روحك ؟ قيل له : بلى . قال : وعطست : فقلت لى : يرحمك الله ؟ وسبقت رحمتك غضبك ؟ قيل له : بلى . قال : وكتبت علىّ أن أعمل هذا ؟ قيل له : بلى . قال : أفرأيت إن تبت هل أنت راجعى إلى الجنة ؟ قال : نعم .

---

(٦٤) من الآية ١٤٨ من سورة الأنعام .

(٦٥) من الآية ٣٥ من سورة النحل .

(٦٦) الآية ١٦٥ من سورة النساء .

(٦٧) من الآية ٢٣ من سورة الأعراف .

وروى الحاكم أيضاً والبيهقى فيما هو مسند إلى عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – : « لما اقترف آدم الخطيئة قال : يارب ؛ أسألك بحق محمد إلا غفرت لى . فقال الله : فكيف عرفت محمدا ولم أخلقه بعد ؟ فقال : يارب ، إنك لما خلقتنى بيدك ونفخت فىّ من روحك رفعتُ رأسى ، فرأيت على قوائم العرش مكتوباً : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك . فقال الله : صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلىّ ، وإذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك .

وذكر الشيخ محمد علوى المالكى الحسنى [٦٨] قصة توسّل آدم بالنبى – ﷺ – وذكر الحديث المشار إليه ، وأثبت أن الإمام ابن تيمية استشهد به فى الفتاوى [٦٩] على صحة التوسل بالنبى – ﷺ – .

قال : روى ابن تيمية حديثين فى هذا الموضوع وأوردهما مستشهداً بهما ، فقال : روى أبو الفرج ابن الجوزى بسنده إلى ميسرة قال : قلت : يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وخلق العرش كتب على ساق العرش : محمد رسول الله خاتم الأنبياء ، وخلق الله الجنة التى أسكنها آدم وحواء ، فكتب اسمى على الأبواب والأوراق والقباب والخيام ، وآدم بين الروح والجسد ، فلما أحياه الله – تعالى – نظر إلى العرش فرأى اسمى ، فأخبره الله أنه سيد ولدك ، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمى إليه .

ثم ذكر الحديث الآخر الذى ذكرناه آنفاً ..

ثم قال : فهذا الحديث يؤيد الذى قبله ، وهما كالتفسير للأحاديث الصحيحة . وهذا يدل على أن الحديث عند ابن تيمية صالح للاستشهاد

---

(٦٨) انظر : ص ٤٧ من كتابه : مفاهيم يجب أن تصحح .
(٦٩) جـ ٢ ص ١٥٠ .

والاعتبار ؛ لأن الحديث الموضوع أو الباطل لا يستشهد به عند المحدثين ، وأنت ترى أن الشيخ استشهد به هنا ..

وأيًّا ما كانت الكلمات فقد تاب الله على آدم ..

وهبط إلى الأرض لتتم حكمة الله من خلقه ، وهي نشر نسله فيها ؛ ليكلفهم ويمتحنهم . ويترتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخروى ..

إذ الجنة والنار ليستا بدار تكليف ، فكانت تلك الأُكلة سبباً فى إهباطه إلى دار العمل .. والله – سبحانه – يفعل ما يشاء .

ولاشك أن هذه منقبة عظيمة ومنزلة كريمة لآدم ، حيث اختاره الله ليكون خليفته في إمضاء أحكامه وأوامره .. فهو أول رسول إلى الأرض .. سأل أبو ذر الرسول – ﷺ – فيما يذكره القرطبى ، عن آدم : هل هو نبى مرسل ؟ قال : نعم .

الكدح فى الأرض :

شمر آدم عن ساق الجد كادحاً فى الأرض ..

فقد أصبح مسئولاً عن قوته بعد أن كان – فى الجنة – يجد كل شىء لديه حاضرًا ، قبل أن يفكر فيه .

وقد أخبر الله – سبحانه – عن الجنة بقوله ﴿ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ (٧٠) .

ويقال : إن الخاطر الذى يجرى فى الذهن دون أن يتلفظ به صاحبه يجده مشهودًا لديه ، ماثلاً بين يديه ، لا تعب فيها ولا نصب ، ولا هم ولا حزن ، ولا كد ولا سعى .. أَخْبَرَ أهلُها عنها بقولهم فيما يحكيه القرآن عنهم :

---

(٧٠) من الآية ٧١ من سورة الزخرف .

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ . الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾(٧١) .

نعيمها مقيم ، وخيرها عميم ، وظلها دائم ، وساكنها غانم ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ..

ولقد وصف الله الجنة فى القرآن الكريم بما لا يترك مزيدًا لواصف فقال فى مثل محسوس ملموس يتمثله الذهن ويدركه العقل :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾(٧٢) .

وقال : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ . فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ . فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ . يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ . لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾(٧٣) .

وقال : ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا . مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا . وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً . وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرا . قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا . وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً . عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً . وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا . وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا . عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴾(٧٤) .

---

(٧١) الآيتان ٣٤ - ٣٥ من سورة فاطر .

(٧٢) من الآية ١٥ من سورة محمد .

(٧٣) الآيات ٤١ - ٤٧ من سورة الصافات .

(٧٤) الآيات ١٢ - ٢٣ من سورة الإنسان .

شتان ما بين هذا وبين ما أصبح فيه آدم الآن بعد هبوطه إلى الأرض .

لقد ودع تلك الحياة الناعمة ، واستقبل حياة أخرى كادحة ناصبة .

ولقد حذره الله – تعالى – من الشيطان وكيده حين قال له : ﴿ يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى . إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى . وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُ فِيهَا ولاَ تَضْحَى ﴾[٧٥].

كان في عصيانه شقاؤه وفساد حياته ..

قال العلماء – في تفسير قوله – تعالى – : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ – : إن معنى « غوى » : فسد عيشه بخروجه من الجنة ، وليس معناها : ضل .

لقد شقى آدم وحده ، فلم يعد مسئولاً عن نفسه فقط ، بل أصبح مسئولاً عن زوجه أيضاً .

فعليه منذ الآن أن يسعى لتحصيل رزقها مع رزقه ، وقوتها مع قوته ، وحاجتها مع حاجته . وهذه هي القوامة التي جعلها الله للرجل على المرأة في قوله – تعالى – : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾[٧٦].

معنى الشقاء :

لقد كان الأمر بالإخراج واقعاً عليهما[٧٧] معاً ، ولكن الشقاوة وقعت على آدم وحده .

أما الشقاوة فهي شقاوة البدن لا شقاوة المصير .

---

(٧٥) الآيات ١١٧ – ١١٩ من سورة طه .
(٧٦) من الآية ٣٤ من سورة النساء .
(٧٧) اى : آدم وحواء .

لقد أخبره الله بأنه فى الجنة ستكون حالته كما وصفها الحق : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى . وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى ﴾(٧٨) .

أما الآن بعد هبوطه من الجنة فقد تعرض للجوع والعرى والظمأ والحر والبرد وغير ذلك من أعراض الحياة .

بعد أن كان فى الجنة مكفولاً له الكسوة والطعام والشراب والسكن واللذة الدائمة والراحة التامة .

يا له من امتحان صعب تعرض له آدم – عليه السلام – !!

إنها استجابة واحدة للإغراء جَنَتْ عليه ذلك كله ، فكيف يكون أمر الذى يستجيب دائماً للإغراء ، ويظل طول عمره سادراً فى اللهو ومضطرباً فى حبال الشهوات ؟ !

لقد نسى آدم مرة واحدة ؛ فما بال الذى يظل طول عمره ناسياً ؟ !

إنه دَرْس .. وأىُّ درس !!

ضرب الله مثلاً فى أبينا آدم ؛ ليكون عبرة لأبنائه من بعده .

إن إبليس عدو لهم جميعاً وليس لآدم وحده ، ولن ينسى العداوة أبدًا ، وقد أقسم بعزة ربه قائلاً :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾(٧٩).

وإذا كان آدم – عليه السلام – لحكمة عالية أنساه الله وصيته فأكل من الشجرة المحرمة فأُخرج بسبب ذلك النسيان من لذة الجنة الخالدة إلى حين ؛ فما شأن الذى يغرق نفسه فى المعصية عامداً متعمداً ؟

إنه بذلك يكون قد حرم نفسه من ريح الجنة أبدًا ، وحق عليه قول الله – عز وجل – :

---

(٧٨) الآيتان ١١٨ – ١١٩ من سورة طه .
(٧٩) الآيتان ٨٢ – ٨٣ من سورة ص .

﴿ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا . وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾(٨٠) .

خرج آدم من الجنة ليشقى بجسده كادحاً ضارباً فى الأرض ، حاملاً هم النفقة والرزق له ولزوجه ولمن يأتى من ولده ..

فهؤلاء جميعاً فى ذمته ، بعد أن كان فارغاً مِنْ هَمِّ ذلك كله ..

أصبح ملتزماً – كما حددت الشريعة – بطعام زوجه وشرابها وكسوتها ومسكنها ، وإذا وفر لها هذه الأشياء الأربعة فقد وفّى بشرطه ، وإن زاد على ذلك فهو مأجور .

والمراد بقوله – تعالى – « فتشقى » : شقاء الدنيا فحسب ، ولهذا الشقاء أجره وثوابه عند الله .. والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ..

بل إنه قد يكون من أسباب تكفير الذنوب أحياناً السعى فى طلب الرزق ، ويقول العلماء العارفون : إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا الهم بالعيال ؛ أى : السعى فى طلب رزقهم .

كما أنه قد يكون ذلك سبباً من أسباب رفع الدرجات ؛ لأنه جهاد فى سبيل الله . وقد روى أن السعى فى سبيل الوالدين جهاد فى سبيل الله ، والسعى فى سبيل عفة النفس عن السؤال جهاد فى سبيل الله ..

الدعوة إلى العمل :

وهذه حكمة عالية تدفع الإنسان إلى العمل ، وتحثه على السعى ، وتحفزه إلى تحصيل المنافع فى الحياة وتطويرها إلى ما هو أفضل ..

---

(٨٠) الآيتان ٦٣ – ٦٤ من سورة الإسراء .

وقد وعد الله المجتهدين فى أعمالهم بحسن الثواب ؛ فقال : ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾[٨١] .

ويستوى فى ذلك عمل الدنيا وعمل الآخرة .. ولكل مجتهد نصيب ..

فكلمة « فتشقى » تشير إلى الكدح والجد فى الحياة .

وقد قام آدم – عليه السلام – بذلك خير قيام ..

قال العلماء : أعطاه الله ثوراً أحمر يحرث عليه ، وكان يمسح العرق من جبينه من شدة التعب والإرهاق .

وأتاه جبريل بحبات من الجنة ، وعلمه كيف يزرع .. وقد مرَّ بنا – ما رواه المسعودى فى مروج الذهب – من أنه حمل معه ألواناً من النبات والزرعَ ..

فحرث ، وزرع ، ثم حصد ودرس ..

ثم نقى الحنطة وطحنها ..

ثم عجن وخبز .. كل ذلك علمه له جبريل ..

قال ابن إياس فى كتابه « بدائع الزهور » : لما زرع آدم نبت فى الحال وأسبل وأدرك القمح من يومه ، فعلمه جبريل كيف يحصد ، فحصد ، ودرس ، وذرّى فى الهواء .. فقال آدم لجبريل : آكل ؟ قال : اصبر ، ثم قطع من الجبل حجرين فطحن بهما ، فلما صار دقيقاً قال آدم : آكل ؟ فقال له : اصبر ..

علمه كيف يخبز فخبز ، فقال لجبريل : آكل ؟ فقال له : اصبر حتى تغرب الشمس ، فيتم لك صوم يوم كامل ..

فكان آدم أول من صام على وجه الأرض ..

---

(٨١) من الآية ٣٠ من سورة الكهف.

قالوا : ثم جلس ليأكل بعد هذا التعب الشديد ، فتدحرج رغيفه من يده حتى صار أسفل الجبل ..

وجرى آدم وراءه حتى تعب وعرق جبينه .. قال له جبريل : لو صبرت لأتاك رزقك من غير أن تقوم إليه .. وخوطب آدم : يا آدم فكذلك رزقك يكون بالتعب والشقاء ، ورزق ولدك من بعدك فى الدنيا ..

ويروى أن آدم لما أكل من الرغيف ادخر منه إلى الليلة القابلة ، فقال له جبريل : لولا أنك فعلت ذلك لما كان أحد من أولادك يدخر ، وصار الادخار عادة لبنيه من بعده ..

البحث عن حواء :

وحكى الثعلبى فى كتابه قصص الأنبياء :

حين هبط آدم من الجنة ومست قدماه الأرض ، وكان عارياً إلا من تلك الأوراق التى سرعان ما ذبلت وجفت وتطايرت فى الهواء - كما قدمنا - شعر بالبرد وآذته الشمس بحرها .

لقد أصبح جو الأرض غريباً عليه - وكان قد اعتاد هواء الجنة الجميل الذى لا يمس من يستنشقه أذى ولا نصب ..

وسرت رعدة البرد فى جسده ، فشكا ذلك إلى جبريل ، فقال له : إنك تشكو العرى ..

فما الوسيلة التى يلجأ إليها آدم لتغطية جسده ؟

إن العناية الإلهية ما زالت ترعاه ..

أنزل الله ثمانية أزواج أخبر عنها القرآن الكريم ؛ وذلك قوله - تعالى - : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ﴾[٨٢] .. وقوله - تعالى - ﴿ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ﴾[٨٣] .

---

(٨٢) من الآية ١٤٣ من سورة الأنعام .

(٨٣) من الآية ١٤٤ من سورة الأنعام .

وأخذ جبريل صوف الكبش وأعطاه حواء فغزلته ، ونسجه آدم ، ثم حاكه ، واتخذ آدم منه كساء ، واتخذت حواء منه درعاً وخماراً .

لقد غزلت حواء ، والمغزل يناسب طبيعة المرأة ، وهو من خصائص عملها في بيتها .. وقد ورد : « نِعْمَ الْعَمَلُ لِنِسَاءِ أُمَّتِى الْغَزْلُ »[٨٤] ..

ونسج آدم ، والنسيج من أعمال الرجال التى تحتاج إلى قوة بدنية ، وحاكه آدم .. وهو أول من خاط الثياب .. روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ، قال : جاء رجل إلى النبى – ﷺ – فقال : يا رسول الله ، ما تقول في حرفتى ؟ فقال : وما حرفتك ؟ فقال : أنا رجل حائك ، قال رسول الله – ﷺ – : حرفة أبينا آدم ..

وجاء فى الطبقات الكبرى لابن سعد :

حين نزل آدم من الجنة ، وكان طوله ستين ذراعاً ، ولم يجمع حُسن آدم لأحد من ولده إلا ليوسف . وأنشأ آدم ، يقول : رب كنت جارك فى دارك ، ليس لى رب غيرك ولا رقيب دونك ، آكل فيها رغداً ، وأسكن حيث أحببت ، فأهبطتنى إلى هذا الجبل المقدس فكنت أسمع أصوات الملائكة وأراهم كيف يحفون بعرشك ، فأجد ريح الجنة وطيبها ، ثم أهبطتنى إلى الأرض وحططتنى إلى ستين ذراعاً فقد انقطع عنى الصوت والنظر ، وذهب عنى ريح الجنة ، فأجابه الله – تبارك وتعالى – : لمعصيتك يا آدم ، فعلت ذلك بك .. فلما رأى عرى آدم وحواء أمره أن يذبح كبشاً من الضأن ..

لقد كان ذلك بعد أن اجتمع آدم وحواء ..

فكيف اجتمعا ؟

لقد نزل آدم – كما عرفنا – بأرض « الهند » ، ونزلت حواء بـ « جدة » ..

---

(٨٤) انظر : كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق للإمام المناوى جـ ٢ ص ١٣٠ (ط ٤ دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان) .

ومن الطريف أن بعض الناس يقولون : إن « جدة » سُميت بهذا الاسم ؛ لأن جدتنا حواء نزلت بها ..

والحقيقة أنه لا علاقة لتسمية هذا المكان بجدتنا حواء ؛ لأن اللغة تقول : جِدَّةُ النهر وجُدَّتُهُ – بكسر الجيم وضمها – : ما قرب من الأرض . ولذلك قيل لهذا المكان المعروف : جدة . وأصل هذه الكلمة : (كده) بالكاف ، فعربت بالجيم(٨٥) ..

ونعود للإجابة عن السؤال السابق : كيف اجتمع آدم وحواء ؟

ذكر ابن إياس فى بدائع الزهور وفى وقائع الدهور أن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : كان آدم إذا جاع نسى حواء ، وإذا شبع ذكرها . فقال يوماً لجبريل : هل حواء على قيد الحياة أو ماتت ؟

فقال له : بل على قيد الحياة ، وإنها لأصلح حالاً منك ؛ لأنها على ساحل البحر تصطاد الأسماك وتأكل منها .

فقال آدم : إنى رأيتها فى منامى هذه الليلة .

فقال جبريل : أبشر فما أراك الله إياها إلا لقرب الاجتماع .

قال الثعلبى : وأوحى الله إلى آدم : يا آدم إن لى حرماً بحيال عرشى ، فَأْتِهِ وطف به كما يطاف حول العرش ، وصل عنده كما يصلى عند عرشى ..

وكان الله – سبحانه – قد أنزل ياقوتة من يواقيت الجنة ، ووضعها موضع البيت على قدر الكعبة ، لها بابان ، باب شرقى وباب غربى ، وفيها قناديل من نور .

فانطلق آدم من أرض « الهند » إلى أرض « مكة » لزيارة البيت ، وقيض له ملكاً يرشده ..

---

(٨٥) ذكر ذلك ابن منظور فى لسان العرب ..

فكان كل موضع يضع فيه قدمه يعمر ، وما يتعداه يكون قفرًا ..

وصل إلى « عرفات » .. وكانت حواء قد اتجهت إلى هذا المكان ، وهناك تعارفا ، وسُمي المكان « عرفة » لذلك . وهذا أحد التعليلات التى ذكرها ابن منظور[٨٦] . قال : وذهبا معاً إلى « منى » ، فقيل لآدم : تمنَّ ، فقال : أتمنى المغفرة والرحمة ، فسمى ذلك الموضع : « منى » ، وغفر الله ذنبهما ، وقبل توبتهما ..

ثم انصرفا معاً إلى أرض « الهند » ..

بناء الكعبة :

ويدفعنا ذلك إلى الحديث عن بناء الكعبة ، ومتى كان ذلك ؟

يقول الله – تعالى – : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾[٨٧] .

جاء فى الطبقات الكبرى : أوحى الله إلى آدم إن لى حرماً بحيال عرشى ، فانطلق ، فابن لى فيه بيتاً ، ثم حف به كما رأيت ملائكتى يحفون بعرشى ، فهنالك أستجيب لك ولولدك ، من كان منهم فى طاعتى ، فقال آدم : أى رب ، وكيف لى بذلك ؟ لست أقوى عليه ولا أهتدى له ، فقيض الله له ملكاً فانطلق به نحو « مكة » .

فكان آدم إذا مر بروضة ومكان يعجبه قال للملك : انزل بنا ههنا ، فيقول له الملك : مكانك ، حتى قدم « مكة » .

فكان كل مكان نزل به عمرانًا وكل مكان تعداه مفاوز وقفارًا ..

---

(٨٦) انظر : لسان العرب .

(٨٧) الآيتان ٩٦ – ٩٧ من سورة آل عمران .

فبنى البيت من خمسة أجبل ، من طور سيناء ، وطور زيتون ، ولبنان ، والجودى ، وبنى قواعده من حراء ..

فلما فرغ من بنائه خرج به الملك إلى عرفات فأراه المناسك كلها التى يفعلها الناس اليوم .

ثم قدم به إلى « مكة » فطاف بالبيت أسبوعاً ، ثم رجع إلى أرض الهند فمات هناك[٨٨] ..

وفى تفسير القرطبى : ذكر الماوردى عن عطاء عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لما أهبط آدم من الجنة إلى الأرض ؛ قال له : يا آدم ؛ اذهب فابن لى بيتاً وطف به واذكرنى عنده[٨٩] .

وذكر عن على بن أبى طالب : أمر الله - تعالى - الملائكة ببناء بيت فى الأرض وأن يطوفوا به قبل خلق آدم ، ثم إن آدم بنى منه ما بنى وطاف به ثم الأنبياء بعده[٩٠] ..

وذكرت الكاتبة أمينة الصاوى أن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : بُعث جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما : ابنيا لى بيتاً ، فخط لهما جبريل ، فجعل آدم يحفر ، وحواء تنقل التراب حتى أجابه الماء ، ونودى من تحته : حسبك يا آدم .. فلما بنيا أوحى الله - سبحانه وتعالى - إليه أن يطوف به ، وقيل له : أنت أول الناس وهذا أول بيت .. ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد[٩١] .

من ألوان السعى فى الحياة :

ولم تكن حياة آدم فى الأرض خالية من المشقة والجهد ، فقد خرج من الجنة ليشقى كما قال القرآن الكريم ..

---

(٨٨) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١٥ .
(٨٩) التفسير جـ ٢ ص ١٢٠ .
(٩٠) التفسير جـ ٤ ص ١٣٨ .
(٩١) الكعبة على مر العصور لأمينة الصاوى ص ١٨ .

وقد قام بكثير من ألوان الكفاح ؛ لأنه كان وحيدًا فى أول أمره ، وعليه أن يقوم بكل ما يعينه على الحياة بدون مساعد ..

ولأنه قدوة لولده الذين بدءوا يأخذون طريقهم إلى الحياة ، يتعلمون منه ضروب الكفاح والسعى لتعمر الدنيا ، وتأخذ بهجتها ، وتتعدد صور المنافع فيها .

وقد بينا - من قبل - كيف تعلم الزراعة والحصاد والدرس والطحن والعجن والخبز .

وكيف تعلم الذبح والسلخ وجز الصوف وغزله ونسجه وحياكته .

ثم تعلم كيف يحفر الأرض ويستنبط منها الماء ليشرب ثم ليسقى زرعه .

وأنزل الله الحديد فتعلم كيف يحميه ويطرقه ويتخذ منه ما يصلح به شأنه .. ويقال : إن أول شيء صنعه من الحديد : المدية ، فكان يعمل بها ، ثم ضرب التنور الذى ورثه نوح من بعده ..

ويقال : إنه حمل معه من الجنة قطعة من الذهب ، وهو : المعدن الذى لا يصدأ ولا يبلى ولا تنقصه الأرض ولا تأكله النار ؛ لأنه من الجنة حُمل ..

وزرع آدم فى الأرض .. زرع الحبوب التى حملها معه من الجنة ..

وقيل : إنه حمل من الجنة سيد الرياحين ؛ وهو : الآس ، وسيد الطعام ؛ وهو : الحنطة ، وسيد الثمار ؛ وهو : العجوة .

وقيل : حمل معه آنية فيها عريشة عنب فغرسها وأثمرت ، فجاء إبليس وسرق من ثمارها ..

فقال له آدم : ويلك أخرجتني من الجنة ، وتريد أن تسرق رزقى .

فقال له : إن لى فيها حقًا .. قال : وما حقُّك ؟ قال : لى نشوتها ولكم سائرها[٩٢] ..

ولعل هذا هو سر تسمية الخمر بأم الكبائر ، فمن شربها غيبت عقله فارتكب ما شاء من المعاصى بعد ذلك ..

إبليس :

عرفنا – فيما سبق – أن إبليس هبط بـ « الأُبُلَّة » .

وهى – بضم الهمزة والباء وتشديد اللام – بلد معروف قرب « البصرة » من جانبها البحرى[٩٣] .

وقد عرفنا سر عداوته لآدم وتوعده إياه ، وأعطاه الله من السلطان ما يستطيع أن يقهر به من أبناء آدم من يبتعد عن الطريق ويغفل عن ذكر الله ..

وقد صرح القرآن ببعض قوة إبليس التى يستظهر بها على بنى آدم ..

ذلك أن الله قد أنظره إلى يوم البعث :

﴿ قَالَ أَنْظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾[٩٤] .

وهو قادر على رؤية الإنسان ، والإنسان غير قادر على رؤيته . قال – تعالى – : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[٩٥] .

وقد سوغ الله له مداخلة بنى آدم ومعايشتهم ومشاركتهم فى أمورهم .. فقد قال – تعالى – له :

---

(٩٢) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٣٧ .

(٩٣) انظر : لسان العرب ، الصحاح .

(٩٤) الآيتان ١٤ – ١٥ من سورة الأعراف .

(٩٥) من الآية ٢٧ من سورة الأعراف .

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾[٩٦] .

وخلقه من نار لا ينطفىء أوارها فى داخل نفسه ، وأعطاه القدرة على التشكل والظهور فى أى صورة يشاء ..

وغير ذلك من الوسائل التى يتمكن بها من ممارسة مهمته العدوانية ضد الإنسان .

والتقط الثعلبى هذه المعانى ، وصاغ منها حواراً ، أسنده إلى عبد الله ابن عبيد بن عمير ، قال :

إن إبليس قال : يارب ، إنك أخرجتنى من الجنة من أجل آدم ، وإنى لا أستطيع القدرة عليه إلا بسلطانك . قال : فإنك مسلط عليه .

قال : يارب ، زدنى . قال : لا يولد له ولد إلا ولد لك مثلاه .

قال : يارب ، زدنى . قال : ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم ﴾ .

ولكن آدم استغاث بالله ، وقال : يارب ، سلطته علىّ ، وأنا لا أمتنع منه إلا بك . قال : لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من قرناء السوء ..

قال : يارب ؛ زدنى . قال : الحسنة بعشرة أمثالها وأزيدها ، والسيئة بمثلها واحدة ، وأمحوها .

قال : يارب ؛ زدنى ، قال : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾[٩٧] .

---

(٩٦) الآية ٦٤ من سورة الإسراء .

(٩٧) من الآية ٥٣ من سورة الزمر .

قال : يارب ؛ زدنى . قال : التوبة لا أنزعها من ولدك ما كانت الروح فيهم .

قال : يارب ؛ زدنى . قال : أغفر ولا أبالى ..

قال آدم : حسبى[٩٨] ..

لقد هبط إبليس وضرام الشر فى قلبه ، وضراوة الحقد فى نفسه ، وقد تسلح بسلاح الإنظار والبقاء ، واستعان على الغواية بأولاده وذريته ، ولكن ذلك لا يكفيه .. إنه يريد من بنى آدم أنفسهم من يعينه على مهمته ويساعده على إذاعة كيده ونقمته ..

فقال – فيما يذكر الثعلبى أيضاً – :

يارب لعنتنى وأخرجتنى من الجنة وجعلتنى شيطاناً رجيماً مذموماً مدحوراً ، وبعثت فى بنى آدم الرسل ، وأنزلت عليهم الكتب ، فما رسلى ؟ قال : الكهنة .

قال : فما كتبى ؟ قال : الوشم .

قال : فما حديثى ؟ قال : الكذب .

قال : فما قراءتى ؟ قال : الشعر .

قال : فما مؤذنى ؟ قال : المزمار .

قال : فما مسجدى ؟ قال : السوق .

قال : فما طعامى ؟ قال : ما لم يذكر اسم الله عليه .

قال : فما شرابى ؟ قال : كل مُسْكِر .

قال : فما شباكى ومصايدى ؟ قال : النساء ..

---

(٩٨) الثعلبى ص ٣٩ .

وقد يعوز هذا الخبرَ الإسنادُ .. ولكنك إذا أدرته مع العقل فإنه لا ينكره ..

فإن الكهنة يسخرون الجن أو الجن يسخرونهم ، ويصدون بذلك عن سبيل الله ، ويبثون الفتن والأضاليل بين الناس .. وقد نهى النبى - ﷺ - عن ذلك ؛ حيث قال : « من أتى عرافاً أو كاهناً فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزِل على محمد »[٩٩] .

والوشم محاولة لتغيير ما خلق الله ، وهو ما تجعله المرأة على وجهها أو ذراعها أو ثغرها بالإبرة ثم تحشوه بدخان الشحم .. وقد ورد أن النبى - ﷺ - لعن الواشمة والمستوشمة[١٠٠] .

والكذب ما من أحد إلا ويعرف قبحه ..

أما الشعر فإن الله يقول فيه : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾[١٠١]

والمزمار لهو عن ذكر الله ، والسوق تجرى فيها المظالم والأيمان الكاذبة ، ويكثر فيها الكذب والزور .. وقد ورد أن خير الأماكن المساجد ، وشرها الأسواق[١٠٢] ..

وما لم يُذْكر اسم الله فقد نهى الله عنه .. وذلك قوله - سبحانه - : ﴿ وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾[١٠٣] .

---

(٩٩) مسند ابن حنبل جـ ٢ ص ٤٢٩ ، جمع الجوامع جـ ٣ ص ٣٣٤٤ .
(١٠٠) الجامع الصغير جـ ٢ ص ١٢٤ .
(١٠١) الآيات ٢٢٤ - ٢٢٧ من سورة الشعراء .
(١٠٢) انظر : الجامع الصغير جـ ٢ ص ٨ .
(١٠٣) الآية ١٢١ من سورة الأنعام .

والمُنكِر نهى الله عنه فى قوله – تعالى – :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾(١٠٤) .

وفى الحديث : « كل مسكر حرام »(١٠٥) .

أما النساء فمن المعروف أنهن حبائل الشيطان .. وما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما ..

وفى الواقع أنه لا يوجد أصلح من المرأة إذا صلحت ولا أفسد منها إذا فسدت .

وبهذه الأسلحة التى تسلح بها إبليس سار فى طرق بنى آدم ينفث فيها سمومه ، ويبث شكوكه ، وينصب حبائله فيقع فيها من يقع وينجو من ينجو .. والمعصوم من عصم الله ، ويتوب الله على من تاب ..

رسالة آدم :

جاء فى الأخبار أن حواء حملت من آدم عشرين بطناً ، فى كل بطن ذكر وأنثى .

وتناسل أولاده من بعده عن طريق أن ذكر كل بطن يتزوج من أنثى البطن الذى قبله .. ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا قابيل الذى ستأتى قصته ..

فكان ثمرة هذا التزاوج : التناسل الذى أصبح أمة فى حياة آدم . وقد طال عمره حتى شهد أحفاد أحفاده .. حيث تفرقوا فى أماكن كثيرة ، وعمروا مناطق مختلفة من الأرض ..

---

(١٠٤) الآيتان ٩٠ – ٩١ من سورة المائدة .

(١٠٥) انظر : الجامع الصغير جـ ٢ ص ٩٤ .

وكان لابد لهؤلاء من رسالة ترشدهم وتوجههم وتنير لهم الطريق ، وتبين لهم الحلال والحرام ، وتهديهم إلى عبادة الواحد الأحد.. فقد قال الحق : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[١٠٦] ..

وبخاصة أنه لا يوجد قبل آدم رسل سابقون تركوا تعاليم يمكن الاستنارة بها والاهتداء بهديها ..

روى ابن سعد فى طبقاته عن أبى ذر قال : قلت للنبى – ﷺ – : أى الأنبياء أول ؟ قال : آدم . قلت : أونبيًا كان ؟ قال : نعم نبى مكلَّم . قلت : كم المرسلون ؟ قال : ثلثمائة وخمسة عشر ، جماً غفيراً[١٠٧] .

ومتى كان رسولاً فلا عجب أن تنزل عليه صحائف تحل الحلال وتحرم الحرام ، وقد قدّرها بعضهم بإحدى وعشرين صحيفة . وقال بعضهم : أكثر من ذلك . قالوا : إن فيها تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك ..

وبمقتضى هذه الرسالة عصمه الله من الشيطان بعد هبوطه .. ولذلك فإن القصة التى يذكرها بعض الرواة عن أن إبليس جاء لحواء وهى حبلى .. فأخبرها بأن فى بطنها بهيمة من البهائم ، وطلب منها إن هى أعينت على الحمل ووضعت بسلام أن تسمى مولودها باسمه – وكان إبليس قد جاءها فى غير صورته الحقيقية – وأخبرت حواء آدم بذلك فاهتم له .

فلما وضعت بسلام جاءها إبليس وطلب منها أن تسمى وليدها باسمه ، فقالت له : ما اسمك ؟ قال : الحارث ، فأسمته : عبد الحارث .. وهذا معنى قوله – تعالى – : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ

---

(١٠٦) الآية ٥٦ من سورة الذاريات.

(١٠٧) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١٦ .

دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[١٠٨] ..

نقول : إن هذه القصة من الإسرائيليات ؛ لأنها لا تناسب مقام نبوة آدم ورسالته .. وقد أشار إلى ذلك القرطبي في تفسيره ..

وقد وردت هذه القصة في عدة مصادر ، ولكن التوثيق يعوزها .

ونظم آدم لأولاده حياتهم ، ووكل إلى كل منهم عملاً يقوم به ..

فقد وكل إلى ابنه قابيل أمر الزرع ..

ووكل إلى ابنه الآخر هابيل أمر الضرع ..

واستمر آدم في أداء رسالته ، ورأى من أولاده ما رأى من وفاق تارة ومن خلاف تارة أخرى .. ومن استقامة مرة ومن عصيان مرة أخرى ، فكان يرشد ما وسعه الجهد ، ويأمر بالصلاح ، ويسير بالإصلاح .. ولكن الذى أذاقه الهم وأقض مضجعه ما رآه من صراع عنيف بين ولديه : قابيل وهابيل .. نقص قصته فيما يأتي .

---

(١٠٨) الآيتان ١٨٩ - ١٩٠ من سورة الأعراف .

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾

قال - تعالى - :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ (١٠٩)﴾

أمر الله آدم أن يزوج كل ذكر من أولاده من أنثى البطن التى ولدت قبله .

وذلك أن حواء كانت تحمل فتلد فى كل حمل ذكراً وأنثى .

فولدت فى أول حملٍ : قابيل وأخته إقليمياء .. وكانت جميلة جداً .

وولدت فى الحمل الثانى : هابيل وأخته ليوذا .. ولكنها لم تكن فى جمال إقليمياء ..

وطلب آدم من قابيل أن يتزوج ليوذا .. كما طلب من هابيل أن يتزوج إقليمياء ..

ولم يستجب قابيل لهذا الطلب ورفض ؛ لأن إقليمياء كانت جميلة ، وكان يحبها .. وقال : أنا أحق بأختى من هابيل .

---

(١٠٩) الآيات ٢٧ - ٣١ من سورة المائدة .

ولكن آدم أفهمه أن ذلك أمر الله ، ولا يحق لأحد أن يعصى أمر الله .

غير أن قابيل أصر على موقفه ..

إنه الحب أوّلاً .. « وَحبك الشىء يعمى ويصم » ..

والغواية ثانياً .. ذلك أن قابيل لم يكن يهتم بالتعاليم الدينية والمحافظة عليها ، كأن الشر قد ركب فى طبعه ..

وذلك بعكس هابيل الذى كانت السماحة فى طبعه ، والدماثة فى خلقه ، والسخاء فى نفسه ..

ورفض قابيل رفضاً باتاً أن ينصاع لأمر والده فى الوقت الذى استجاب فيه هابيل للأمر .

ولا يقال إن هابيل استجاب سريعاً لجمال إقليمياء وقبح أخته .. ولكنه استجاب ؛ لأنه يعلم أن ذلك هو أمر الله .

قال آدم لقابيل : إن إقليمياء لا تحل لك ، فالشريعة تقضى ألا يتزوج الأخ من توءمته ، وكانت تحل الزواج من أخت أخرى ليست توءمة له .

وظن قابيل أن الله لم يأمر بذلك ، وإنما هو رأى رآه أبوه ..

فقال آدم : فليقرب كل منكما قرباناً فأيكما يقبل قربانه فهو أحق بإقليمياء ..

ولم يكن ذلك إلا بعد أن احتدم النزاع واشتد الخصام بين الأخوين ..

وكانت علامة قبول القربان : أن تنزل نار من السماء تلتهم هذا القربان ..

وجرت العادة أن يقدم المتقرب القربان من أجود ما يملك ؛ لأن الله - تعالى - طيب ولا يقبل إلا طيباً ..

فعمد هابيل - وهو صاحب الضرع - إلى كبش سمين من خيار ماشيته كان يحبه ، وأخذ لبناً وزبداً ، وأضمر فى نفسه الرضا بما يصنع والتسليم لأمر الله فيما يقضى .. وتضرع إليه مخلصاً أن يتقبل قربانه .. وهذه علامة التقوى والإيمان ..

وتقدم قابيل بحزمة من سنبل – فقد كان صاحب زرع – اختارها من أردأ زرعه ، ثم إنه وجد فيها سنبلة طيبة ففركها وأكلها .. وهذه علامة الإعراض والخذلان ..

فتقبل الله قربان هابيل ..

ورُفع كبشه إلى السماء .. ويقال : إنه الكبش الذى أنزله الله فداءً لإسماعيل – بعد ذلك – حين صدق رؤيا والده التى أمر فيها بذبحه ..

غضب قابيل لعدم قبول قربانه ، وامتلأ قلبه غيظاً وحقداً .. وفاضت نفسه بالحسد والشر ، وتوعد أخاه بالقتل ..

ولقبح الحسد نهى الله عنه ، واستعاذ رسول الله – ﷺ – منه ، وحذر المسلمين من شره .

روى عن النبى – ﷺ – أنه قال : « إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . أو قال : العشب » رواه أبو داود عن أبى هريرة[110] .

ولم يلق هابيل أخاه بالسيئة .. ولكن قابله بالحسنى واللين ..

قال له : « لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين » ..

لقد عصمه الخوف من الله من مجازاة الشر بالشر ، وكان عند أمر الله للمؤمنين فى كل زمان ومكان : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ﴾[111] ..

هذا مع قوة هابيل – كما يقول الرواة – وإمكانه البطش بأخيه لو أراد ..

وكان آدم قد توجه إلى « مكة » لزيارة البيت ..

---

(١١٠) رياض الصالحين ، الحديث رقم ١٥٦٧ .

(١١١) من الآية ٩٦ من سورة المؤمنون ، ٣٤ من سورة فصلت .

ووجد قابيل الفرصة سانحة لتنفيذ وعيده . فقد قال لهابيل : « لأقتلنك » ..

قال له هابيل : ولم ؟

قال قابيل : لأن الله تقبل قربانك ولم يتقبل قربانى .

فقال هابيل : « إنما يتقبل الله من المتقين » ..

قال قابيل : ولأنك تريد أن تنكح أختى الحسناء ، وتترك لى أختك الدميمة .. فماذا يقال عنى ؟ إنهم يقولون : إنك خير منى وأفضل ، ويرث أولادك الفخر على أولادى .. لن أترك لك هذه الفرصة أبدًا ..

وربما كان هذا القول من وسوسة الشيطان التى زرعها فى نفس قابيل .. إنها أوهام إبليس التى ألبسها ثوب الحقائق ..

فقال هابيل فى مودة ورحمة — وهو يأمل أن يستل سخائم الحقد والموجدة من نفس أخيه — : « لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين » ..

إنها التقوى التى أنطقت هابيل بهذا الكلام السماوى الرائع ، وإنها مراقبة الله التى تورث الخشية والورع ..

ولكن قابيل لم يكن لديه شيء من ذلك ، كان قاسى القلب .. وقد تمكن الشر منه ، وبلغ أقصى غايته ، وغذاه الشيطان الذى أخرج أبويه من الجنة .. وما زال يوسوس فى صدره ، وينفخ من سحره فى قلبه حتى استل منه كل إحساس بالرحمة والمودة وصلة الرحم والخوف من الله ..

لقد هان فى نظر قابيل كل شيء ماعدا الظفر بإقليمياء .. إنها فى نظره كل شيء .. ومن أجلها يهون كل شيء ..

« فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله » ..

وقهقه الشيطان عالياً .. لقد نجح فى زرع بذرة الشر والبغى بين بنى آدم ..

أما كيف قتله ، فهذه مهمة إبليس ..

لقد شحن نفس قابيل أولاً بالرغبة في الانتقام ، حتى إذا أصبح مستعداً لتنفيذ ذلك جاءه وقد تمثل له وأخذ طيراً فوضع رأسه على حجر ثم شدخه بحجر آخر ..

وتعلم قابيل من هذه الواقعة كيف يقتل أخاه هابيل ..

فأتاه يوماً وهو نائم فرفع صخرة عظيمة ، وضرب بها رأسه فمات ..

« فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض » :

ورأى قابيل دم أخيه يسيل ..

ورآه وقد أصبح جثة هامدة . ويبدو أن هذا قد حرك فى نفسه مشاعر الخوف ، فهو أول ميت على ظهر الأرض .. ولاشك أن منظر الموت يثير الرعب ..

وربما أيقظ قتله أخاه فى نفسه عاطفة الأخوّة ، وتحركت عوامل الرحمة ، كما يحدث للغاضب حين يبطش بمن أغضبه ، ثم تنفثىء[١١٢] حدة غضبه ، فيستيقظ ضميره ويعود إليه رشده ويلوم نفسه على ما فعل ..

إن الغاضب يتقمصه شيطان فيفعل ما لا يكون فى الحسبان .. ولله در من قال :

مَالِى غَضِبْتُ فَضَاعَ أَمْرِى مِنْ يَدِى
وَالأَمْرُ يَخْرُجُ مِنْ يَدِ الْغَضْبَانِ

---

(١١٢) أى : تسكن .. انظر : القاموس المحيط (فثأ) .

وقد روى البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - جاءه رجل فقال : أوصنى ، قال : « لا تغضب » ، فردد مراراً ، قال : « لا تغضب »[113].

وفى ذلك دلالة على خطورة الغضب ووجوب علاجه بالحسنى ، إلا أن يكون غضباً لمحارم الله .

وتحير قابيل ماذا يفعل بهذه الجثة ؟

حملها وسار بها من مكان إلى مكان ، والسباع تطوف من حوله تنتظر أن يلقيها لتأكلها .

ويقال : إنه ظل يحملها حتى أروحت ..

فأرسل الله غرابين اقتتلا ، وقتل أحدهما صاحبه ، فبحث القاتل فى الأرض بمنقاره ، ودفن القتيل وسوى التراب فوقه .

ذكر الدميرى - فى حياة الحيوان عن أبى الهيثم - الحكمة فى أن الله تعالى بعث إلى قابيل الغراب ولم يبعث غيره من الطير أو الوحش : أن القتل كان مستغرباً جداً ؛ إذ لم يكن معهوداً من قبل ، فناسب بعث الغراب .

قال قابيل - وقد تعلم من الغراب حكمة كانت غائبة عنه - :

« يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين » ..

لقد ندم أن فاته كيف يتصرف ، ولم يندم أن قتل أخاه ..

يا لها من قسوة احتلت زوايا نفسه إذن ..

وقد يكون ندمه على قتل أخيه .. وربما كان ذلك لفترة قصيرة ، فإن الأحداث بعد ذلك تدل على أن نفسه كانت مفعمة بالشر .

---

(١١٣) انظر : رياض الصالحين للنووى حديث رقم ٦٣٧ .

وأصبح قابيل من جنود إبليس بعد أن استولى على قلبه ، فقاده إلى ارتكاب أول جريمة بشعة على وجه الأرض ..

وقد باء بإثمها وإثم كل جريمة قتل بعد ذلك إلى أن تطوى صفحة الحياة على الأرض ، فقد جاء في الحديث الصحيح الذى رواه مسلم وغيره :

« لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أول من سَنَّ القتل » ..

ويشاركه إبليس فى هذا الإثم ؛ لأنه زيَّنه ، وما زال به حتى أغواه وأرداه ..

وحكى الدميرى - فى كتابه - أن قابيل أول من يساق إلى النار من ولد آدم .. قال الله - تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾[١١٤].

وهما قابيل وإبليس ..

وذكر حديثاً رواه عن أنس - رضى الله عنه - قال : سُئل النبى ﷺ - عن يوم الثلاثاء ، فقال : « يوم الدم ، فيه حاضت حواء ، وفيه قتل ابن آدم أخاه »[١١٥]..

وساءت نفس قابيل وأخذ القلق والضيق بمجامعه ..

وأخذ الهم يساور نفسه بعد أن أصبح هابيل - فى وداعته وسماحته - يتمثل له في غدوه ورواحه ، فى كل مكان كانا يلتقيان فيه ويكدحان .. إنه لم يعد يطيق البقاء فى مكان ترمقه فيه نظرات الكُرْه والاستنكار ..

ولم يجد بدًّا من أن يهجر هذا المكان الذى شهد جريمته .

---

(١١٤) من الآية ٢٩ من سورة فصلت.

(١١٥) حياة الحيوان الكبرى للدميرى جـ ٢ ص ٣١٢ (ط التحرير).

فهاجر - كما يقول بعض الرواة - إلى « عدن » هارباً ..

وبقيت فى قوس إبليس منازع ..

كيف يتركه يهرب ؟ وربما تاب في هروبه ، وبذلك يكون إبليس قد فشل فى مهمته ..

إن الفريسة قد وقعت ، ولابد من الاستيلاء عليها تماماً ..

فكان أن تبعه إلى « عدن » ، أو بالأحرى ما زال ملازماً له فى رحلته إلى « عدن » .. وإن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم في عروقه ..

وقال له : لقد أكلت النار قربان أخيك ؛ لأنه كان يعبد النار ، فانصب أيضاً أنت ناراً تكون لك ولعقبك ..

فبنى قابيل بَيْتًا للنار . فهو أول مَنْ عبد النار(١١٦) ..

ولاشك فى أن زادت قهقهة الشيطان ارتفاعاً ..

قال العلماء : لقد تغيرت الطبيعة بعد هذا الحادث ..

كان الشجر لاشوك له ، فظهر فيه الشوك ليدافع عن نفسه ضد اعتداء الإنسان ..

وتغيرت الأطعمة ، وحمضت الفاكهة ، وملحت المياه ، واغبرت الأرض ، وهربت السباع إلى الكهوف والغابات ، وفرت الطيور إلى أعالى الجبال ، وكانت تأنس قبل ذلك بالإنسان(١١٧) ..

لقد ارتاع الكون كله لحدوث هذه الجريمة النكراء ، وحزناً على قتل هابيل مثال الوداعة والوفاء ..

---

(١١٦) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٤٥ .

(١١٧) حياة الحيوان الكبرى جـ ٢ ص ٣١٢ .

وليس ذلك غريباً ، فالله يقول فى حق فرعون وآله بعد هلاكهم : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾(١١٨) .

هذه أعراض حادثة لم تكن قبل ذلك ..

ورأى آدم ما أصاب الطبيعة وهو فى « مكة » ، فقال : قد حدث فى الأرض حدث ..

وعاد إلى « الهند » ليجد ابنه قابيل قد قتل أخاه هابيل ..

وقد لا يكون قابيل قد غادر « الهند » بعد ... ؛ إذْ حدَّث بعض الرواة أن آدم قد أقبل على قابيل ، يقول له : أين هابيل ؟

فقال له قابيل : لا أدرى ؛ كأنك وكلتنى بحفظه ..

ما أجفى هذه الإجابة !! .. ولكنها تنم عن مدى ما يعتمل فى نفس قابيل من شر ..

ولقد أوصى الله بحسن معاملة الأبوين وحسن مخاطبتهما ، فقال : ﴿ فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾(١١٩) ..

وفهم آدم ما فعله قابيل .. فقال له : أفعلتها ؟ والله إن دمه ليناديني .. اللهم العن أرضاً شربت دم هابيل ..

وكانت الأرض تشرب الدماء كما تشرب الماء ، فيقال : إنه منذ هذه الدعوة لم تعد الأرض تشرب الدماء ، تبقى على الأرض إلى أن تجف دون أن تشربها ..

وحزن آدم واشتد حزنه .. وهذا أمر طبعى ..

---

(١١٨) الآية ٢٩ من سورة الدخان .

(١١٩) الآيتان ٢٣ – ٢٤ من سورة الإسراء .

وقيل : إنه بقى حتى آخر عمره لا يضحك ، حتى جاءه ملك الموت فقال له : حياك الله وبيّاك .. فقال له : وما بيّاك ؟ قال : أضحك الله سنك .. فضحك ..

ولا صحة للشعر الذى ينسبه بعض الرواة إلى آدم حين زعموا أن آدم أنشد بعد قتل ولده وتغير طبيعة الأرض :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبرٌّ قبيحُ
تغيّر كل ذى طعم ولون وقل بشاشة الوجه المليح

ذلك أن هذا الشعر عربى .. ولم يكن لسان آدم عربياً ..

وهو ظاهر الصنعة ، وفيه إقواء ، والتماس صحة إعرابه فيه تكلف ..

وآدم نبى .. والأنبياء سواء فى عدم قول الشعر ..

وأقرب من هذا أن يقال : إن آدم تحدث بهذه المعانى بلغته فجاء بعد ذلك من ترجمها شعراً ..

نهاية قابيل :

أما نهاية قابيل ؛ فقد مر أن الشيطان قد زيّن له عبادة النار ، وكانت عاقبته الكفر والضلال .

وقيل : إنه استوحش بعد قتل أخيه ، ولزم البرية ، وكان لا يقدر على ما يأكله إلا من الوحش ، فكان إذا ظفر به وَقَذَهُ حتى يموت فيأكله .. ولذلك حرمت الموقوذة .

وقيل : إنه كان على ذروة جبل فنطحه ثور فوقع إلى السفح ، وقد تفرقت عروقه ..

وقيل : إن آدم دعا عليه فانخسفت به الأرض .

وجاء فى الطبقات الكبرى أن آدم قال لقابيل : اذهب فلا تزال مرعوباً أبدًا لا تأمن من تراه ، فكان لا يمر به أحد من ولده إلا رماه .. فأقبل ابن

لقابيل أعمى ومعه ابن له ، فقال الابن لأبيه : هذا أبوك قابيل ، فرمى الأعمى أباه قابيل فقتله .

فقال ابن الأعمى : يا أبت ؛ قتلت أباك ..

فرفع الأعمى يده فلطم ابنه فمات ..

فقال الأعمى : ويل لى .. قتلت أبى برميتى ، وقتلت ابنى بلطمتى ..

عظات وعبر :

روى أبو داود فى سننه عن سعد بن أبى وقاص – رضى الله عنه – أنه قال : يا رسول الله ، إن دخَلَ علىّ إنسان فى الفتنة وبسط يده إلىّ ؟ فقال : كن كخير ابنَىْ آدم : « لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين » .

وهذه عظة قدمتها لنا تلك القصة .. إلى جانب ما نجده فيها من عظات وعبر . ولعل من أروع ما فيها عجز الإنسان وضعفه على الرغم من بطشه وعنفه .

فهذا القاتل الذى استهان بكافة القيم ، وانتهك أسمى الروابط والعلاقات يقف عاجزًا عن الحركة والتفكير أمام جثة أخيه ، حتى يبعث الله له غراباً يعلمه الحكمة ..

ومنها نتعلم أن العنف لن يحل المشكلات .. فإن مشكلة قابيل لم يحلها قتله أخاه ، فهو وإن ظفر بإقليمياء وتزوجها فَقَدْ فَقَدَ الأمن وراحة البال والاطمئنان .. وكان أخوف ما يخاف منه هى تلك الأخت التى استهان بدم أخيه فى سبيلها .

إنه لم تهنأ له حياة ، ولم تتم له سعادة ، وحاق به سوء المصير ..

ومنها نتعلم أن الشيطان لا يستسلم أبدًا فى معركته مع الإنسان ، وهو قد أعد أعتى الأسلحة فى حربه ، وما زال عند وعيده حين قال : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾(١٢٠) .

إننا نراه يوسوس للإنسان فى كل وقت حتى فى أعمال الخير ، وقد يدخل عليه فى الصلاة حتى لا يكاد يعقل منها شيئاً .. وقد يزيّن له الطاعة حتى يغرّه بها فيحبط عمله ..

ومنها نتعلم أنه لا يكاد ينجو من براثن الشيطان إلا من عصمه الله ، فقابيل ابن نبى ، بل هو أول ابن لخليفة الله فى الأرض . ولعل آدم كان يعقد عليه الآمال كما جرت عادة الناس . ومع ذلك لم تحمه هذه المكانة من استهواء الشيطان له ، بل وجد فيه مطية ذلولاً ، وقاده معه إلى الهاوية .

إنه لا نجاة من هذا العدو اللعين إلا بالاعتصام بحبل الله المتين ، والإخلاص فى طاعته ، والتطوع له بأفضل ما يملك . وقد رأينا كيف قدم هابيل أفضل ما عنده ، وقدم قابيل أردأ ما عنده ، وظفر هابيل بمرتبة الشهداء ، وهى أفضل منزلة ، وانزلق قابيل إلى درك الأشقياء وهى أسوأ عاقبة ..

لقد طلب الله منا أن نقدم له الطيب ؛ لأنه طيب ، وحذّر من تقديم الخبيث فى القربات ، وقال فى ذلك :

﴿ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾(١٢١) .

ومنها نتعلم أن الاعتداء على النفس بغير حق أمره عظيم ، وخطره جسيم ، وأن النفس الإنسانية قيمتها أعظم من الكعبة عند الله ، ولا يحل انتهاكها إلا بحق .. وقد جعل الله قتل نفس واحدة بغير نفس يساوى قتل الناس جميعاً .. قال – تعالى – :

---

(١٢٠) من الآية ١٦ من سورة الأعراف .

(١٢١) من الآية ٢٦٧ من سورة البقرة .

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾(١٢٢) ..

ومنها نتعلم أن التنافس بين الناس يجب أن يكون فيما يعود بالخير والمثوبة وحسن الأحدوثة وطيب الجزاء .. لا فيما عدا ذلك من تفاهات الحياة وادياتها .. وقد بيَّنَ القرآن الكريم حق المنافسة المحمودة بعد أن عرض لجزاء أصحاب الأعمال الصالحة ، وذلك فى قوله – تعالى – :

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ . تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ . يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ . خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾(١٢٣) ..

إلى غير ذلك من العبر والعظات(١٢٤) ..



* * *

(١٢٢) من الآية ٣٢ من سورة المائدة.

(١٢٣) الآيات ٢٢ – ٢٦ من سورة المطففين.

(١٢٤) من الجدير بالذكر أنه قد شاع فى هذه الأيام ما اسموه من محاكمة أول قاتل فى التاريخ الإنسانى ، يعنون بذلك : قابيل ، حيث اجتمع بعض القضاة فى مدينة « البندقية » ب « إيطاليا » وحكموا ببراءته بفارق صوت واحد .. فقد أيد خمسة منهم براءته ، وادانه أربعة .. وبذلك يتحلل قابيل من ذنبه العظيم .. ويغسل يديه الملوثتين بدم أخيه هابيل .. ومن العجيب أنهم أطلقوا على تلك المحاكمة بأنها : « محاكمة القرن العشرين » ..

نقول : مَنْ هُمْ حتى يصدروا حكمهم فى قضية حسمها الله – سبحانه وتعالى – فى كتابه العزيز ؛ كما بينا ؟!

إن قابيل مذنب بحق الله ، ومذنب فى حق البشر .. فماذا يفيد فتح ملف قضية قديمة هى من عمر البشرية ؟ وكيف يعيدون محاكمته وقد قرر الحق – سبحانه – أنه مذنب وقاتل ؟! « فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين » ..

ألا يكفى هذا الحكم الإلهى فى تلك القضية ؟!! ..

انظر : تحقيقات الأهرام الصادرة بتاريخ ٢٨ / ١ / ١٩٨٩ م.

حكم المحكمة باطل ... باطل

من الجدير بالذكر أنه قد شاع فى هذه الأيام ما أسموه من محاكمة أول قاتل فى التاريخ الانسانى (قابيل) حيث اجتمع بعض القضاه فى مدينة البندقية بإيطاليا ، وحكموا ببراءته بفارق صوت واحد ، حيث قرر خمسة منهم أنه برىء ، وأدانه أربعة ، وبذلك يتحلل (قابيل) من ذنبه العظيم ، ويغسل يديه الملوثتين بدم أخيه (هابيل) .. وأطلقوا على ذلك : « محاكمة القرن العشرين » .

نقول : من هم حتى يصدروا حكمهم فى قضية حسمها المولى – عز وجل – فى كتابه العزيز كما بينا .. إن (قابيل) مذنب بحق الله ، ومذنب فى حق البشر .. فماذا يفيد فتح ملف قضية قديمة هى من عمر البشرية ، وكيف يعيدون محاكمته .. وقد قرر الله تعالى أنه مذنب وقاتل .. « فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين » .

ألا يكفى هذا الحكم الإلهى فى تلك القضية ؟ !! (*)

(*) انظر تحقيقات الأهرام بتاريخ ٢٨ / ١ / ١٩٨٩م

وفاة آدم (عليه السلام)

روى ابن سعد - فى الطبقات الكبرى - حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ -:

« لما خلق الله آدم مسح على ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، ثم جعل بين عينَىْ كل إنسان منهم وميضاً من نور ، ثم عرضهم على آدم ؛ فقال : أىْ رب ؛ مَنْ هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك ، فرأى رجلاً منهم أعجبه نور ما بين عينيه .. فقال : أىْ رب ؛ من هذا ؟ قال : هذا رجل من ذريتك فى آخر الأمم يقال له : داود . قال : أىْ رب ؛ كم عمره ؟ قال : ستون سنة . قال : فزده من عمرى أربعين سنة . قال : إذن تكتب وتختم ولا تبدل .

قال : فلما انقضى عمر آدم ، جاءه ملك الموت .. قال : أو لم يبق من عمرى أربعون سنة ؟ ! قال : أو لم تعطها ابنك داود ؟ ! » ..

قال رسول الله - ﷺ -: « فجحد فجحدت ذريته ، ونسى آدم فنسيت ذريته ، وخطىء آدم فخطئت ذريته »(١٢٥) .

قال ابن سعد : وأكمل الله عمر آدم ألف سنة ، وأكمل داود مائة سنة .

وكان آدم قد خلق يوم الجمعة ، وكانت وفاته أيضاً يوم الجمعة .

وهو يوم عيد المسلمين ..

وجاء فى كتاب ابن كثير : إنه حين حضرته الوفاة قال لبنيه : اطلبوا لى من ثمرة الجنة فإنى قد اشتهيتها . فذهب بنوه يطلبون له ثمر الجنة ، فإذا هم بملائكة الله . قالوا لهم : يا بنى آدم ؛ ما تطلبون ؟ قالوا : إن أبانا اشتاق إلى ثمرة الجنة ، فنحن نطلبها . قالوا : ارجعوا فقد قضى الأمر ، فرجعوا فإذا أبوهم قد قبض ..

---

(١٢٥) وانظر - أيضاً -: الجامع الصغير جـ ٢ ص ٥ ، تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٦٣ .

فأخذت الملائكة آدم ، فغسلوه وحنطوه وكفنوه ، وحفروا له قبراً ، وجعلوا له لحداً .. ثم إن ملكاً من الملائكة تقدم فصلى عليه وخلفه الملائكة ، وبنو آدم خلفهم ، ثم وضعوه في حفرته ، وسووا عليه .. فقالوا : يا بنى آدم هذه سبيلكم ، وهذه سنتكم .

وقيل - كما جاء في الطبقات - : لما مات آدم قال شيث لجبريل : صلّ على آدم . فقال جبريل : تقدم أنت فصلّ على أبيك .. وكبّر عليه ..

وكانت حواء قد حملت بشيث وحده في بطن .

وحين ولدته جاءها جبريل فقال لها : هذه هبة الله ، ومعناها بالعبرانية : شيث . هو لك بدل هابيل ..

وأوصى آدم - صلوات الله عليه - إليه ..

وقيل : لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً .

وماتت حواء بعده بسنة واحدة .

ودُفن آدم في المكان الذى هبط فيه بـ « الهند » . وقيل : دفن في « مكة » في جبل أبي قبيس . وقال الثعلبي : روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه مات بـ « الهند » ، وحمله نوح - عليه السلام - في تابوت ووضعه في السفينة أيام الطوفان ، ودفنه بـ « بيت المقدس » ..

وبعد ..

فلقد خص الله آدم - عليه السلام - بصفات ..

ويكفى في ذلك أنه - سبحانه وتعالى - خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وصوره في أحسن صورة .. وقال في ذلك : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[126] ..

---

(١٢٦) الآية ٤ من سورة التين .

وألهمه الله الحمد حين عطس ، فقال : الحمد لله رب العالمين ، وقال له : يرحمك الله يا آدم .. فكانت رحمة الله سابقة إليه .

وعلّمه الأسماء كلها .. وأباح له الجنة ونعيمها فى الدنيا قبل الآخرة قبل أن يؤمر بالهبوط منها ..

وجعله خليفة فى الأرض هو وذريته إلى أن تقوم الساعة ..

وأمر الملائكة بالسجود له ..

وعرف الملائكة فضله عليهم حين أنبأهم بأسمائهم ..

ولُعِنَ إبليس وطُرِدَ من رحمة الله بسببه ..

إن قصة آدم تذكر الإنسان بأصله الطيب وعنصره الكريم وفضله الذى أشار إليه المولى – سبحانه – بقوله :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾(١٢٧) .

ومقتضى ذلك أن يحفظ الإنسان هذه النعمة ، ويقدرها حق قدرها ..

وأن يشكر الله الذى وضعه فى هذه المنزلة .. فيعبده ولا يشرك به شيئاً ..

وأن يتبع أوامره وينتهى عن نواهيه ، ويذكره آناء الليل وأطراف النهار ؛ مصداقاً لقوله – تعالى – :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا . تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾(١٢٨).

---

(١٢٧) الآية ٧٠ من سورة الإسراء .

(١٢٨) الآيات ٤١ – ٤٤ من سورة الأحزاب .

وأن يحذر الشيطان الذى حذرنا الله منه ؛ حيث يقول :

﴿ يَا بَنِى آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[١٢٩] ..



★ ★ ★

(١٢٩) الآية ٢٧ من سورة الأعراف .



قصة إدريس عليه السلام

«وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا»

- نسبه ..
- وراثته النبوة ..
- النبي المصري ..
- معنى «وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا»



تمهيد :

قال الله – تعالى – :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[1]..

اقتضت حكمة الله – تعالى – أن يبعث فى كل أمة رسولاً ينذرها ويُحَذِّرها عاقبة أمرها ، وبذلك يلزمها الحجة ، فلا تتذرع بالاستنكار إن استحقت الوعيد .. قال – تعالى – : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[2]، وقال – تعالى – ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[3].

وكان أول نبى هو : آدم – عليه السلام – ، وآخر نبى هو رسول الله سيدنا محمد بن عبد الله – ﷺ – ، قال – تعالى – : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾[4].. وكان بينهما أنبياء كثيرون لا يعلمهم إلا الله ..

وأورث آدم علمه وحكمته ابنه « شيثا » الذى أورث ابنه من بعده الحكمة ..

وظلت هذه الحكمة تتوارث حتى ورثها النبى محمد – ﷺ – وقال العلماء فى معنى قوله – سبحانه – : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾[5] :

---

(١) من الآية ٢٤ من سورة فاطر .
(٢) من الآية ١٥ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ١٦٥ من سورة النساء .
(٤) من الآية ٤٠ من سورة الأحزاب .
(٥) الآية ٢١٩ من سورة الشعراء .

إن الله – سبحانه وتعالى – رأى تقلب نبيه – ﷺ – في أصلاب الآباء الصالحين من لدن آدم – عليه السلام – حتى أبيه عبد الله[6].

إذن ، فقد كانت هناك سلسلة من الأنبياء أولها آدم ، وبعده « شيث » ، وبعده ابنه « أنوس » ، وبعده ابنه « قينان » ، وبعده ابنه « إدريس » ، وإن لم يكن هؤلاء – قبل إدريس – أنبياء فأوصياء[7]..

والله – جلت حكمته – لم يذكر جملة الأنبياء والمرسلين ، فقال العلماء : إن عددهم لا يعلمه إلا الله .. وقد اكتفى القرآن الكريم بالإشارة إلى ذلك بقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ .. ﴾[8]..

ولكنه ورد فى أخبار النبى – ﷺ – ما يشير إلى عدد الأنبياء والرسل .. ومن ذلك ما ذكره ابن كثير فى تفسيره من حديث أبى ذر المشهور .. وها نحن أولاء نسوق بعضه للعظة والاعتبار ، ولما فيه من المعانى التى يجدر بكل مسلم أن يعيها ..

قال ابن كثير : عن أبى ذر – رضى الله عنه – قال : دخلت المسجد فإذا رسول الله – ﷺ – جالس وحده ، فجلست إليه ، فقلت : يا رسول الله ؛ إنك أمرتنى بالصلاة ، قال : « الصلاة خير موضوع فاستكثر أو استقل » .

قلت : يا رسول الله ؛ فأى الأعمال أفضل ؟ قال : « إيمان بالله وجهاد فى سبيله » .

قلت : يا رسول الله ؛ فأى المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم خلقاً » .

---

(٦) انظر : تفسير القرطبى .
(٧) انظر : تاريخ الطبرى جـ ١ ص ١٦٢ .
(٨) من الآية ٧٨ من سورة غافر .

قلت : يا رسول الله ؛ فأى المسلمين أفضل ؟ قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » ..

قلت : يا رسول الله ؛ فأى الهجرة أفضل ؟ قال : « مَنْ هجر السيئات » ..

قلت : يا رسول الله ؛ فأى الصلاة أفضل ؟ قال : « طول القنوت » ..

إلى أن قال : قلت : يا رسول الله ؛ كم الأنبياء ؟ قال : « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً » ..

قلت : يا رسول الله ؛ كم الرسل ؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر ، جم غفير كثير طيب » .

قلت : فمن كان أولهم ؟ قال : « آدم » .

قلتُ : أنبى مرسل ؟ قال : « نعم ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وسواه قبيلاً » .

ثم قال : « يا أبا ذر ، أربعة سريانيون : آدم وشيث وخنوخ - وهو : إدريس - وهو أول من خط بقلم ، ونوح . وأربعة من العرب : هود ، وشعيب ، وصالح ، ونبيك يا أبا ذر .. »[٩] ..

« شيث »

أما « شيث » ؛ فقد ذكر ابن إياس - فى كتابه : قصص الأنبياء - أن أباه آدم قد أوصى إليه ، وأقام يقضي بين الناس بالحق .. وقال : أنزل الله عليه خمسين صحيفة . وهو أول من نطق بالحكمة ، وأول من أخرج المعاملة بالذهب والفضة ، وأول من أظهر البيع والشراء ، واتخذ الموازين والكيل ، وهو أول من استخرج المعادن من الأرض .

وذكر العلماء أن « شيثا » كان وصى أبيه آدم - عليه السلام - فى مخلّفيه وما أنزل الله عليه من الصحف ، وجمع إلى الصحف التى أنزلت

---

(٩) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٢٤ (ط الشعب) .

عليه صحف أبيه آدم وعمل بما فيها .. ويقال : إنه بنى الكعبة بالحجارة والطين ، ولم يزل معتمراً بمكة يحج ويعتمر للبناء إلى أن مات[١٠]..

وقد مر فى قصة آدم – عليه السلام – أنه بنى الكعبة ، وربما كان بناء « شيث » لها إعادة للبناء أو تقوية لها .

وقيل : إن « شيثا » حين مات آدم كان عمره أربعمائة سنة . وعاش بعد ذلك خمسة قرون[١١].

ولادة « شيث » :

حين قتل قابيلُ هابيلَ حزنَ آدم وحواء لذلك حزنًا شديدًا ، فعوضهما الله عن هابيل بـ « شيث » .

ويقال : إن حواء حين حملت به أشرق جبينها ، وتلألأ النور فى مخايلها ، حتى إذا انتهى حملها وضعت نسمة كأسرّ ما يكون من الذكران ، وأتمهم وقاراً ، وأحسنهم صورة ، وأكملهم هيئة ، وأعدلهم خلقاً ، مجللاً بالنور والهيبة ، موشحاً بالجلالة ، وانتقل النور من حواء إليه ، حتى لمع فى أسارير جبهته ، وبسق فى غرة طلعته ، فسماه آدمُ : « شيثا » . ومعناه : هبة الله[١٢].

وقيل : إن مولد شيث كان لمُضِىّ مائتى سنة وخمس وثلاثين سنة من عمر آدم . ومات وقد أتت عليه تسعمائة سنة واثنتا عشرة سنة[١٣].

حتى إذا ترعرع وأيفع واستبصر أو عز إليه آدم بوصيته ، وأعلمه أنه حجة الله على خلقه وخليفته فى أرضه ، والمؤدى حق الله فى أوصيائه[١٤].

---

(١٠) تاريخ الرسل والملوك للطبرى جـ ١ ص ١٦٢ .
(١١) تاريخ ابن إياس ص ٥٠ .
(١٢) مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص ٢٨ .
(١٣) تاريخ الطبرى جـ ١ ص ١٦٣ .
(١٤) مروج الذهب للمسعودى .

قالوا : ومات آدم – عليه السلام – وأولاده وأحفاده أربعون ألفاً هم قوم شيث الذين خلفه أبوه فيهم .

ولاشك أنهم ظلوا يتناسلون ويكثرون حتى بلغوا عدداً يستعصى حصره ..

وإلى جانب ما عهده إليه من تعليمه مما علمه الله ؛ فقد علمه ساعات الليل والنهار ، وعلمه عبادات تلك الساعات ، وأعلمه بوقوع الطوفان .

ويقال : إن أنساب بنى آدم اليوم كلها تنتهى إلى « شيث » ، فإن أولاد آدم غيره انقرضوا وبادوا .

والحديث الذى رواه أبو ذر – رضى الله عنه –[١٥] يوضح لنا أن « شيثا » كان نبياً .

خلفاء « شيث » :

وجاء بعد « شيث » ابنه : « أنوس »[١٦]، فقام بالأمر ، ثم من بعده ابنه : « قينان »[١٧]، ثم ابنه : « مهلائيل » ، وهو أول من قطع الأشجار وبنى المدائن والحصون الكبار .. وأول من بنى مدينة « بابل » ومدينة « السوس الأقصى » .

وخلفه من بعده ابنه : « يَرْد »[١٨]، ثم من بعده : « إدريس » .

أحداث يذكرها المؤرخون لهذا العصر :

ولأن هذا التاريخ معرق فى القدم ؛ فأغلب ما روى عنه مُستقى من الكتابيين ، وقد ذكروا أحداثاً مازالت فى حاجة إلى التوثيق .. ولكننا نذكر

---

(١٥) وقد سبق ان نكرنا طرفاً منه .

(١٦) « انوس » – كـ (صبور) – ، ويقال : إنوس – بالكسر – ومعناها : إنسان .. تاج العروس .

(١٧) بفتح القاف وسكون الياء ومد النون . ويقال له : قينين .. انظر : تاريخ الطبرى .

(١٨) وقيل : يَزْد ، بالزاى المعجمة . وهو : اليارد ، وإليه الوصية .. انظر : الطبرى .

بعضها مما لا ينكر العقل حدوثه ، ويتفق مع المنطق إذا قسناه بما يجرى فى الحياة من تصرفات ..

فهم يقولون : إن أولاد قابيل كانوا جبابرة ، وأُعطوا بسطة فى الخَلْق ، وانقرضوا ولم يتركوا عقباً إلا قليلاً . وهم الذين اتخذوا الملاهى ، وأول من اتخذها رجل يقال له : « توبال » فى زمن « مهلائيل » .. اتخذ المزامير والطبول والعيدان والطنابير والمعازف ، وانهمكوا جميعاً فى اللهو .

وتناهى خبرهم إلى أولاد « شيث » ، فهَمَّ مائة رجل منهم – وكانوا يقيمون أعلى الجبل – بالنزول إليهم ومخالفة وصايا آبائهم .

بلغ ذلك « يارد » فوعظهم ونهاهم ، فأبوا . إلا تمادياً ، ونزلوا إلى ولد قابيل ، فأعجبوا بما رأوا ، فلما أرادوا الرجوع حيل بينهم وبين ذلك ؛ لدعوة سبقت من آبائهم[١٩] .

ثم تبعهم مَنْ كان فى نفسه زَيْغ .. وفشت فيهم الفاحشة والخمر ، وكان ذلك سبب هلاكهم فيما بعد ..

ويقولون : إن « مهلائيل » ملك أربعين سنة . وهو الذى استنبط الحديد فى ملكه ، واتخذ منه الأدوات للصناعات ، وقدر المياه فى مواضع المنافع ، وحضَّ الناس على الحرث والزرع والحصاد ومختلف الأعمال ، وأمر بقتل السباع الضارية واتخاذ الملابس من جلودها والمفارش ، وبذبح البقر والغنم والوحش والأكل من لحومها ..

وهو الذى بنى مدينة « الرى » .. فهى من أوائل المدن التى بُنيت[٢٠] ..

وإن صح ذلك فهى نشأة مبكرة للحضارة .

ويقولون : إن « يارد » كان وصىَّ أبيه « مهلائيل » ، وأُعطِى النبوة ، وخط بالقلم ، وعاش بعدما ولد له « إدريس » ثمانمائة سنة ..

---

(١٩) تاريخ الطبرى جـ ١ ص ١٦٧ .

(٢٠) المرجع السابق .

إدريس (عليه السلام)

ورد ذكر « إدريس » – عليه السلام – في القرآن الكريم مرتين :

أولاهما في سورة مريم ؛ حيث يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا . وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾[٢١].

والثانية في سورة الأنبياء ؛ حيث يقول الله – عز وجل – : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ . وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾[٢٢].

وقد عرفنا سلسلة نسبه فيما مر ، فهو الحفيد الخامس لآدم – عليه السلام – .

وإذا أدركنا أن الناس كانوا في الزمن الخالي معمَّرين تبين لنا أنه قد يكون بين آدم وهذا الحفيد عشرات القرون .

ولعل السر في طول أعمار الأمم الماضية قلة الناس مع اتساع المعمورة وكثرة الخيرات . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فإن الله قد أطال أعمار الناس ليكثر النسل وتعمر الأرض .

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – فيما يذكر ابن إياس في كتابه :

بعث الله إدريس إلى بني قابيل ، وكانوا يعبدون الأصنام ، وحادوا عن توحيد الله – تعالى – واتخذوا لهم خمسة أصنام يعبدونها من دون الله ؛ وهي : « ود » و « سواع » و « يغوث » و « يعوق » و « نسر » التي ذكرها الله في القرآن العظيم[٢٣]، فلما تزايد أمرهم بعث الله إليهم إدريس – عليه السلام – فكان يدعوهم في الجمعة ثلاثة أيام[٢٤].

---

(٢١) الآيتان ٥٦ – ٥٧ من سورة مريم.

(٢٢) الآيتان ٨٥ – ٨٦ من سورة الأنبياء .

(٢٣) وذلك في سورة نوح – الآية ٢٣.

(٢٤) تاريخ الطبري.

والمعروف أن هذه الأسماء لمعبودات قوم نوح ، فإن صح هذا الخبر فإن قوم نوح قد أحيوا سنة أبناء قابيل فى اختيار هذه الأسماء التى ما أنزل الله بها من سلطان . ولا يبعد أن يكون إبليس هو الذى وسوس لهم بها ؛ ليحيوا بها ما درس بعد هلاك أبناء قابيل .

خصائص « إدريس » :

ذكر العلماء من خصائص « إدريس » - عليه السلام - الكثير .

فإلى جانب كونه عابدًا كثير العبادة لا يفتر عن ذكر الله - حتى إنه - كما يقولون - كان خياطاً ، إذا غفل عن الذكر فى أثناء عمله فتق ما خاطه وأعاده مع الذكر من جديد - كان أول من خط بالقلم ، وكتب الصحف ، وأول مَن نظر فى علم النجوم والحساب ، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط ، وكان الناس يلبسون الأردية بغير خياطة ، فاستحسنوا ما صنعه « إدريس » فصنعوا مثله[٢٥].

وهو أول من صنع المكيال ، وأول مَنْ برع فى الطب .

وهو أول من امتطى الفرس للجهاد فى سبيل الله .

وهو أول من نزل عليه جبريل بالوحى[٢٦].

نزلت عليه ثلاثون صحيفة كان لا يفتر عن قراءتها ليلاً أو نهاراً .

وأول من اتخذ السَّبى .. سبَى من ولد قابيل فاسترقَّ منهم .

وكان وصَّى والده « يارد » فيما كان آباؤه وصَّوْا به ، وفيما أوصى به بعضهم بعضاً .

---

(٢٥) تاريخ ابن إياس ص ٥١ .

(٢٦) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٢ مادة (إدريس) .

ودعا « إدريس » قومه ووعظهم وأمرهم بطاعة الله ومعصية الشيطان ، وألا يلابسوا ولد قابيل ، فلم يقبلوا منه[٢٧]..

وقال الطبرى – فيما يحكيه عن « إدريس » – : إن الله بعثه إلى جميع أهل الأرض فى زمانه ، وجمع له الصحف الماضية ، وزاده على ذلك ثلاثين صحيفة ، فذلك قول الله – تعالى – : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾[٢٨].

يقول : يعني بالصحف الأولى : الصحف التى نزلت على ابن آدم : هبة الله ، وإدريس – عليهما السلام – .

ولم يكن الفساد فى عهد « إدريس » مقصوراً على عبادة الأصنام والإقبال على اللهو والمعاصى ، ولكنه زاد عليه فساد من نوع آخر . ذلك – فيما يزعمون – أن ملكاً اسمه « بيوراسب » كان قد وقع له كلام من كلام آدم فاتخذه سحراً ، وكان يعمل به ، وكان إذا أراد شيئاً من جميع مملكته أو أعجبته دابة أو امرأة نفخ فى قصبة كانت له من ذهب ، فكان يتحقق له ما يريد[٢٩].

اسم « إدريس » :

واسم « إدريس » الحقيقى : « أخنوخ » ، كما ورد فى الحديث المروى عن أبى ذر .

وتعليل اسمه « إدريس » – كما يقولون – : من كثرة دراسته العلم ، ولكن علماء العربية ينكرون هذا الاشتقاق .

ويطلق عليه فى اليونانية : « هرمز » . وقد تبدل الزاى سينا ، فيقولون : هرمس ، أو هرمس الهرامسة .

---

(٢٧) تاريخ الطبرى جـ ١ ص ١٦٨ .
(٢٨) الآيتان ١٨ – ١٩ من سورة الأعلى .
(٢٩) تاريخ الطبرى جـ ١ ص ١٧٠ .

« إدريس » فى « مصر » :

يذكر السيوطي – فى كتابه : حسن المحاضرة – أن « إدريس » أحد الأنبياء الذين كانوا فى « مصر » ، واسمه « هرمس » .

كما يذكر أن « إدريس » ورث النبوة عن سلسلة آبائه الذين كانوا فى « مصر » . ذلك أن « شيثا » جاء إلى « مصر » ، وكانت تدعى « باب لون » ، فنزلها هو وأولاد أخيه قابيل .

فسكن « شيث » فوق الجبل ، وسكن أولاد قابيل فى أسفل الوادى .

قال : وكان الملك فى عهد « إدريس » هو : « محويل بن أخنوخ بن قابيل » . وتنبأ « إدريس » فى عهده . ومكث نبياً أربعين سنة .

وأراد هذا الملكُ « إدريسَ » بسوء ، فعصمه الله ، وأنزل عليه ثلاثين صحيفة ، ودفع إليه أبوه ما كان عنده من صحائف ووصايا وعلوم .

وولد « إدريس » بـ « مصر » . وكان رحالة فطاف الأرض كلها .

وكانت ملته توحيد الله – تعالى – والطهارة والصلاة والصيام وغير ذلك .. وأطاعه فى رحلته إلى المشرق جميع الملوك ، وابتنى مائة وأربعين مدينة أصغرها : « الرها » .

ثم عاد إلى « مصر » فأطاعه ملكها وآمن به .

فنظر فى تدبير أمر « مصر » . ومن ذلك أن النيل كان يأتى سيحاً فينحاز الناس إلى أعالى الجبال والأراضى العالية حتى ينقص النيل ، فينزلون ويزرعون حيثما وجدوا الأرض ندية .

وصعد « إدريس » إلى أول مسيل النيل ودبر وزن الأرض ووزن الماء على الأرض ، وأمرهم بإصلاح ما أراد من خفض المرتفع ورفع المنخفض وغير ذلك مما رآه فى علم النجوم والهندسة والهيئة . وكان أول من تكلم فى هذه العلوم ، وأخرجها من النظر إلى الفعل ، ووضع فيها الكتب .. ثم سار إلى بلاد « الحبشة » و « النوبة » وغيرهما .. وجمع أهلها ، وزاد فى

مسافة النيل ونقص بحسب بطئه وسرعته فى طريقه ، حتى عمل حساب جريه ووصوله إلى أرض « مصر » فى زمن الزراعة على ما هو عليه الآن .

فهو أول من دبّر جرى النيل إلى أرض « مصر » .

ومات « إدريس » بـ « مصر » .

والصابئة تزعم أن الهرمين أحدهما قبر « شيث » ، والآخر قبر « إدريس » . قال السيوطى : والأصح أنه ليس كذلك .. وهو ليس كذلك فعلاً ، فالكشوف التاريخية الحديثة صححت هذه الوقائع .

ويطلقون على « إدريس » : « هرمس المثلث » ؛ أى : الذى جمع بين ثلاث خصائص. وهى: الملك، والحكمة، والنبوة[٣٠]. ومن حكمته أنه استطاع أن يحول الرصاص ذهباً .

ويقولون : إن الهرامسة ثلاثة : هرمس المثلث ؛ وهو : إدريس . وهرمس الثانى ؛ وهو من أهل « بابل » ، وهرمس الثالث ، سكن بـ « مصر » وكان بعد الطوفان[٣١].

وأفاض صاحب هذا القول فى وصف « إدريس » .

وعلى افتراض صحة ما ذكر عن « إدريس » من أنه كان بـ « مصر » ، فإنه كان فى عصر ما قبل الأسرات ..

القرآن لم يشر إلى هذه الأخبار :

وهذه الأخبار الواردة عن « إدريس » – عليه السلام – لم يشر القرآن الكريم إلى شيء منها ، وإنما هى اجتهادات من المؤرخين .. وقد يكون بعضهم رجع فيها إلى ما جاء فى أخبار أهل الكتاب الأول ..

---

(٣٠) ذكر ذلك الكندى ، ونقله عنه السيوطى فى كتابه : حسن المحاضرة .

(٣١) المسالك والممالك لابن فضل الله العمرى .

والمسلم لا يهمه أن يعرف من أمر إدريس – عليه السلام – أكثر من أنه كان صدِّيقاً نبياً ، وأن الله رفعه مكاناً علياً ، وأنه كان من الصابرين الصادقين .

فأما ما رواه المفسرون من أنه كان سبط « شيث » وجد أبي « نوح » وما ذكره المستشرقون من أن « إدريس » كان هو : « أندرياس » الذى كان طاهياً للإسكندر ، أو هو : « أندرياس » المذكور فى التوراة ، وأنه عمر أكثر من ثلثمائة سنة ؛ فكل ذلك لا يلزم القرآن الكريم منه شيء .. وإذا قاله مفسر فإنما يقوله باسم التاريخ ، لا باسم القرآن ولا باسم الدين . وقد فسر البيضاوى – رحمه الله – قوله – تعالى – : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾[٣٢] بقوله : يعنى بذلك شرف النبوة والزلفى عند الله ، وقيل : الجنة . وقيل : السماء السادسة أو الرابعة . وهذا التفسير هو الذى يتبادر إلى الذهن لأول وهلة[٣٣].

هذا ، وفى تفسيره للقرآن الكريم أورد القرطبي ما ذكره المفسرون والمؤرخون من بيان سبب رفع « إدريس » – عليه السلام – .

قال عند تفسير قوله – تعالى – : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا . وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾[٣٤].

كان سبب رفعه – على ما قال ابن عباس وغيرهما – أنه سار يوماً فى حاجة ، فأصابه وهج الشمس ، فقال : يارب ؛ أنا مشيت يوماً ، فكيف بمن حملها خمسمائة عام فى يوم واحد ! اللهم خفّف عنه من ثقلها – يعنى : الملَك الموكل بفلك الشمس .

فلما أصبح الملَك وجد من خفة الشمس والظل ما لم يعرف ، فقال : يارب ؛ خلقتنى لحمل الشمس ؛ فما الذى قضيت فيه ؟

---

(٣٢) الآية ٥٧ من سورة مريم .

(٣٣) محمد فريد وجدى : تعليق على مادة (إدريس) فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٣٤) الآيتان ٥٦ – ٥٧ من سورة مريم .

فقال الله – تعالى – : أما إن عبدى إدريس سألنى أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته . فقال : يارب اجمع بينى وبينه ، واجعل بينى وبينه خلة .

فأذن الله له فى ذلك حتى أتى إدريس .

وكان إدريس – عليه السلام – يسأله ، فقال : أخبرت أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت ، فاشفع لى إليه ليؤخر أجَلى ، فأزداد شكراً وعبادة .

فقال الملَك : لا يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ..

فقال إدريس : قد علمت ذلك ، ولكنه أطيب لنفسى .

قال : نعم . ثم حمله على جناحه فرفعه إلى السماء ... الخ .

وذكر القرطبى رواية أخرى عن السدى ، كما نقل قصة عن وهب بن منبه مفادها أن « إدريس » – عليه السلام – طلب من ملك الموت حينما التقى به أن يقبض روحه ، فقبضها وردها إليه بعد ساعة ؛ كما طلب منه أن يرفعه إلى السماء لينظر إلى الجنة والنار ، فرأى النار فصعق ، فلما أفاق دخل الجنة وأبى أن يخرج منها ... الخ .

وواضح أن مثل هذه القصص والروايات من الإسرائيليات ؛ كما ذكر ابن كثير فى تفسيره .

والأشبه بحال الأنبياء أن يقال : إن المكان العلى هو شرف النبوة والقربى عند الله ، وكفى بذلك رفعة وعلواً ..

ومما يتعلق بـ « إدريس » ما ورد فى قصة الإسراء والمعراج ، وذكره المفسرون فى كتبهم . ومن ذلك : ما رواه أبو سعيد عبد الملك بن محمد النيسابورى عن أبى سعيد الخدرى ؛ قال : لما مر النبى – ﷺ – بإدريس فى السماء الرابعة ، قال – أى : إدريس – : مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح الذى وعدنا أن نراه فلم نره إلا الليلة[٣٥].

---

(٣٥) تفسير القرطبى . سورة مريم .

وروى بعضهم : السماء السادسة ، بدل الرابعة .

وربما يُفْهم من قول إدريس « مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح » : أن « إدريس » ليس فى سلسلة نسب النبى - ﷺ - . فهل معنى ذلك أنه لم يعقب ؟ أو هل لم يتزوج ؟ !

أما بالنسبة لزواجه ؛ فقد روى ابن حميد قال : حدثنا سلمة عن ابن اسحاق قال : نكح أخنوخ (إدريس) بن يرد هدَّانة - ويقال : إدّانة - ابنة با ويل بن محويل بن خنوخ بن قاين بن آدم ، وهو ابن خمس وعشرين سنة ، فولدت له متوشلخ بن أخنوخ .

وقد استخلف « إدريس » ابنه « متوشلخ » وأوصاه بأهل بيته قبل أن يرفع ، وأعلمهم أن الله سيعذب ولد قاين - وهو : قابيل - ومن خالطهم ومال إليهم . ونهاهم عن مخالطتهم[٣٦].

ولعل « إدريس » - عليه السلام - لم يذكر البنوّة - كما كان يذكرها الأنبياء الآخرون حين يحيون النبى - ﷺ - بقولهم : مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح - لاعتداده بمقام الأخوة واحتفاله بها أيما احتفال ، وقد رأينا مظهر ذلك فى مصاحبته للملائكة ..

والمحفوظ فى سلسلة نسب النبى - ﷺ - يقيناً وصولها إلى « عدنان » ، وقد تصل إلى « إسماعيل » - عليه السلام - . أما وصولها فوق ذلك ؛ ففيه اختلافات ليست من الدين فى شىء .

وما زلنا مع الرأى الذى يقول : إن المكان العلى لإدريس هو القرب من الله . وقد يكون دخوله الجنة استئناساً بقول النابغة الجعدى :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا

وإنا لنبغى فوق ذلك مظهرا

---

(٣٦) تاريخ الطبرى جـ ١ ص ١٧٠ وما بعدها .

فقال النبي – ﷺ – للنابغة : « إلى أين يا أبا ليلى ؟ » ، قال : إلى الجنة إن شاء الله – تعالى – . فقال له الرسول – ﷺ – : « لا يفضض الله فاك » .. فقيل : إنه عُمِّرَ مائة سنة أو أكثر لم يسقط له شيء من أسنانه(٣٧).

هاروت وماروت :

قال – تعالى – :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾(٣٨)..

أشار بعض المفسرين لهذه الآية إلى الفساد الذى انتشر بسبب أولاد قابيل ، وما ابتكروه من آلات اللهو والطرب حتى أغروا بذلك أولاد « شيث » ، فنزلوا إليهم واختلطوا بهم وأكثروا من الفساد .

وكان « يارد » – والد « إدريس » – قد وعظهم وحذرهم ، ولكنهم لم يزدادوا إلا تمادياً وسفها ، حتى ضجت الملائكة فى السماء من أفعال بنى آدم فى الأرض .

قالت الملائكة : يارب ؛ هذا العالم الذى إنما خلقتهم لعبادتك وطاعتك ، وقد وقعوا فيما وقعوا فيه ، وركبوا الكفر ، وقتلوا النفس ، وأكلوا المال الحرام ، واقترفوا الزنا والسرقة ، وشربوا الخمر ... فجعلوا يدعون عليهم ولا يعذرونهم ..

يقولون : فقال الله – تعالى – لهم : اختاروا منكم من أفضلكم ملكين آمرهما وأنهاهما ، ثم أنظر نتيجة عملهما ..

---

(٣٧) انظر : مهذب الأغانى جـ ٢ ص ٧٤ .

(٣٨) من الآية ١٠٢ من سورة البقرة .

فاختاروا « هاروت » و « ماروت » ، وكانا من أعبد الملائكة ، فجعل لهما شهوات بني آدم ، وأمرهما أن يعبداه ولا يشركا به شيئا ، ونهاهما عن قتل النفس الحرام وأكل المال الحرام وعن السرقة والزنا وشرب الخمر ..

فنزلا إلى الأرض ، ومكثا فيها زمانًا يحكمان بين الناس بالحق ، وكان ذلك في زمن « إدريس » - عليه السلام - .

وكان في ذلك الزمان امرأة حسناء ، حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب .

وجاء الملكان لهذ المرأة تخضعا لها في القول ، وأراداها على نفسها ، فأبت إلا أن يكونا على أمرها ودينها ، فسألاها عن دينها ، فأخرجت لهما صنماً تعبده ، وقالت : هذا إلهي .

فقالا : لا حاجة لنا في عبادة هذا ، فذهبا ؟ فغبرا ما شاء الله ، ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها ، ففعلت مثل ذلك ، فذهبا .

ثم أتيا إليها بعد ذلك - وكان عندها إنسان - فراوداها عن نفسها ، فلما رأت أنهما أبيا أن يعبدا الصنم قالت لهما : اختارا إحدى الخلال الثلاث : إما أن تعبدا هذا الصنم ، وإما أن تقتلا هذه النفس ، وإما أن تشربا الخمر .

فقالا : كل هذا لا ينبغي .. وأهون شيء شرب الخمر .. فشرباها ، فأخذت فيهما ، فواقعا المرأة ، فخشيا أن يخبر الإنسان عنهما فقتلاه ..

فلما ذهب عنهما السُكر وعلما ما وقعا فيه من الخطيئة أرادا أن يصعدا إلى السماء ، فلم يستطيعا ، وحيل بينهما وبين أهل السماء ، فنظرت الملائكة إلى ما وقعا فيه فعجبوا كل العجب ، وعرفوا أنه من كان في غَيْب فهو أقل خشية ..

عند ذلك أخذوا يستغفرون لمن في الأرض(٣٩) .. ولمثل هذا نزل قوله - تعالى - : ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾(٤٠) ..

---

(٣٩) انظر : تفسير ابن كثير ، وتاريخ الطبري .

(٤٠) من الآية ٥ من سورة الشورى .

وقد أوردنا هذه القصة ؛ لأن مِنَ العلماء من يذكر أنها حدثت فى عهد « إدريس » – عليه السلام – وأن الملكين ذهبا إليه وسألاه أن يدعو الله لهما[٤١]..

والمنطق يقرر أنها بهذه الصورة من وضع الكتابيين ؛ لأنها تنافى ما هو معروف عن الملائكة من الطهارة والنقاء والتفرغ للعبادة التى خلقوا من أجلها .. قال – تعالى – : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ . يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾[٤٢]. وقال – سبحانه – : ﴿ بل عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾[٤٣]. وقال – جل وعلا – : ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ ﴾[٤٤]. وقال – عز من قائل – : ﴿ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[٤٥].

وربما كانت قراءة « الملِكَين » – بكسر اللام ، مثنى « مَلِك » – أنسب لهذه القصة ، و « الملِك » بشر ، وتعرضه للخطأ كثير الاحتمال ، بل هو واقع شائع لا يحتاج إلى استدلال..

ومن العجب أن هناك إضافة لهذه القصة تعرض لها من وضعها وهى : أنه قيل لهذين الملكين : اختارا بين عذاب الآخرة وعذاب الدنيا ، فقالا : أما عذاب الدنيا فهو منقطع ، ولكن عذاب الآخرة لا ينقطع ، فاختارا عذاب الدنيا ، فجُعلا بـ « بابل » ، فهناك يعذبان ..

---

(٤١) تفسير القرطبى.

(٤٢) الآيتان ١٩ – ٢٠ من سورة الأنبياء.

(٤٣) الآيتان ٢٦ – ٢٧ من سورة الأنبياء.

(٤٤) من الآية ٣٨ من سورة فصلت.

(٤٥) من الآية ٦ من سورة التحريم.

هذا ، وإن كان ابن كثير فى تفسيره قد أورد هذا الخبر بإسناد قال عنه : إنه صحيح .. فإن القرطبى - رحمه الله - ضعفه ووهاه ؛ لأنه لا يناسب كرامة الأنبياء ..

السحـر :

ذكر المفسرون للآية السابقة ما ورد عن السحر ومدلوله ، وخطر العمل به ، والسعى إليه وتعلمه ..

والسحر أصله التمويه بالحيل والتخايل ، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعانى يتخيل للمسحور أنها بخلاف ما هى عليه ، كالذى يرى السراب من بعيد فيحسبه ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .. وكراكب السفينة المسرعة يخيل إليه أن الأشجار والجبال تسير معه ؛ وهى ثابتة فى مواقعها .. قال - تعالى - حكاية عن سحرة فرعون : ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾[٤٦] .. وقال - سبحانه - : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾[٤٧] ..

ومن السحر ما يكون كفراً من فاعله إن ترتب عليه فتنة أو أضر بالمسحور إضرارًا بالغاً ؛ كتغيير هيئته أو إذهاب عقله وإضلاله ..

وقد يفعل الساحر أشياء تُحلّ قتله ، كما حدث فى أيام الوليد بن عقبة وهو والٍ على « الكوفة » من قبل الخليفة الثالث عثمان بن عفان - رضى الله عنه - فقد كان عنده يهودى من قرى « الكوفة » يعمل أنواعاً من الشعبذة والسحر ، فأظهر أمامه فيلاً عظيماً على فرس يركض فى صحن المسجد .. ثم صير نفسه ناقة ، ثم أظهر صورة حمار دخل من فيه وخرج من دبره .. ثم ضرب عنق رجل ففرق بين جسده ورأسه .. ثم أمرَّ السيف عليه فقام الرجل ..

---

(٤٦) من الآية ١١٦ من سورة الأعراف .

(٤٧) من الآية ٦٦ من سورة طه .

وكان جماعة من أهل « الكوفة » حُضورًا ، منهم : جندب بن كعب الأزدى ، فجعل يستعيذ بالله من فعل الشيطان ومن عمل يبعد عن الرحمن ، وعلم أن ذلك ضرب من التخييل والسحر ، واخترط سيفه وضرب به اليهودى فقتله .. وقال : إن كنت صادقاً فأحْيِ نفسك[48]..

و « جندب » هذا هو الذى قال فى حقه النبى – ﷺ – : « يكون فى أمتى رجل يقال له : جندب . يضرب ضربة بالسيف يفرق بها بين الحق والباطل[49]..

وهذه الضربة هى قتله لهذا الساحر .. وحد الساحر قتله كما ورد فى الأثر ..

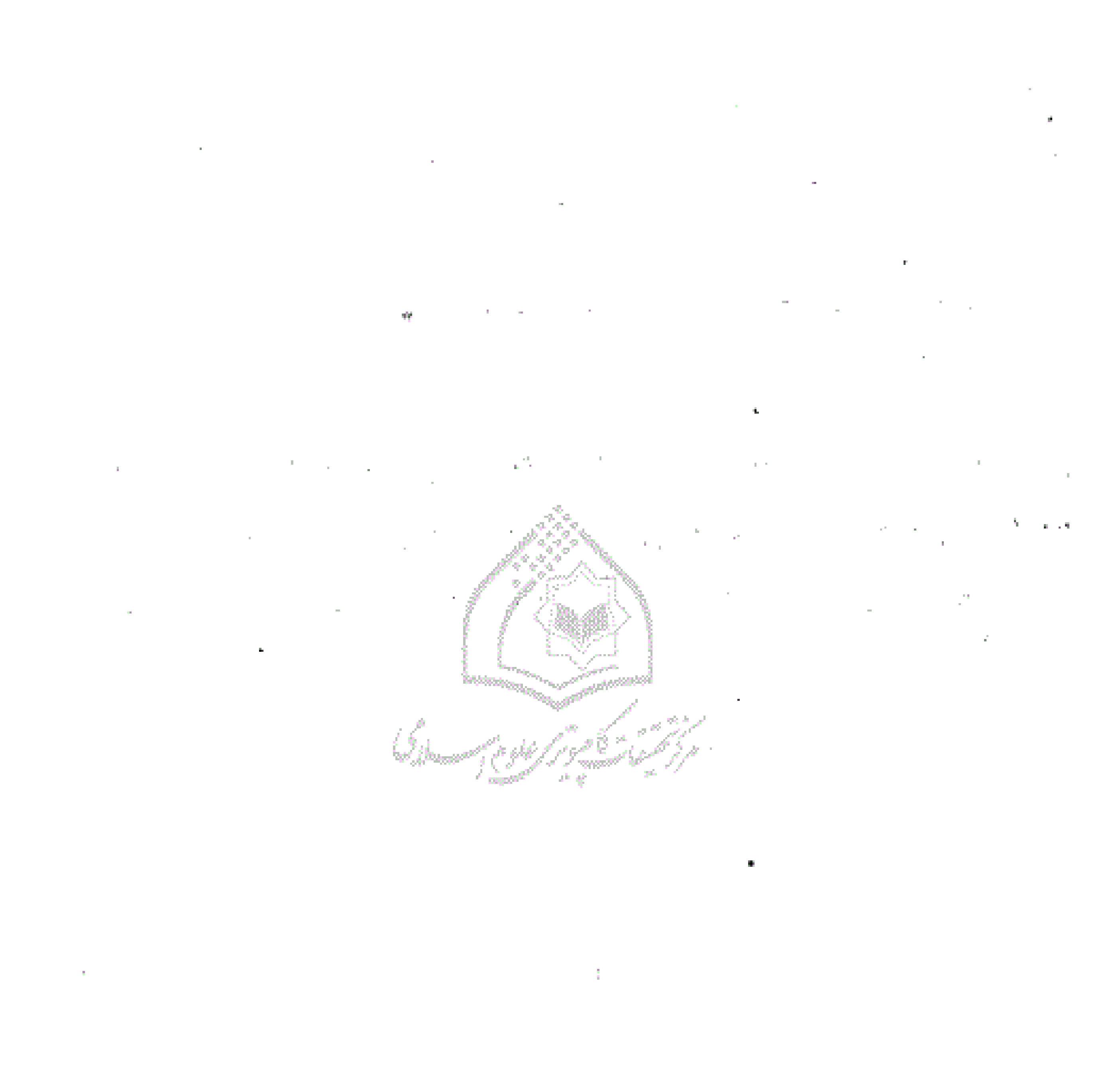
والإسلام فى تحذيره من السحر يغلق أمام الناس أبواباً كثيرة من الضرر .. وأقل ذلك الدجل والشعوذة وأكل أموال النّاس بالباطل .. وكم من ضالّين مضلين استهووا الناس بهذه الأفعال ، وأوقعوا فى براثنهم كثيراً من البسطاء والسذّج والأبرياء ..

* * *

---

(٤٨) مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص ٥٤٨ ، أسد الغابة لابن الأثير جـ ١ ص ٣٦١

(٤٩) تفسير القرطبى.



قصة نوح

عليه السلام

- نسب « نوح » وبعثته ..
- قسوة قومه ..
- القرآن يعرض لقصة « نوح »
- الأذى الذى تحمله « نوح »
- صنع السفينة ..
- الحواريون يسألون « عيسى » عن السفينة .
- ركوب السفينة ..
- « نوح » ينادى ابنه .
- غضب الرب الرحيم .
- السفينة فى الماء ..
- « نوح » ينادى ربه .
- السفينة على الشاطئ
- حركة الحياة تمضى من جديد .
- خصائص خص الله بها « نوحًا » .
- عظة وعبرة ..
- وصية « نوح » لابنه .



نسب « نوح » وبعثه :

هو : نوح بن لَمُك بن متوشلخ بن أخنوخ ..

و « أخنوخ » هو : إدريس – عليه السلام – كما علمنا .. فهو جد أبيه ..

وأمه هي : تبنوس ابنة براكيل بن محويل بن خنوخ بن قين بن آدم[1]..

فهو – إذن – من سلالة الأنبياء .

وكان قوم « نوح » قد أجمعوا على العمل بما يكرهه الله من ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن .. وشرب الخمر .. والاشتغال بالملاهى عن الطاعة ..

وقد ذكر القرآن الكريم أنهم كانوا أهل أوثان . جاء ذلك فى قوله – تعالى – :

﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا . وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا . وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا . وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾[2].

وقد ورد ذكر « نوح » – عليه السلام – فى القرآن الكريم ثلاثاً وأربعين مرة فى ثمان وعشرين سورة[3] وأُفرِدت لقصته سورة خاصة به ؛ هى سورة « نوح » .

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ١ ص ١٧٩ .

(٢) الآيات ٢١ – ٢٤ من سورة نوح .

(٣) هى : (آل عمران) و (النساء) و (الأنعام) و (الأعراف) و (التوبة) و (يونس) و (هود) و (إبراهيم) و (الإسراء) و (مريم) و (الأنبياء) و (الحج) و (المؤمنون) و (الفرقان) و (الشعراء) و (العنكبوت) و (الأحزاب) و (الصافات) و (ص) و (غافر) و (الشورى) و (ق) و (الذاريات) و (النجم) و (القمر) و (الحديد) و (التحريم) و (نوح). انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٧٢٢ – ٧٢٣ .

ويدل ذلك على أهمية قصته ؛ لوجود مشابهة كبيرة بين قوم « نوح » - عليه السلام - وقوم نبينا محمد - ﷺ - فى الإشراك بالله ، وعبادة الأصنام .

وقد ذكرنا فى قصة « إدريس » - عليه السلام - كيف ظهرت الفاحشة وانتشرت مما حدا « إدريس » إلى مقاومتهم وموعظتهم ..

وازداد الفساد بعده حتى أرسل الله « نوحاً » لهداية الناس إلى الطريق المستقيم ، وحثهم على عبادة الله وحده ، وتخويفهم بأس الله ، وتحذيرهم سطوته ، ودعوتهم إلى التوبة والإنابة والرجوع إلى الحق ، والعمل بما أمر الله به رسله وأنزله فى صحف « آدم » و « شيث » و « أخنوخ » والصحف التى أنزلت إليه ..

قالوا : وكان عمر « نوح » - عليه السلام - حين أرسل ثلثمائة وخمسين سنة ، ولبث فى قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً .. وعاش بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة[٤].

وذكر بعض العلماء غير ذلك ، فقد روى ابن عباس أن الله بعث نوحاً وهو ابن أربعمائة وثمانين سنة ، ثم دعاهم فى نبوته مائة وعشرين سنة ، وركب السفينة وهو ابن ستمائة سنة ، ثم مكث بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة[٥].. فهذه ألف سنة إلا خمسين عاماً ورد ذكرها فى القرآن الكريم[٦].

قسوة قومه :

وقد قُدَّت قلوب قومه من الصخر ، فلم يستجيبوا لدعوته ..

وهو لم يفتر فى دعوتهم إلى الخير .. وكان كما سجل القرآن الكريم :

---

(٤) تاريخ الطبرى جـ ١ ص ١٨٠ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) فى الآية ١٤ من سورة العنكبوت .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا . وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا . ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا . ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾[7]..

وحاول « نوح » – عليه السلام – إغراءهم بكل صنوف الإغراء ..

أغراهم بمغفرة الله ورضوانه ، وطول أعمارهم .. ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ . يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[8].

وأغراهم بإكثار نعيمهم وزيادة خيراتهم وأولادهم .. ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾[9].

ولكن .. بدون جدوى .. !!

وحاول « نوح » – عليه السلام – لفت أنظار قومه إلى قدرة الله الخارقة فى أنفسهم وفيما حولهم ، ونعمته الظاهرة والباطنة عليهم .. ﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا . أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا . وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا . ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾[10].

وذكّرهم بهذه النعمة التى يتقلبون فيها ليشكروا الله عليها ويعبدوه حق عبادته من أجلها .. ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا . لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴾[11].

---

(٧) الآيات ٥ – ٩ من سورة نوح .
(٨) الآيات ٢ – ٤ من سورة نوح .
(٩) الآيات ١٠ – ١٢ من سورة نوح .
(١٠) الآيات ١٣ – ١٨ من سورة نوح .
(١١) الآيات ١٩ – ٢٠ من سورة نوح .

ولكنهم لم يزدادوا إزاء ذلك إلا ضلالاً ، وبعداً عن الحق ، ومُضِيًّا فى الباطل ، وسخرية منه ومن دعوته ..

وحاول تخويفهم بالجزاء والحساب والعقاب ، فقال لهم : ﴿ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾[12].

ولكن عنادهم له يستمر ؛ فيقولون :

﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْىِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾[13].

لقد كَبُرَ عليهم أن يؤمن به الضعفاء الأذلاء ، واستنكفوا أن يكون هؤلاء مثلهم ، أو يكونوا مثل هؤلاء فيؤمنوا بـ « نوح » بعد أن آمن به هؤلاء الأراذل ..

ولكن جرت سنة الله فى خلقه أن يكون أول من يؤمن بالأنبياء هم الضعفاء من الناس ؛ لأن الرسول إنما يجىء ليأخذ بيد المظلوم ، ويرفع شأن المهضوم .. ولقد قالها « هرقل » ملك الروم لـ « أبى سفيان » حين سأله عن النبى - ﷺ - : ومن يتبعه من الناس ؟ فقال : يتبعه ضعفاء الناس . فقال « هرقل » : هكذا الأنبياء يتبعهم الضعفاء[14].

القرآن يعرض لقصة « نوح » :

لقد عرض القرآن الكريم لقصة « نوح » - عليه السلام - فى مواضع كثيرة متفرقة ، وهى فى مجموعها تتناول تفصيلات دقيقة لدعوته ، ومحاولات « نوح » المخلصة فى تبليغها ، وما بذله من مجهودات ، وما دار من مناقشات ومجادلات تدل على قوة حجته وسفه رأى قومه ..

---

(١٢) الآيتان ٢٥ - ٢٦ من سورة هود .

(١٣) من الآية ٢٧ من سورة هود .

(١٤) بشائر النبوة الخاتمة - د / رءوف شلبى ص ٣٩٩ .

لم يترك « نوح » – عليه السلام – وسيلة هداية قومه إلا وسلكها ..

حاول إثارة عقولهم ، وناقشهم بالمنطق ، وجادلهم بالحسنى .. ولكن من غير فائدة .. قال – تعالى – :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) ﴾

إنه يقول لهم : إنه سينتصر بالله فاستنصروا أنتم بمن شئتم ..

ويقول : ما سألتكم من أجر على هدايتكم وإنجائكم من المصير المشئوم الذى ينتظركم .. وكان يكفى لمن لديه عقل أن يفكر فيما يقول ، ويقلب فيه وجه الرأى .. ولكن الله طمس على عقولهم وبصائرهم ..

ويتحدّونَهُ قائلين كما حكى القرآن :

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٦) ﴾

إنها إثارة يحاولون بها أن يستفرغوا صبره الذى طال ، ويستفزوه حتى يُلجئوه إلى الشطط ، ولكنه كان قمة فى الحلم والهدوء وسعة الصدر ، فيرد عليهم بقوله :

---

(١٥) الآيتان ٧١ – ٧٢ من سورة يونس .
(١٦) الآيات ٣٢ – ٣٤ من سورة هود .

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ (١٧) ﴾

أجل .. كيف يلزمهم بدعوة يكرهونها ولا يقبلونها ؟ !

وأى دعوة هذه ؟ إنها الرحمة .. والهداية .. والنجاة لهم فى الدنيا والآخرة .. فهل هناك ضلال أبعد من ذلك ؟!

الأذى الذى تحمله « نوح » – عليه السلام – :

ولقى « نوح » – عليه السلام – فى سبيل الدعوة من الأذى ما لا يصبر عليه إلا أولو العزم من الرسل .. وكان « نوح » فى مقدمتهم[١٨] ..

وماذا يُطْلب من رسول قضى فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يحاول إقناعهم بدعوته دون جدوى ؟ ! ماذا يطلب منه أكثر مما فعل ؟!

وقد أمد الله لهم فى الحبل ، وأطال عليهم المدى حتى لم يبق فى قوس الصبر منزع ؛ فدعا عليهم بعد أن جاوز الأمر حده ..

قال الضحاك – فيما يرويه عن ابن عباس – : إن « نوحاً » كان يُضْرب ، ثم يلف فى لبد ، ثم يلقى فى بيته ، فيرون أنه قد مات .. ثم يخرج فيدعوهم حتى أيس من إيمان قومه[١٩] ..

فكان أن دعا ربه قائلاً : ربّ ، قد ترى ما يصنع بى عبادُك ، فإن يكن لك فى عبادك حاجة فاهدهم ، وإن يكن غير ذلك فصبّرنى إلى أن تحكم بينى وبينهم ، وأنت خير الحاكمين ..

---

(١٧) من الآية ٢٨ من سورة هود .

(١٨) وذلك من حيث الترتيب الزمنى .. وإلا فأولهم وأعظمهم سيدنا محمد – ﷺ – .

(١٩) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٥٣ .

فأوحى الله إليه :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾(٢٠)

فآيسه الله منهم وأخبره أنه لم يبق فى أصلاب الرجال ولا أرحام النساء مؤمن ، عند ذاك دعا عليهم ؛ قائلاً :

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾(٢١)

وروى ابن إسحاق أن « نوحاً » كان قومه يبطشون به فيخفقونه حتى يغشى عليه . فإذا أفاق قال : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون . حتى تمادوا فى المعصية ، وعظمت فى الأرض منهم الخطيئة ، وتطاول عليهم الشأن واشتد عليه منهم البلاء ، وانتظر النجل منهم بعد النجل ، فلا يأتى قرن إلا كان أخبث من القرن الذى قبله ، حتى كان الآخير منهم ليقول : قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنوناً ، لا يقبلون منه شيئاً ، حتى شكا ذلك من أمرهم إلى الله[٢٢]، فكان كما قص الله علينا فى كتابه الحكيم : « رب إنى دعوت قومى ليلاً ونهاراً » ..

ومن صور الإيذاء ما يرويه العلماء من أن « نوحاً » – عليه السلام – كان يخرج كل يوم فينادى : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره . فيخرج إليه القوم من بيوتهم فيضربونه بالعصى والنعال فيغشى عليه .. فيجردونه

---

(٢٠) من الآية ٣٦ من سورة هود .

(٢١) الآيتان ٢٦ – ٢٧ من سورة نوح .

(٢٢) تاريخ الطبرى جـ ١ ص ١٨٠ .

ويلقونه على المزابل .. وعندما يفيق يمسح الدماء عن وجهه ويصلى ويدعو لهم بالمغفرة . وأقام على ذلك نحوًا من سنة .

وكان « نوح » – فيما يروون – قد عاصر من الملوك ملكاً متجبراً طاغياً اسمه : « درمشيل » اشتد في أذى « نوح » . فلما هلك خلفه ابنه : « توبين » فكان أطغى من أبيه . وصار « نوح » يدعوه كما كان يدعو أباه .. ومات « توبين » وجاء بعده ابنه « طفردوس » فكان أشد طغياناً من أبيه وجده[٢٣]..

صنع السفينة :

وكان لابد لهذا الصبر الطويل أن ينفد ..

وماذا ينتظر نبى الله « نوح » – عليه السلام – من قوم طالت دعوته فيهم قرابة ألف عام دون أن يظهر لها ثمر يذكر ؟ !

ماذا تكون عاقبة قوم وصفوا من جاء ليهديهم بالضلال ؟ !

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٤) ﴾

فيرد عليهم بمنتهى الحلم والتعقل قائلاً :

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٥) ﴾

---

(٢٣) ابن إياس في بدائع الزهور ص ٥٦ .
(٢٤) الآية ٦٠ من سورة الأعراف .
(٢٥) الآيات ٦١ – ٦٣ من سورة الأعراف .

حينذاك حقت كلمة الله وجرت سنته ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ..

كان لابد من إهلاكهم .. وسيكون هلاكهم عبرةً لمن يجيء بعدهم ..

سيمحو الله أثرهم من الوجود ، ويهلكهم بطريقة لم تكن تخطر لهم على بال .. سيكون هلاكهم بالإغراق .. فى بلاد لا توجد فيها بحار ولا أنهار ..

وأمره الله أن يغرس شجرة ..

غرس الشجرة.. وعظمت هذه الشجرة وامتدت فروعها حتى ذهبت فى الفضاء كل مذهب.

يقال: إنها مكثت أربعين سنة ، وبلغ طولها ثلثمائة ذراع ..

وكانت هذه الشجرة من أشجار الساج.. وهو يمتاز بالقوة والصلابة وعدم التأثر بالماء.

ثم أمره الله بقطع تلك الشجرة، فقطعها، وتركها تجف وقتاً طويلاً.

قالوا: وكان « نوح » نجاراً.. فأمره الله بصنع سفينة..

ولكن.. أنّى له أن يعرف ولم ير سفينة قبل ذلك ؟

قال العلماء: جاء جبريل – عليه السلام – يعلّم « نوحاً » كيف يصنع السفينة..

علّمه كيف يشق الخشب ويجعله ألواحاً .. وعلمه كيف يلصق بعضها ببعض بالمسامير.. وهذا معنى قوله – تعالى –:

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾[٢٦].. و « الدسر »: هى: المسامير..

---

(٢٦) الآية ١٣ من سورة القمر.

وطال الوقت في صنع السفينة.. قال ابن عباس – رضى الله عنهما –: اتخذ « نوح » السفينة في سنتين. وكان طولها ثلثمائة ذراع ، وعرضها خمسين ذراعاً وكانت من خشب الساج..

وقال كعب الأحبار : مكث « نوح » يعمل في السفينة ثلاثين سنة ، وقيل : غرس الشجر أربعين سنة وجففه أربعين سنة ..

وجاء في التوراة أن الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج ، وأن يصنعه أزور (مائلاً) ، وأن يطليه بالقار من داخله وخارجه ، وأن يجعل طوله ثمانين ذراعاً وعرضه خمسين ذراعاً ، وطوله في السماء ثلاثين ذراعا – والذراع إلى المنكب – وأن يجعله ثلاث طبقات : سفلى ووسطى وعليا ، وأن يجعل فيه كوى .. فصنعه « نوح » ؛ كما أمره الله – تعالى –[٢٧].

الحواريون يسألون « عيسى » عن السفينة :

ذكر الرواة[٢٨] مسنداً إلى ابن عباس – رضى الله عنه – قال :

قال الحواريون لعيسى بن مريم : لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها . فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب ، فأخذ كفاً من ذلك التراب ، فقال : أتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا قبر حام بن نوح .

قال : فضرب الكثيب بعصاه ، وقال : قم بإذن الله ، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب .

فقال له « عيسى » : هكذا هلكت ؟ قال : لا . قدمْتُ وأنا شاب ، ولكني ظننت أنها الساعة ، فمن ثَمَّ شبت .

---

(٢٧) حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ٣٥٢ (باب الفأر) .
(٢٨) تاريخ الطبرى .

قال : حدثنا عن سفينة « نوح ».

قال : كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع . وكانت ثلاث طبقات ، فطبقة فيها الدواب والوحش ، وطبقة فيها الإنس ، وطبقة فيها الطير.

فقال « عيسى » : كيف علم « نوح » أن البلاد غرقت ؟

قال : بعث الغراب ليأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها ، فدعا عليه بالخوف ، فلذلك لا يألف البيوت . قال : ثم بعث الحمامة ، فجاءت بورق الزيتون بمنقارها ، وطين برجلها فعلم أن البلاد قد غرقت . قال : فطوقها بالخضرة التي فى عنقها ، ودعا لها أن تكون فى أنس وأمان ، فمن ثم تألف البيوت ..

قال : فقال الحواريون : يا رسول الله ؛ ألا ننطلق به إلى أهلنا فيجلس معنا ويحدثنا ؟ !

قال : كيف يتبعكم من لا رزق له ؟

فقال له : عُدْ بإذن الله ، فعاد تراباً.

رواه الطبرى عن القاسم . قال : حدثنا الحسين . قال : حدثنى حجاج ، عن مفضل بن فضالة ، عن على بن زيد بن جدعان ، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس - رضى الله عنهما -.

والعقل لا يستبعد هذا الخبر إلا فى طول السفينة وعرضها..

ولا مخرج من هذا إلا بأن يكون الذراع تقديرياً يختلف من زمان إلى زمان.

ركوب السفينة :

وقد جعل الله لـ « نوح » علامة ، وهى : ما أشار إليه الحق - سبحانه وتعالى - فى قوله :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ (٢٩) ﴾

وحين جاء الوقت المعلوم دخل « نوح » بيت ابنه « سام » ، وله زوج اسمها : رحمة . وهي تخبز في تنور[٣٠] مصنوع من حجر أسود ، فلما كان آخر رغيف فار الماء من التنور ، فصاحت قائلة : الله أكبر ، جاء ما وعد الله به من العذاب . وصدق نبي الله « نوح »[٣١].

وهذه علامة بيّنة . وهي من قبيل الإعجاز : أن يجيء الماء من قِبَل النار وهما متضادان .. !! سبحان الله !!

وكان « نوح » قد جهز كل ما يحتاج إليه في السفينة من ماء وغذاء للناس والحيوان ووضعه في السفينة .

ودعا الحيوان والطير والوحش والهوام فحشرت إليه ، واختار من كل منها زوجين اثنين ، وأركب ذلك كله السفينة .

وجعل الوحوش في الطابق الأسفل ، والطيور في الطابق الأعلى ..

ثم نادى في قومه : النجاة النجاة .. فتبعه من آمن به .

وكان عدتهم – كما يقول ابن عباس – أربعين رجلاً وأربعين امرأة .

---

(٢٩) الآية ٤٠ من سورة هود .

(٣٠) التنّور : نوع من الكوانين . تفعول من النار . ولم يعرف هذا الوزن إلا في هذا الحرف . وقيل : التنور وجه الأرض . وهو فارسي معرب . وقيل : كل مفجَّر ماء تنور .. انظر لسان العرب (تنر) جـ ٥ ص ١٦٢ .

(٣١) ابن إياس في بدائع الزهور .

وقال الطبرى : حمل فى السفينة من كل زوجين اثنين مما فيه الروح والشجر ذكر وأنثى .. وحمل بنيه الثلاثة : سام وحام ويافث ونساءهم وستة أشخاص آمنوا معه[٣٢].

يا سبحان الله !! أبعد هذا العمر المديد والجهاد المميت لم يستجب لـ « نوح » إلا بضعة نفر ؟ !

ألم يكن من عدل الله أن تطهر الأرض من الوثنية ، وتغسل بالطوفان حتى لا يبقى أثر للكفر والرجس .. ؟

وقال الثعلبى : كانوا سبعين ، و « نوح » وامرأته وبنوه الثلاثة ونساؤهم ، فجميعهم ثمانية وسبعون[٣٣].. وهو قريب من قول ابن عباس السابق ..

وقيل : إنه نقل معه جسد « آدم » ، وجعله معرضاً حاجزاً بين الرجال والنساء ..

وهذا يعنى أن قوم « نوح » كانوا بـ « الهند » ؛ حيث هبط « آدم » ومات ..

إبليس فى السفينة :

ومن القصص الطريفة فى ذلك ما يرويه الثعلبى والطبرى أن « نوحاً » – عليه السلام – حمل معه من الوحوش والحيوانات ، فكان أول شىء دخل السفينة الذَّرة – وهى : النملة – وقيل : الإوزة . وآخر حيوان دخل ؛ هو : الحمار . فتعلق إبليس بذيله ، فلم يقدر الحمار على الدخول ، فجعل « نوح » يقول له : ادخل ، فلا يستطيع ، حتى قال له : ادخل وإن كان

(٣٢) نقله الطبرى عن الأعمش .. انظر : تاريخ الطبرى .

(٣٣) نقله عن مقاتل ..

الشيطان معك .. فلما قال ذلك خلى إبليس سبيل الحمار ، فدخل ودخل إبليس معه ..

فلما رآه « نوح » قال له : ما أدخلك يا عدو الله ؟ قال : ألم تقل : ادخل ولو كان الشيطان معك ؟

قال له « نوح » : اخرج يا عدو الله . قال له : ما لك بد من أن تحملنى .. فكان – كما يزعمون – على ظهر الفلك[٣٤].

والعجيب هنا أن يكون إبليس على ظهر السفينة ، وابن « نوح » الذى ناداه فلم يستجب ليس على ظهرها ..

« نوح » ينادى ابنه :

وكان « نوح » – عليه السلام – قد نادى ابنه قائلاً :

﴿ يا بُنَىَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾[٣٥].

ولكن ابنه – وهو : يام ، أو : كنعان – رفض الاستجابة لهذا النداء ، وقال :

﴿ سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ ﴾[٣٦].

فقال له « نوح » :

﴿ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إلا مَنْ رَّحِمَ ﴾[٣٧].

ولجّ الأب فى النداء ، ولجّ الابن فى العناد .. حتى جاء أمر الله ، ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾[٣٨].

---

(٣٤) الثعلبى ص ٥٥ ، الطبرى ص ١٨٤ .

(٣٥) من الآية ٤٢ من سورة هود .

(٣٦) من الآية ٤٣ من سورة هود .

(٣٧) من الآية ٤٣ من سورة هود .

(٣٨) من الآية ٤٣ من سورة هود .

لقد كان الابن مع الكافرين ، وحقت لعنة الله عليه وعليهم ، وانقبضت رحمته الواسعة عنهم ؛ لأنهم لم يتركوا لهذه الرحمة منفذًا إليهم ..

غضب الرب الرحيم :

تقول السيدة عائشة[39] - رضى الله عنها - قال رسول الله - ﷺ - : لو رحم الله أحداً من قوم « نوح » لرحم أم الصبى .

قال رسول الله - ﷺ - : كان « نوح » قد مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله - عز وجل - حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب ، ثم قطعها ، ثم جعل يعمل سفينة ، فيمرون فيسألونه فيقول : أعملها سفينة ، فيسخرون منه ، ويقولون ، تعمل سفينة فى البر فكيف تجرى ؟ فيقول : سوف تعلمون .

فلما فرغ منها وفار التنور وكثر الماء فى السكك خشيت أم الصبى عليه . وكانت تحبه حباً شديدًا ، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثى الجبل ، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيدها حتى ذهب به الماء : فلو رحم الله منهم أحدًا لرحم أم الصبى ..

السفينة فى الماء :

وأمر الله السماء أن تفتح أبوابها ، وأمر الأرض أن تفيض عيونها ، وظلت السماء تمطر بدون سحاب ، والعيون تفيض أربعين يوماً بدون انقطاع ، حتى غطى الماء قمة أعلى جبل على وجه الأرض .

وانطلقت سفينة « نوح » بمن عليها تمشى باسم الله مجراها ومرساها . وقد امتن الله على « نوح » ومن معه بقوله - تعالى - :

---

(٣٩) تاريخ الطبرى.

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾(٤٠).

« نوح » يناجي ربه :

وتذكر « نوح » – عليه السلام – ابنه فى هذه اللجج الطاغية ، فأخذ يناجي ربه .. وقد حكى القرآن الكريم ذلك ؛ قائلاً :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ(٤١) ﴾

لقد تفجرت عاطفة الأبوة فى « نوح » ، ولكنها استكانت أمام قوة الإيمان .. فالنسب الحقيقى فى منطق الدين هو الدين نفسه ، وأمامه تتلاشى كافة العلاقات الأخرى .

فحين خاطب الحق « نوحًا » – عليه السلام – بقوله – تعالى – : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ أدرك « نوح » أنه كان متسرعًا فى طلب النجاة لابنه ؛ إذ كيف يدعو على الكفار بالهلاك ، ثم يستثنى منهم ابنه ؟ ! ولذلك أسرع بالاعتذار ؛ قائلاً :

﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(٤٢).

---

(٤٠) الآيتان ١١ – ١٢ من سورة الحاقة .

(٤١) الآيتان ٤٥ – ٤٦ من سورة هود .

(٤٢) من الآية ٤٧ من سورة هود .

لا مجاملة فى الدين :

إن الدين ينهى أن يجامل المسئول أحدًا مهما كانت صلته وقرابته به على حساب المصلحة العامة .. فالكل أمام القانون سواء .. وإذا كان الدين قد نهى عن تفضيل القريب المسلم لقرابته على غيره من ذوى الكفاءة ، فمن باب أولى ينهى عن تفضيل القريب غير المسلم وغير الكفء على المسلم الكفء فى تولى الأعمال ..

وما زالت صيحة النبى - ﷺ - التى أعلنها فى « مكة » حين أرادوا الاستشفاع فى حد من حدود الله - تعالى - فقال : « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقَطَعْت يدها » .. ما زالت هذه الصيحة تدوى لتشهد العالَمَ أجمع على أن العدالة الحقيقية هى من صنع الأديان ، وأن هذه العدالة هى ميزان حفظ الدول وسر تقدمها وأساس نهضتها .

وصدق الله - تعالى - إذ يقول : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ ﴾[٤٣].

والرسول - ﷺ - حيث يقول : « مَنْ أَبطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ »[٤٤].

هذا ، وقد رويت أقوال متعددة فى معنى قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ . وأشبهها بمقام النبوة الكريم هو : أنه ليس من أهل دينك الذين وُعِدت بنجاتهم .. وقد أضربنا عن ذكر الأقوال التى لا تليق بمقام النبوة .

السفينة على الشاطىء :

ظلت السفينة تجوب الأمواج المتلاطمة التى تحيط بها من جميع الجوانب .. ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾[٤٥]. وما زالت المياه تفيض من

---

(٤٣) الآية ١٠١ من سورة المؤمنون .

(٤٤) انظر : كنوز الحقائق فى حديث خير الخلائق جـ ٢ ص ٩٢ - ٩٣ .

(٤٥) من الآية ٤٢ من سورة هود .

أعلى ومن أسفل ، ولا منظر لليابسة أمام الراكبين ..

وقد حدثت طرائف أشار إليها بعض المفسرين والإخباريين ، نستروح بذكرها ، استشهادًا على أن السفينة قد أصبحت مجتمعًا متكاملاً يحدث فيه ما يمكن أن يحدث فى أى مجتمع آخر من جِدٍّ وغيره .

وقد قضى أفراد السفينة فيها فترة طويلة قدرها بعض العلماء بسنة ، وقدرها آخرون بستة أشهر .

وكان « نوح » - عليه السلام - قد أصدر أمره ألا يلتقى ذكر بأنثى على ظهر السفينة . ووضع تابوت « آدم » حداً فاصلاً بين الرجال والنساء .

فيقال : إن حام بن نوح التقى بزوجه ..

فدعا أبوه عليه فاسودّ وجهه ووجه كل من كان من نسله ..

وذكر القرطبى فى تفسيره والطبرى فى تاريخه والدميرى فى حياة الحيوان وغيرهم أن الأرواث حين كثرت فى السفينة أوحى الله إلى « نوح » أن اغمز ذَنَب الفيل ، فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث فأفنياه .. ونظفت السفينة .

وقال « نوح » : لو غمزت ذنب الخنزير ، ففعل ، فخرج منه فأر وفأرة ، فلما وقعا أقبلا على السفينة وحبالها يقرضانها ويقرضان الأمتعة والأزواد حتى خافوا على حبال السفينة ، فأوحى الله إلى « نوح » أن امسح جبهة الأسد فمسحها ، فخرج منها سنّوران فأكلا الفِئَرة ..

ولما حُمِل الأسد على السفينة قال « نوح » : يارب ؛ من أين أطعمه ؟ قال : سوف أشغله ، فأخذته الحمى ، فهو الدهرَ محموم .

وحين أراد الله للسفينة أن ترسو وقد هلك جميع الكافرين غرقًا بعد أن غطى الماء الأرض وغمر الجبال وارتفع فوقها .. ولم يعد مكان ينجو إليه أىّ إنسان .

وكانت السفينة فى خلال ذلك تجوب الماء ، وظلت كذلك فترة طويلة ، أشرنا إليها فيما سبق .

قيل : إنهم ركبوها لعشر خلون من رجب ، واستوت على الجودى لعشر خلون من المحرم ، فهذه ستة أشهر . ولذلك سُنَّ صيام يوم عاشوراء كما يقول بعض الفقهاء .

وذكر ابن إسحاق[٤٦] ما يقتضى أنه أقام على الماء سنة كاملة ، ومرت السفينة بالبيت – أى : بمكانه ، فقد غمرته الماء بعد أن رُفع البيت – فطافت به سبعاً ، ثم مضت إلى جهة « اليمن » ، ثم عادت إلى الجودىّ لترسو .

والجودى : جبل بقرب « الموصل »[٤٧].

ولما أراد الله أن يكف ذلك الطوفان أرسل ريحاً على وجه الأرض فسكن الماء ، وانسدت ينابيع الأرض ، فجعل الماء ينقص ويغيض ويُدْبر حتى رئيت رءوس الجبال ..

فلما مضى – بعد ذلك – أربعون يومًا فتح « نوح » كوة الفلك ؛ لينظر ما صنع الماء ، ثم أرسل الغراب يستطلع الخبر فلم يعد ، فأرسل الحمامة فعادت تحلق وفى منقارها غصن زيتون ، وفى رجليها أثر الطين ، فقلدها الغصن[٤٨].. وأصبحت منذ ذلك الحين يطلق عليها : المطوقة ..

وأصبح غصن الزيتون رمزًا للسلام ..

ثم أرسلها بعد فترة أخرى ، فلم تعد إليه ، فعلم أنها وجدت لها مستقراً ..

---

(٤٦) تاريخ الطبرى .

(٤٧) تفسير القرطبى .

(٤٨) قصص الأنبياء لابن كثير .

وقال العلماء : وأوحى الله إلى الجبال : إنى مُهبط سفينة « نوح » على إحداكن ، فتطاولت الجبال كلها ماعدا الجوديّ لم يتطاول تواضعاً لله ، فاستوت السفينة عليه .

وقيل : إن الجبال تشامخت حتى لا يصيبها الغرق ماعدا الجودى فقد تطامن وخضع ، فعلا الماء فوق كل جبل خمسة عشر ذراعاً ماعدا الجودى الذى أكرمه الله .. وقال العلماء : إن الله أكرم ثلاثة جبال بثلاثة نفر .. أكرم الجوديّ بـ « نوح » ، وأكرم جبل طور سيناء بـ « موسى » ، وأكرم حراء بـ « محمد » - ﷺ -[٤٩].

وربما علّمنا تطامُنُ الجبل وخضوعه درسًا فى وجوب التواضع لله ، وقد ورد فى الأثر : من تواضع لله رفعه ، ومن تكبر عليه خفضه ..

وروى مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - : « ... وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله »[٥٠].

وأخرج البخارى قوله - ﷺ - : « إن الله أوحى إلَيّ أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد »[٥١].

ورست السفينة .. وقد حكى القرآن الكريم ذلك قائلاً بأسلوبه المعجز :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[٥٢].

وأوحى الله إلى « نوح » أن يهبط ..

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٥٣].

---

(٤٩) تفسير القرطبى .

(٥٠) رياض الصالحين حديث رقم ٦٠١ .

(٥١) ذكره القرطبى فى تفسيره . وانظر : رياض الصالحين حديث رقم ٦٠٠ .

(٥٢) الآية ٤٤ من سورة هود .

(٥٣) الآية ٤٨ من سورة هود .

وهذه الآية تشهد بأن البركة قد شملت كل المؤمنين إلى يوم القيامة ، كما أن العذاب حق على الكفار إلى يوم القيامة ..

حركة الحياة تمضى من جديد :

هبط « نوح » – عليه السلام – ومَنْ معه ، وذبح من الطيور والحيوانات ما يصلح أن يكون قرباناً لله .. وبدأت حركة الحياة تمضى كما كانت .. مع فارق واحد ؛ هو : أن الأرض يعمرها الآن أطهار ..

لقد طهرت الأرض من الشرك والكفر .. ولكنَ إلى حين ؛ فإن إبليس لم تنته مهمته بعدُ ..

وبدأ « نوح » الذى يطلقون عليه (آدم الصغير) يقدم نسلاً طاهراً مؤمناً .. يعرف الله ويوحده . فقد قال الله – تعالى – فى حقه :

﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الآخِرِينَ . سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِى الْعَالَمِينَ ﴾(٥٤).

يقول المفسرون : إن « نوحاً » كان له ثلاثة أولاد ..

سام ؛ وهو : أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى .

وحام ؛ وهو : أبو السودان من المشرق إلى المغرب والسند والهند والنوب والزنج والحبشة والقبط والبربر وغيرهم .

ويافث ؛ وهو : أبو اللان والصقالبة والترك والخزر ويأجوج ومأجوج(٥٥).

وقال بعض المفسرين : كان لغير « نوح » ممن آمنوا معه نسل أيضاً ؛ بدليل قوله – تعالى – : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا

---

(٥٤) الآيات ٧٧ – ٧٩ من سورة الصافات .

(٥٥) تفسير القرطبى عن سعيد بن المسيب .

شَكُورًا ﴾[٥٦]، وقوله – تعالى – : ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾[٥٧].

وعلى هذا فمعنى قوله – تعالى – : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُم الباقِينَ ﴾ ؛ أى : دون ذرية من كفر فقد أغرقناهم ..

خصائص خص الله بها « نوحاً » :

لقد ترك الله الثناء الحسن على « نوح » فى كل أمة تأتى بعده ، والسلام عليه إلى الآبدين . وهذا ما يُفهم من قوله – تعالى – : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي العَالَمِينَ ﴾ .. وقد قرئت كلمة « سلام » بالنصب فى بعض القراءات لملاحظة هذا المعنى ؛ أى : تركنا عليه سلاماً وثناء حسناً .

ولم يبعث بعده نبىٌّ إلا وأمر بالاقتداء به .. قال – تعالى – : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾[٥٨].

وكان « نوح » فى مقدمة أولى العزم من الرسل[٥٩]؛ وهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد – عليهم الصلاة والسلام – .

وأثنى الله عليه حين قال فى حقه : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾[٦٠].

وذكر سعيد بن المسيب – رضى الله عنه – أنه من قال حين يُمسى : « سلام على نوح فى العالمين » لم تلدغه عقرب .. وذكروا أن لذلك أصلاً ؛ هو : أنه حين حمل « نوح » فى سفينته الوحوش والطيور وغيرها طمعت

---

(٥٦) الآية ٣ من سورة الإسراء .
(٥٧) من الآية ٤٨ من سورة هود .
(٥٨) من الآية ١٣ من سورة الشورى .
(٥٩) من حيث الترتيب الزمنى ، كما بينا من قبل .
(٦٠) الآيتان ٨٠ – ٨١ من سورة الصافات .

العقرب والحية فى الدخول ، فرفض « نوح » وقال لهما : إنكما سبب الضر والبلايا . قالا : احملنا ونحن نضمن ألا نضر أحداً ذكرك .. فمن قرأ حين يخاف مضرتهما : « سلام على نوح فى العالمين » نجا من ضررهما(٦١).

وجعل الله إبراهيم أبا الأنبياء من شيعته ، فقال – تعالى – : ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾(٦٢).. ومعنى « شيعته » : أهل دينه ومنهجه وسنته ..

وهو أول نبى من أنبياء الشريعة ، وأول نذير لأهل الشرك .. ولقد أهلك الله أهل الأرض كلهم بدعائه(٦٣).. وقد شبه النبى – ﷺ – به عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فى شدته فى الحق ..

وجعله الله ثانى المصطفى – ﷺ – وتاليه فى الميثاق الذى أخذه من الأنبياء – عليهم السلام – فقال – تعالى – : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ ﴾(٦٤)، وقال – سبحانه – : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾(٦٥)..

وهو أول نبى تنشق عنه الأرض يوم القيامة بعد نبينا محمد – ﷺ – .

وأعطاه الله الفلك ، وعلمه صنعتها ، وحفظه بما فيها ، وأجراها بقدرته .. ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾(٦٦)..

وسماه : شكوراً .. ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾(٦٧).

---

(٦١) ذكره الثعلبى عن مالك بن سليمان الهروى .

(٦٢) الآية ٨٣ من سورة الصافات .

(٦٣) المقصود بمن أهلكهم الله : الكافرون .. بدليل قوله – تعالى – على لسان « نوح » – عليه السلام – : ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ . من الآية ٢٦ من سورة نوح .

(٦٤) من الآية ٧ من سورة الأحزاب .

(٦٥) من الآية ١٦٣ من سورة النساء .

(٦٦) الآية ١٤ من سورة القمر .

(٦٧) من الآية ٣ من سورة الإسراء .

وأكرمه بالسلامة والبركة ..

عظة وعبرة :

ولاشك أن فى قصة نجاة « نوح » - عليه السلام - ومن معه فى السفينة عبرة وعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .. وصدق الله - تعالى - إذ يقول :

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾[٦٨].

وقد قال المفسرون : إن المقصود من قصص الأمم وذكر ما حل بهم من العذاب زجرٌ لهذه الأمة عن الاقتداء بهم فى معصية الرسول ، ثم منَّ عليهم بأن جعلهم ذريّة من نجا من الغرق ..

و « الأذن الواعية » ؛ هى : التى تعقل عن الله ، وتنتفع بما تسمع من كتابه وسنة رسوله ..

روى مكحول أن النبى - ﷺ - حين نزلت هذه الآية قال لعلى - كرم الله وجهه - : سألت ربّى أن يجعلها أذنك يا على .. قال مكحول : فكان على - رضى الله عنه - يقول : ما سمعت من رسول الله - ﷺ - شيئًا قط فنسيته[٦٩].

وفى هذه الآية توبيخ لمن لا يتعظ ولا يتذكر ولا يعى[٧٠].. ونحن نسأل الله أن يجعلنا من الواعين الذاكرين الحافظين ..

وصية « نوح » لابنه :

ولا حاجة إلى القول بأن « نوحاً » - عليه السلام - قسم الأرض بين أولاده وهدفه من ذلك تعميرها .. فإن ذلك معروف .

---

(٦٨) الآيتان ١١ - ١٢ من سورة الحاقة .

(٦٩) ذكره القرطبى عند تفسير هذه الآية .

(٧٠) الزمخشرى فى الكشاف .

وقد أوصى « نوح » ابنه الذى توسم فيه الخلافة .. ونترك لهذا الحديث بيان تلك الوصية :

عن عبد الله بن عمرو قال : كنا عند رسول الله – ﷺ – فجاء رجل من أهل البادية وعليه جبة سيحان مزرورة بالديباج ، فقال : ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس ، ورفع كل راع ابن راع . قال : فأخذ النبىّ – ﷺ – بمجامع جبته ، فقال : ألا أرى عليك لباس من لا يعقل ؟ ! ثم قال : إن نبى الله نوحا – عليه السلام – لما حضرته الوفاة قال لابنه : إنى قاصّ عليك وصية .. آمرك باثنتين ، وأنهاك عن اثنتين آمرك بـ « لا إله إلا الله » ؛ فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت فى كفة ، ووضعت « لا إله إلا الله » فى كفة رجحت « لا إله إلا الله » ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كانت حلقة مبهمة ضمتهن « لا إله إلا الله » ، وبـ « سبحان الله وبحمده » ، فإن بها صلاة كل شىء ، وبها يرزق الخلق .. وأنهاك عن الشرك والكبر .

قال : قلت : يا رسول الله ؛ هذا الشرك قد عرفناه ؛ فما الكبر ؟

قال : الكبر سفه الحق وغمط الناس (٧١) .

والله أعلم ..

* * *

(٧١) ذكره ابن كثير في قصص الأنبياء . ورواه مسلم ١ / ٦٥ ، وابو داود : اللباس ٢٦ ، وأحمد ١ / ٣٨٥ ، ٤٢٧ .




حقوق
التوزيع لمؤسسة دار الأهرام
٣
سلسلة
القصص القرآني
هود وصالح
عليهما السلام
دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

قصة
هود
عليه السلام

- تمهيد ..
- نسب «هود» وقومه ..
- أين كانوا يقيمون ؟..
- طغيانهم ..
- رسالة «هود» عليه السلام ..
- نزول الآيات ..
- العذاب الشديد ..
- اللجوء إلى «مكة» ..
- «هود» يعتزل قومه ..
- نجاة «هود» والمؤمنين برسالته ..
- موضع العبرة فى القصة ..

بين يدى القصة :

قال الله – تعالى – :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾[1]

تتضمن هذه الآيات الكريمة قصة « هود » – عليه السلام – مع قومه (عاد) ..

وقد ورد ذكر « هود » فى القرآن الكريم سبع مرات فى ثلاث سور ؛ هى : « الأعراف » و « هود » و « الشعراء »[2].

---

(١) الآيات ٦٥ – ٧٢ من سورة الأعراف .

(٢) انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٧٣٩ .

وسُمِّيت سورة « هود » باسمه خاصة ؛ مع تضمنها أنبياء آخرين ، ويبدو أن ذلك لدلالة معينة فى قصته ..

ولعل هذه الدلالة أن قوم « هود » هم أول من بدّلوا بعد أن طهر الله الأرض من الرجس والشرك ، فأعادوا بذلك بدعة الكفر من جديد .. ولذلك تبعتهم اللعنة ؛ مصداقًا لقوله – تعالى – : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ عادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾[٣].

نسب « هود » – عليه السلام – وقومه :

ذكر بعض العلماء أنه : هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح .. وقالوا : إن « هودا » له اسم آخر ؛ هو : عابر[٤].

وقيل : إن نسبه هو : هود بن عبد الله بن رباح الجارود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح[٥].

أما « عاد » – اسم قومه – فهو : عاد بن عوص المذكور فى النسب السابق ..

وقال صاحب تفسير المنار : أخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن طريق عطاء عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أنه قال : كان « هود » أول من تكلم العربية .

وولد لـ « هود » أربعة ، وهم : قحطان ، ومقحط ، وقاحط ، وفالغ ؛ وهو أبو مضر .

وأخرج من طرق أخرى أن « عادا » كانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله ، واتخذوا أصناماً على مثال « ود » و « سُوَاع » و « يغوث » و « يعوق » و « نسر » ..

---

(٣) الآية ٦٠ من سورة هود .

(٤) قصص الأنبياء لابن كثير .

(٥) تاريخ الطبرى .

فاتخذوا صنماً يقال له : « صَمُود » ، وصنماً آخر يقال له : « الهتّار » .

و « الصمود » من الصمد ؛ الذى يتوجه إليه فى الحاجة .. و « الهتّار » مبالغة من الهتر ؛ يقال : هتره ؛ أى : أخذ بعقله . ويعنون بذلك أن الذى لا يعبده يسلب عقله ورشده .

أين كانوا يقيمون ؟

فبعث الله « هودا » إلى هؤلاء القوم ، وهو من أوسطهم نسباً وحسباً ، وأصبحهم وجهاً . وكان فى مثل هيئاتهم أبيض الوجه ، ظاهر الوضاءة ، طويل اللحية ..

وكانوا يسكنون الأحقاف ، وهى : الرمل ما بين « عمان » إلى « حضرموت » ، مطلة على البحر ، يقال لها : الشَّحْر . واسم واديهم : « مغيث » .

وكانوا يقطنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام .. وقد وصفها الله – تعالى – بقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَادِ ﴾[٦].

أى : عادُ إرم ، وهى : عادٌ الأولى .

وقيل : إن « إرم ذات العماد » هى : عادٌ الأخرى . وهى : عاد شدّاد ولقمان[٧].

و « هود » نبى عربى .. وقد ورد عن النبى – ﷺ – فى حديث أبى ذر الذى أخرجه ابن حبان فى صحيحه وذكر فيه الأنبياء والمرسلين ، قال :

---

(٦) الآيات ٦ – ٨ من سورة الفجر .

(٧) تفسير القرطبى .

« ... منهم أربعة من العرب : هود ، وصالح ، وشعيب ، ونبيُّك يا أبا ذر .. » ..

طغيانهم :

وكان قوم « هود » إلى جانب إشراكهم بالله واتخاذهم الأصنام قد أفسدوا فى الأرض وطغوا وتجبروا ، كما أخبر بذلك القرآن الكريم : ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾(٨)، وقهروا الأرض كلها بقوتهم التى خولها الله لهم ، وهى نعمة استعملوها فى الكفر به سبحانه ..

ذلك أن الله أعطاهم بسطة فى الجسم .. كان طول الرجل منهم مائة ذراع ، وأقصرهم طوله ستون ذراعاً(٩).

ومنحهم أعماراً مديدة .. وكان حق هذه النعمة الشكر وإفراد الله وحده بالعبادة ، واستعمال القوة فيما وضعت له ، ودفع الظلم ، وردّ الشر ، وتعمير الأرض ، ونشر العدل ..

ولكنهم استعملوا هذه النعم فى الشرك والظلم والبطش .. فكان أن أرسل الله إليهم « هودا » يُنْذرهم ويُحَذرهم ..

رسالة « هود » – عليه السلام – :

نزل جبريل – عليه السلام – إلى « هود » . وقال له : إن الله قد بعثك إلى قوم « عاد » فأنذرهم وأعلمهم أنى قد أمهلتهم دهراً طويلاً ، وأعطيتهم من القوة ما لم أعطه لأحد من قبلهم ، وجعلتهم ملوكًا على أسرّة من الذهب ، وجعلتهم من أطول الناس أعمارًا . فامض إليْهم وادعهم إلى التوحيد ؛ ليرجعوا عن عبادة الأوثان ..

---

(٨) الآيتان ١١ – ١٢ من سورة الفجر .

(٩) بدائع الزهور لابن إياس عن وهب بن منبه .

فجاء إليهم « هود » .. وينقل القرآن الكريم إلينا تبليغه لرسالة الله إليهم ، حيث يقول :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(١٠)

لقد ذكرهم بما هم فيه من نعيم يتمثل فيما أقاموه من مبانى عالية فى كل مكان (ريع)(١١) وقصور شاهقة ، وحذرهم عاقبة بغيهم وعدوانهم ، وخوّفهم عذاب الآخرة ، ودعاهم إلى المحافظة على النعمة التى أنعم الله بها عليهم.

ولكنهم قابلوه بكل سوء ، وأغلظوا له فى الجواب .. حيث خاطبوه بقولهم : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ . إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ . وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾(١٢).

كيف يتركون ما وجدوا آباءهم عليه ؟ وكيف يصدقون أن هناك عذابًا ينتظرهم؟!

وأنّى يسمعون وعظًا وقد صموا آذانهم واستكبروا وعتوا عن أمر ربهم؟!

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾(١٣).

---

(١٠) الآيات ١٢٤ – ١٣٥ من سورة الشعراء .

(١١) الريع : الطريق المنفرج والسبيل سلك أم لم يسلك . والمكان المرتفع .

(١٢) الآيات ١٣٦ – ١٣٨ من سورة الشعراء .

(١٣) الآية ١٥ من سورة فصلت .

وكيف يستجيبون لنبيهم « هود » – عليه السلام – وقد أصروا على أن يسيروا سيرة آبائهم فيما ورثوه من عقائد وعادات ؟ !

وحاول تذكيرهم بما حدث لقوم « نوح » – عليه السلام – دون جدوى ..

سخروا منه لأنه رجل مثلهم يزعم أنه رسول من رب العالمين .. فالرسول في نظرهم لا ينبغي أن يكون بشرًا ، بل يجب أن يكون ملكًا .. وهذا هو منطق الكفار في كل زمان ومكان .. ولذلك قال لهم :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ ﴾ ؟ !

ولماذا تعجبون ؟ ! إن العجب – كل العجب – أن يكون الرسول ملكًا .. ،

وهل هناك ملائكة تمشي بين الناس يرونها ويحادثونها .. ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾[١٤] ..

وقد ناقش القرآن الكريم هذه القضية ، وبدد ما حولها من شبهة ، حيث يقول :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[١٥].

ثم ذكرهم « هود » مصير مَنْ كان قبلهم من المكذبين ..

إنهم خلفاء قوم « نوح » .. وماذا حدث لقوم « نوح » ؟

إن حديثهم عبرة لمن يعتبر ، ونهايتهم مُزْدَجَر لمن يزدجر ..

---

(١٤) الآية ٩٥ من سورة الإسراء .

(١٥) الآيتان ٨ – ٩ من سورة الأنعام .

ولكنهم كانوا فى صمم ، بل عادوه وامتهنوه ، وسخروا منه وآذوه .. وقالوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ ﴾[١٦].

واتهموه بأنه أصيب بمسّ من الجنون .. لقد استلبت الآلهة عقله .. أليس من يعادى « هتّارا » يهتره ؟ ![١٧].

وتحدّوه قائلين – بعد أن أنذرهم بعذاب الله – : « فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » ..

نزول الآيات :

وحين يئس «هود » – عليه السلام – من قومه دعا الله عليهم أن يعقم نساءهم ، فلم تحمل امرأة منهن فى هذه السنة .

فشكوا « هودا » إلى ملكهم ، وقالوا : إن « هودا » أعقم نساءنا ، ونخشى أن يكون صادقاً فيما يوعدنا به من عذاب[١٨].

فقال لهم « هود » : هذا إنذار من الله ، وغضب منه عليكم ، فانتبهوا من نومكم ، وتيقظوا لمصيركم ، واتركوا الجدال والخصام فى أصنام اتخذتموها آلهة من دون الله وأطلقتم عليها أسماء ما أنزل الله بها من سلطان ..

ولكنهم لم يزدادوا إلا إعراضًا وعنادًا ، واشتدوا فى إيذائه ، وأمعنوا فى السخرية منه ..

فلما يئس منهم دعا الله عليهم وبرىء من ذنبهم وقال لهم :
﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾[١٩].

---

(١٦) من الآية ٥٣ من سورة هود .
(١٧) أى يأخذ بعقله . و « هتار » هذا أحد معبوداتهم من دون الله ؛ كما قدمناه .
(١٨) بدائع الزهور لابن إياس .
(١٩) من الآية ٥٧ من سورة هود .

العذاب الشديد :

فأمسك الله عنهم القطر سبع سنوات حتى أجدبت الأرض ، وجف الزرع ، وهلك الضرع ، وعزّت الأقوات ..

ولو كان فى عقولهم رُشْدٌ لتابوا إلى الله ، وذهبوا إلى « هود » يؤمنون بدعوته ، ويرجون أن يستغفر لهم الله فيغفر لهم ويرسل السماء عليهم مدرارًا ..

ولكنهم لجأوا إلى آلهتهم ، وانصرفوا إلى ما اعتادوا عليه من ضلال .

اللجوء إلى « مكة » :

وكان من عادتهم إذا انتابهم القحط أن يرسلوا وفدًا منهم إلى « مكة » يدعون الله عند مكان البيت الحرام ، فيسقون فى شهرهم .

فاختاروا منهم سبعين رجلاً تحت إمرة واحد منهم يقال له : « قيل بن عنز بن لقيم » .

وكانت « مكة » – فى ذلك الوقت – يتزعمها رجل يقال له : « معاوية ابن بكر » ، أمُّهُ من قوم « عاد » .

فمر الوفد القادم من « عاد » على معاوية ، فنزلوا عنده ، فأكرمهم وأقاموا عنده شهرًا يشربون الخمر . وله مغنيتان يطلق عليهما الجرادتان ، فكانتا تغنيانهم ..

وكان معاوية قد عرف سبب مجيئهم من أنهم جاءوا يستقون لقومهم ، والأمر يقتضى السرعة ، ولكنهم جاءوا فى شهر ، وأقاموا عنده شهرًا .. وها هم أولاء قد انصرفوا عما جاءوا لأجله إلى اللهو واللذة .. وأخذته الشفقة على قوم أمِّهِ .. واستحيا أن يأمرهم بالانصراف إلى الكعبة طلبًا للسقيا .. فصنع شعرًا وأمر جاريتيه أن تغنيا به .. قال :

ألاَ يا « قَيْلُ » وَيْحَكَ قم فَهيْنم لعل اللَّه يُصْبِحُنَا غَمَامَا
فيسقى أرض «عادٍ» ؛ إن «عادًا» قد امسَوْا لا يبينون الكلاما

من العطش الشديد ، فليس نرجو به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهُمُ بخيرٍ فقد أمست نساؤهُمُ أيامى
وإن الوحشَ يأتيهمْ جِهَارًا ولا يخشى لـ « عاديٍّ » سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم نهاركُمُ وليلكُمُ تماما
فقُبِّح وفدكُمْ من وفد قوم ولا لُقُّوا التحية والسلاما[٢٠]

حين غنّت الجاريتان ذلك انتبهوا لما جاءوا من أجله ، وتوجهوا إلى مكان الكعبة ، وطافوا ودعوا ..

وأرسل الله ثلاث سحابات : بيضاء ، وحمراء ، وسوداء ..

ونادى منادٍ من السماء : اختاروا لأنفسكم ..

فاختار كبيرهم السحابة السوداء ، وهو يظن أنها أملأ السحابات الثلاثة ماء ..

فنودى : اخترت رمادًا رِمْدِدًا ، لا تبقى من « عاد » أحدًا ، لا والدًا ولا ولدًا ، إلا جعلته هَمَدًا ، إلا بنى اللوذية الهُمدا .. وهم بطن من « عاد » كانوا مقيمين بـ « مكة » ..

وسبقت السحابة السوداء تجرى نحو الأحقاف ..

فلما رآها قوم « هود » فرحوا بها واستبشروا قائلين : ﴿ هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾[٢١].. فنودوا من قبل الحق – سبحانه – : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾[٢٢]..

---

(٢٠) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٦١ .
(٢١) من الآية ٢٤ من سورة الأحقاف .
(٢٢) الآيتان ٢٤ – ٢٥ من سورة الأحقاف .

حديث يشير إلى هذه القصة :

ذكر الرواة أن الحارث بن يزيد البكرى قال للنبى - ﷺ - : أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد . فقال النبى - ﷺ - : هيه وما وافد عاد ؟ - وهو أعلم بالحديث - .

قال الحارث : قلت : إن عادًا قحطوا فبعثوا وافدًا لهم يقال له : « قيل » ، فمر بـ « معاوية بن بكر » ، فأقام عنده شهرًا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما : الجرادتان ، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال « تهامة » ، فقال : اللهم إنك تعلم أنى لم أجىء إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه ، اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه .

فمرت به سحابات سود ، فنودى منها : اختر ، فأوما إلى سحابة سوداء ، فنودى منها : خذها رمادًا رمدًا ، لا تبقى من عاد أحدًا .

قال : فما بلغنى أنه بعث عليهم من الريح إلا كقدر ما يجرى فى خاتمى هذا من الريح حتى هلكوا[٢٣] .

« هود » يعتزل قومه :

وأول من أبصر ما فى السحاب وعرف أنها ريح وليست سحابا . امرأة من « عاد » يقال لها : « مهد » . فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت . فلما أفاقت قيل لها : ما رأيت يا « مهد » ؟ قالت : رأيت ريحاً فيها شبه النار ، أمامها رجال يقودونها .

وكان « هود » - عليه السلام - ومن آمن معه قد اعتزل فى حظيرة بعيدًا عن القوم .

---

(٢٣) ورد هذا الخبر فى حديث صحيح ذكره الطبرى وابن كثير . ورواه الترمذى ، وأحمد فى مسنده .

وأقبلت هذه الريح مدمدمة مزمجرة ، تقتلع فى طريقها الأشجار والخيام وتقوض البيوت، وتقذف الأحجار والصخور[٢٤].

وجعلت -كما يقول القرطبى- تحمل الفساطيط[٢٥]، وتحمل الظعينة فترفعها كأنها جرادة ثم تضرب بها الصخور.

وحاول العاديُّون أن يعتصموا ببيوتهم، فدخلوها وأغلقوا أبوابها عليهم، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم..

وقال ابن عباس -رضى الله عنهما-: وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال، فكانوا تحت الرمال سبع ليال وثمانية أيام حسوما، ولهم أنين ، ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال وحملت جثثهم فألقتهم فى البحر .

وقد وصف الله الريح بقوله - سبحانه - : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾[٢٦].

ووصف ما فعلته بهم فى قوله - تعالى - :

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾[٢٧].

ومعنى «حسوما»: متتابعة لا تفتر ولا تنقطع، فحسمتهم وقطعتهم.

وقد ظهر تتابعها فى أنها بدأت مع طلوع الشمس من أول يوم وانقطعت مع غروب الشمس من آخر يوم .

ويقال: إن هذه الأيام سميت بأيام العجوز.. وسبب ذلك أن عجوزًا من قوم «عاد» دخلت سربًا تعتصم به فتبعتها الريح، فقتلتها فى اليوم

---

(٢٤) قصص الأنبياء لابن كثير .

(٢٥) جمع (فسطاط): وهو: البيت من الشعر. انظر: لسان العرب (فسط) جـ ٩ ص ٢٤٦.

(٢٦) الآية ٢٥ من سورة الأحقاف .

(٢٧) الآيات ٦ - ٨ من سورة الحاقة .

الثامن.. وقيل: سميت بذلك؛ لأنها وقعت فى عجز الشتاء فى « آذار »[٢٨].

ووصف القرآن الكريم هذه الأيام بأنها نحسات فى قوله – تعالى – :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾[٢٩].

و «الريح الصرصر»: الباردة الشديدة الصوت والهبوب .. و «الصرة»: الصيحة، فقد وصف الأيام بأنها نحسات؛ أى: مشئومات.

بدأت من يوم الأربعاء إلى الأربعاء ..

وقال ابن عباس : ما عُذّب قوم إلا فى يوم الأربعاء ..

وقيل فى وصفها بأنها متتابعات ، وقيل : باردات ..

ومن الملاحظ أن هذا الوصف نفسه قد جاء فى موضع آخر من القرآن الكريم ؛ حيث يقول الله – سبحانه – :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ . تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾[٣٠].

نجاة « هود » والمؤمنين برسالته :

لقد أهلكت الريح عادًا .. ونجا « هود » – عليه السلام » ومن معه من المؤمنين ..

ولم تُبق الريح من قوم «عاد» إلا من كانوا يستسقون بـ «مكة» لقومهم.. وقد كانوا يقيمون –كما عرفنا– عند معاوية بن بكر..

---

(٢٨) تفسير القرطبى عن وهب بن منبه.

(٢٩) الآية ١٦ من سورة فصلت.

(٣٠) الآيات ١٨ – ٢٠ من سورة القمر.

فأقبل وافد إليهم ، فسألوه عن « عاد » فأخبرهم بهلاكهم جميعًا ..

قالوا له : فأين خلفت « هودا » ؟

قال : خلفته وأصحابه بساحل البحر ..

فشكّوا فيما أخبرهم به .. فقالت هرملة بنت بكر : صدق ورب الكعبة ، ومنور ابن أخى معاوية معهم ..

وقيل لمرثد بن سعد ولقمان بن عاد وقيْل بن عنز ، وهم رؤساء الوفد الذى كان قد ذهب ليستقى لـ « عاد » ، قيل لهم : اختاروا لأنفسكم ..

فقال مرثد : اللهم أعطنى برًا وصدقًا .. فأعطاه الله ذلك .

وقال قيل : أختار ما أصاب قومى .. فهلك كما هلكوا .

وقال لقمان : اللهم أعطنى عمرًا . فأعطاه الله عمر سبعة نسور ، يخلف أحدها الآخر ، وسمى آخر نسر منها « لبدًا » ، فكان أشد محافظة عليه ، وأكثر مخافة عليه من الهلاك . وهلك « لُبَد » ، وهلك لقمان .. وفى ذلك يقول الشاعر :

أضحت قفارًا وأضحى أهلها احتملوا
أخنى عليها الذى أخنى على لُبَد

وبقى « هود » – عليه السلام – ما شاء الله له أن يبقى ، ثم مات وعمره مائة وخمسون عامًا ، ودفن بـ « مكة » – فيما يروى – . وقيل : دفن بـ « حضرموت »[٣١].

موضع العبرة فى قصة « عاد » :

وموضع العبرة فى قصة « عاد » أنهم اغتروا بقوتهم ، وغفلوا عن ذكر ربهم ، فبغوا وعصوا ، واستكبروا وجحدوا أمر ربهم ، واتخذوا آلهة من دونه ..

---

(٣١) قصص الأنبياء للثعلبى .

فكان هذا جزاءهم ..

ثم إنهم حاولوا الاستسقاء كعادة أهل البادية حين يبطىء عليهم المطر ، ولكنه كان استسقاء على غير إيمان .. فضاع الدعاء هباء .. والله لا يتقبل إلا من المتقين .. وهو – سبحانه – يقول : ﴿ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾[٣٢].

والذى بعثوه ليستسقى لهم هو الذى اختار العذاب لهم ، فقد نودى ليختار إحدى السحب ، فاختار ما يظنه نجاة لقومه ، ولكنه كان الهلاك لهم ، فقد أعمى الله بصيرته .. إنه اختار دون أن يفوض الأمر لله ، فوكله الله لنفسه .. ومَنْ وُكِلَ لنفسه فقد خسر وهلك .. وقديمًا قال الحكماء :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهادُهُ

ومن الأدعية المأثورة : « اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك » ..

وكان النبى – ﷺ – يستعيذ من الريح ويستبشر بالرياح .. وما جاءت الريح فى القرآن الكريم إلا للعذاب .. وما جاءت الرياح إلا للخير ..

والله أعلم ..

* * *

(٣٢) من الآية ٥٠ من سورة غافر.

قصة صالح عليه السلام

- تمهيد ..
- من هُم « ثمود » ..
- نسب صالح ..
- استخلاف « ثمود » بعد « عاد » ..
- رسالة صالح إليهم ..
- الآية التي طلبوها من صالح ..
- استجابة الله لدعوته ..
- صراع بين الحق والباطل ..
- الناقة ..
- عقرها ..
- عدوان ثمود ..
- وَحَقَّ وَعيد الله ..
- مرور النبي - صلى الله عليه وسلم - بـ « الحجر » ..



تمهيد :

قال الله – تعالى – :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾(١)

قصت هذه الآيات الكريمة بأسلوبها المعجز قصة نبي الله « صالح » – عليه السلام – مع قومه « ثمود » .

وإليك – أيها القارىء الكريم – ما قاله العلماء ورواة الأخبار حول تفصيل هذه القصة ..

---

(١) الآيات ٧٣ – ٧٩ من سورة الأعراف .

مَن هم « ثمود » ؟

« ثمود » قبيلة من العرب ، سميت باسم جدهم : ثمود بن عامر بن إرم ابن سام بن نوح .. ويرى بعض أهل اللغة أنهم سموا بذلك ؛ لقلة مائهم ، فـ « الثمد » ؛ هو : الماء القليل .

وكانت مساكنهم « الحِجْر » ، مكان بين « الحجاز » و « الشام » إلى وادى القرى . وهى معروفة إلى الآن . وقد سميت سورة فى القرآن الكريم بهذا الاسم .

وورد ذكر « ثمود » فى القرآن الكريم ستًا وعشرين مرة(٢).

نسب « صالح » :

أما نبيهم « صالح » – عليه السلام – فهو : صالح بن عبيد بن أسيف ابن ماشخ بن عبيد بن حازر بن ثمود .. ذكر ذلك الحافظ البغوى .

وزاد فى فتح البارى بعد « ثمود » : ابن عابر بن آدم بن سام بن نوح(٣).

وورد ذكر « صالح » فى القرآن الكريم تسع مرات(٤).

استخلاف « ثمود » بعد « عاد » :

ذكر رواة الأخبار والمفسرون أن « عادًا » بعد أن هلكت جاءت بعدهم « ثمود » وعمرت مساكنهم وأقامت فيها . وازداد أهل « ثمود » فى العمران ،

---

(٢) وذلك فى سور : (الأعراف) و (التوبة) و (هود) و (إبراهيم) و (الإسراء) و (الحج) و (الفرقان) و (الشعراء) و (النمل) و (العنكبوت) و (ص) و (غافر) و (فصلت) و (ق) و (الذاريات) و (النجم) و (القمر) و (الحاقة) و (البروج) و (الفجر) و (الشمس) .. انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ١٦٠ .

(٣) تفسير المنار جـ ٨ ص ٤٤٦ .

(٤) وذلك فى اربع سور ؛ هى : (الأعراف) و (هود) و (الشعراء) و (النمل) .. انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٤١٠ – ٤١١ .

وشيدوا ما لم يشيد من قبل ؛ واتخذوا من الجبال بيوتًا ، فكانوا ينحتون الصخور ويجوفونها ويجعلونها مساكن ، إلى جانب ما أقاموه فى السهول من قصور شامخة وصروح عالية .

رسالة « صالح » إليهم :

وكان « صالح » من أوسط قومه حسبًا وأشرفهم نسبًا ..

فلما رأى الله ما عليه « ثمود » من البغى والطغيان والشرك اختار « صالحًا » رسولاً إلى قومه ، يدعوهم إلى التوحيد ، ويحثهم على الفضائل ..

لقد قلّد أهل « ثمود » من كان قبلهم فى عبادة الأصنام .

وكان لهم عيد يحتفلون فيه بأصنامهم ؛ يخرجون إليها ، ويقدمون لها القرابين ..

الآية التى طلبوها من « صالح » :

فلما دعاهم « صالح » – عليه السلام – إلى الله ، وحثهم على ترك عبادة الأصنام قالوا له : يا « صالح » ، لا نؤمن لك بدون آية تثبت صدقك وتؤيد دعوتك .

فقال لهم : أية آية تريدون ؟

قالوا : تخرج معنا إلى عيدنا فندعو آلهتنا ، وتدعو إلهك . فإن استجاب لك إلهك صدقناك وآمنا بك .. وإن استجابت لنا آلهتنا تركناك وكذبناك ..

فأجابهم « صالح » لذلك وخرج معهم ..

فطافوا بأوثانهم ، وتقربوا إليها ، وصلوا لها ، ودعوا عندها ألا يستجاب لـ « صالح » فيما يدعو به ..

وبعد أن فرغوا من دعائهم لآلهتهم قالوا له فى تحدّ واضح : هيا يا « صالح » فادع ربك ..

اطلب من ربك أن يخرج لنا من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة منفردة عن الجبال فى ناحية « الحجر » - ناقة مخترجة جوفاء وَبْراء عشراء[٥]. فإن فعلت ذلك - يا « صالح » - وجاءت الناقة آمنا بك وصدقناك .

فأخذ عليهم « صالح » - عليه السلام - العهد والميثاق بذلك .

استجابة الله لدعوته :

وأقبل « صالح » على ربه يدعوه ويبتهل إليه ، فإذا بالصخرة المشار إليها تتمخَّضُ عن ناقة جمعت تلك الأوصاف التى طلبوها ..

ثم تنجب فصيلاً يشبهها فى العِظَم ..

حين رأى القوم هذه الآية ماثلة أمامهم أخذهم العجب واستولى على ألبابهم الدهش ، وأصاب كثيرًا منهم الذهول .. ولكنهم لم يحيروا جوابًا أمام هذه المعجزة الخارقة .

فآمن بعض القوم ..

وأراد الباقون أن يؤمنوا .. ولكن حال دونهم كبراؤهم الذين جرت العادة أن يصدوا الناس عن الحق ، ويقفوا فى طريق الهداة والمصلحين .. لأن فى الدعوة الجديدة خطرًا يهدد مصالحهم ، أو يقضى على نفوذهم ، أو يحول بينهم وبين ما يجنون من منافع واستغلال ..

لقد كان هؤلاء الكبراء يتولون أمر الأوثان والأنصاب وهى طريق الثراء الذى يتقلبون فيه ، والنفوذ الذى يتمتعون به ، ويتحكمون من خلاله فى رقاب العباد .

---

(٥) المخترجة : ما شاكلت البخت من الإبل . والجوفاء : العظيمة . والوبراء : كثيرة الوبر . والعشراء : التى مضى على حملها عشرة أشهر .

وهكذا فى كل زمان ومكان نرى هذه الطائفة المستغلة المتسلطة تزيّف الباطل وتزينه ، وتسفه الحق وتوهنه ، وتضع العراقيل فى طريق الصواب ، وتملأ الأرض أمام المصلحين بالأشواك والحراب ..

حاول هؤلاء الكبراء صرف الذين آمنوا بـ « صالح » عن إيمانهم ، فأقبلوا عليهم يجادلونهم ويهددونهم بدون جدوى .

صراع بين الحق والباطل :

بدأ الصراع بين الحق والباطل بالجدال ..

قال الذين استكبروا للمؤمنين :

« أتعلمون أن صالحًا مُرْسَل من ربّه ؟ » ..

وهم يريدون بذلك أن يزرعوا الشك فى نفوسهم ، وأن يزعزعوا إيمانهم ..

ولكن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب تمكن واستحكم ، فلا يستطيع أحد أن ينتزعه ، ولا يقوى باطل على زعزعته ..

فأجاب هؤلاء المؤمنون بكل ثقة :

إنا بالذى جاء به « صالح » مؤمنون ومصدقون ..

عند ذلك لم يجد هؤلاء المستكبرون بُدًّا أمام هذا الإصرار من جانب المؤمنين إلا أن يُصروا هم على كفرهم وعنادهم .. فقالوا :

« إنا بالذى آمنتم به كافرون » ..

وحين يئس هؤلاء المعاندون من المؤمنين بـ « صالح » اتجهوا صوب « صالح » نفسه ، يجادلونه ويناقشونه ؛ علهم يستطيعون حمله على أن يترك دعواه ، أو يعدل عن موقفه ..

واستعملوا معه أسلوب الإغراء يستميلونه به ..

قالوا له : إنا ندّخرك للماتنا ، ونلجأ إليك فى شدائدنا ، ونُعِدُّك لأن تكون السيد المطاع والقائد الشجاع ، فإذا بك تخرج علينا بأمر غريب ، ودعوة لا تلتقى معها آراؤنا ولا تستقيم عليها أفكارنا ، ولا تتفق مع ما ورثناه من آبائنا وأجدادنا ، فكيف نقلدك السيادة فينا بعد ذلك ؟ !

وهذا ما حكاه القرآن الكريم فى قوله - تعالى - :

﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾[6].

ولكنه يرد عليهم فى ثقة بالغة ويقين صادق فيقول :

﴿ .. يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾[7].

لا يا قوم .. ليس الأمر كما تظنون ، ولم آتكم بشىء غريب ، بل هو الحق الذى أدعوكم إليه ، وإنى لعلى ثقة مما أقول ، يؤيدنى فيه منطق سليم ، ويأمرنى به رب حكيم ، هو خالق كل شىء ، وبيده ملكوت كل شىء ، وقد آتانى النبوة والرسالة ، وذلك تفويض منه - سبحانه - بأن أخاطبكم بما أدعوكم إليه ، ولا ناصر لى دونه إن أنا فرطت فيما كلفنى إياه وأمرنى به ، ولن أكتسب بهذا التفريط غير الخسران والخذلان ..

ثم انظروا - يا قوم - إلى هذه الآية التى جئتكم بها ، وهى ما طلبتموه منى .. لقد أيد الله قولى باستجابته لما دعوت .

أفلا تصلح هذه الآية دليلاً على صدق قولى وشاهدًا على حقيقة ما أدعوكم إليه ؟ !

---

(٦) الآية ٦٢ من سورة هود .
(٧) من الآية ٦٣ من سورة هود .

واشتد غيظ هؤلاء المعاندين ، وأدركوا أن تلك الآية التى جاء بها « صالح » - وهى الناقة - مَثَل محسوس شاهدٌ على صدقه ، ودليل ملموس على دعواه ..

فكيف يُبطلون هذه الدعوة ؟ وكيف يطمسون هذا المثل ؟

الناقـة :

سبق أن أشرنا إلى أن الناقة كانت معجزة لـ « صالح » - عليه السلام - تحداه قومه أن يأتى بها ، فجاء بها كما طلبوا ، وبالأوصاف التى وصفوا ..

اشترط « صالح » عليهم أن يتركوا للناقة بئرًا كانوا يستقون منها فيما يستقون من آبار ، يتركونها يومًا للناقة ويومًا لهم .. فى يومها تشرب منها وحدها هى وفصيلها ، ويأخذون نصيبهم من الماء فى يوم آخر ..

﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾[8].

فإذا كان يومها تغدو إلى البئر وتضع رأسها فيها .. وكان الماء يرتفع إليها ، فما تترك البئر حتى يفرغ الماء ، وكانت هذه البئر يطلق عليها بئر الناقة ، ثم تروح إليهم فيحلبون من لبنها ما شاءوا ، فيشربون ويملئون أوانيهم ويدخرون ..

وكانت حين تعود من البئر تعود من طريق آخر غير الذى وردت منه ؛ لأن طريق الورود ضيق لا يتسع لها بعد صدورها وقد امتلأ بطنها من الماء[9].

فكانت عادة قوم « صالح » أن يشربوا فى يومهم الماء ، وفى يوم الناقة اللبن الذى يأخذونه منها ..

---

(٨) من الآية ١٥٥ من سورة الشعراء .

(٩) الثعلبى .

وكان في إمكانهم أن يستغنوا بذلك عن الماء ، فلا شيء أروى من اللبن ولا أطيب ..

وقد ورد أن النبي - ﷺ - كان إذا تناول طعامًا أو ذاق ذواقًا ؛ قال : الحمد لله ، اللهم بارك لنا فيه وارزقنا خيرًا منه .. ما عدا اللبن فإنه كان يقول بعد تناوله : الحمد لله ، اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ..

وفي ذلك إشارة إلى فضله وغنائه ، فهو يغني عن غيره ، ولا يغني غيره عنه ..

لقد تفضل الله عليهم بذلك ، وكان من واجبهم الشكر على هذه النعمة ، ولكنهم جحدوها وملّوها .

وإذا ملّ الإنسان النعمة جحدها ، ومتى جحدها فقد عرَّضها للزوال وقد قال الحكماء : من شكر النعمة فقد قيدها بعقالها ، ومن جحدها فقد عرضها لزوالها ..

عقرها :

أصبحت هذه الناقة شجًا في حلوق المعاندين ، وأجمعوا على التخلص منها ، وأخذوا يتلمسون الأسباب لذلك ..

من هذه الأسباب - في زعمهم - : أن الناقة تنفرد وحدها يومًا بالبئر ، فلا يستطيع أحد أن يقترب من البئر في يومها ..

وأنها إذا كان الحر خرجت إلى ظهر الوادي فتهرب منها أغنامهم وأبقارهم وإبلهم نظرًا لعظم خلقها ..

وإذا نزلت إلى بطن الوادي نفرت كذلك الماشية منها ..

ولكن هذه الأسباب ليست وحدها كافية في التعرض لهذه الناقة التي أصبح لها شأن بينهم ..

ولا شك أن الناقة قد أحاطت بها هالة من التوجس تحول دون الاقتراب منها ..

إن عقر الناقة يحتاج إلى بواعث يهون معها تخطى الصعاب واقتحام العقبات ..

وتهيأت هذه البواعث حين تدخلت المرأة فى هذا الشأن ..

كانت هناك عجوز اسمها « عنيزة » لها بنات حسان ومال وماشية كثيرة .

وكانت امرأة أخرى اسمها « صدوق » جمعت بين الجمال والغنى ..

وكانت هاتان المرأتان من أشد أعداء « صالح » – عليه السلام – .

فالأولى عادته ؛ لأن الناقة ضايقت ماشيتها .. والثانية عادته لذلك ؛ ولسبب آخر ؛ هو : أن زوجها كان من المؤمنين بـ « صالح » وفوضته فى مالها ، فأنفقه فى الدعوة لدين « صالح » ..

وإذا كرهت المرأة استعملت سلاحها فى المكر والخديعة .. وهو أمضى سلاح ..

فدعت « عنيزة » رجلاً يقال له : « قدار بن سالف » ، وهو من سفهاء قومه ، وأغرته ببناتها إن هو عقر الناقة .

ودعت « صدوق » رجلاً من بنى عمها اسمه : « مصدع بن مهرج » ، وهو شاب مسرف مستهتر ، وعرضت عليه مالها ونفسها إن هو عقر الناقة ..

وفعل الإغراء فعله فى نفس الشابين .. وصادف هوى منهما حيث إنهما لم يكونا ممن يقبل دعوة « صالح » ..

واستعان الرجلان بمن استعانا ، فوافقهما على ذلك سبعة نفر ، فهذا هو قوله – تعالى – :

﴿ وَكَانَ فِى الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾[10].

---

(١٠) الآية ٤٨ من سورة النمل.

واتفق هؤلاء جميعًا ، وتعاهدوا على عقر الناقة ..

وثَمَّ دافع آخر تعرض له بعض المفسرين ..

قالوا : أوحى الله إلى « صالح » أن قومه سوف يعقرون الناقة ، فأخبر قومه بذلك .. فقالوا : ما كان لنا أن نفعل ذلك ..

فقال لهم : إنه سيولد في شهركم هذا غلام يكون هو الذى يعقر الناقة ويكون هلاككم على يديه ..

فخافوا أن يكون ذلك واقعًا فعلاً .. وقالوا : لا يولد في هذا الشهر ولد إلا قتلناه .. فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر فذبحوا أبناءهم .. ثم ولد العاشر فأبى أبوه أن يذبحه .. وكان لا يولد له .

وكان هذا العاشر أزرق أحمر ، فنبت نباتًا سريعًا ، فكان إذا مر بالتسعة قالوا : لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا ..

فحنقوا على « صالح » ؛ لأنه كان سببًا في قتلهم أولادهم ، فتقاسموا أن يقتلوا « صالحًا » .. وقالوا : « لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ » ..

وكان « صالح » - عليه السلام - إذا أمسى يلجأ إلى مكان للعبادة كان قد بناه خارج القرية يتعبد فيه ويبيت فيه .. فاتفقوا على أن يظهروا أنهم خارجون إلى سفر ثم يكمنوا لـ « صالح » في هذا المكان فيقتلوه .. ثم يقولون لوليه : ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾[11]..

ودخلوا غارًا يكمنون فيه فسقط عليهم الغار فقتلهم ..

فرأى ذلك ناس ممن اطلع على أمرهم فصاحوا في القرية : مارضى « صالح » بقتل أولادهم حتى قتلهم[12].

عند ذلك أجمع أهل القرية على قتل الناقة ..

---

(١١) من الآية ٤٩ من سورة النمل.

(١٢) تفسير القرطبى.

وانطلق « قدار » و « مصدع » ومن معهما ، فرصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء ، فكمن لها « قدار » فى أصل شجرة على الطريق ، وكمن « مصدع » فى أصل شجرة أخرى .. فلما مرت على « مصدع » رماها بسهم فانتظم عضلة ساقيها .

ورغت الناقة فسمعتها « عنيزة » ، فخرجت فرأتها مصابة ولم تُعْقر .. فأمرت ابنتها أن تتراءى فى زينتها لـ « قدار » وحرضته على عقرها فشد عليها بالسيف ، فكشف عرقوبها ، فأرداها ، وطعن فى لبتها فنحرها ..

وحين سمع فصيلها رغاءها ورأى ما أصابها انطلق حتى أتى جبلاً منيعًا فارتقى فيه قبل أن يدركوه ..

وربما لو كانوا أدركوه ولم يعقروه لما وقع عليهم العذاب .. كما ورد ذلك فى حديث رواه شهر بن حوشب عن عمر بن خارجة ؛ قال : .. فأُتِى « صالح » – عليه السلام – فقيل له : أدرك ناقتك فقد عقرت ، فأقبل وخرجوا يتلقونه ويعتذرون إليه ويقولون له :

يا نبى الله ؛ إنما عقرها فلان ولا ذنب لنا ، فقال لهم « صالح » : انظروا هل تدركون فصيلها ؟ فإن أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب ، فخرجوا يطلبونه ، فلما رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه ، فأوحى الله إلى الجبل ، فتطاول فى السماء حتى ما تناله الطير ..

وجاء « صالح » – عليه السلام – فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ، ثم رغا ثلاثًا وانفجرت الصخرة فدخلها .. فقال « صالح » – عليه السلام – : لكل أمة أجل .. ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾[13].

عدوان « ثمود » :

لقد اعتدى أهل « ثمود » على الناقة التى أرسلها الله لهم آية ونعمة ..

---

(١٣) من الآية ٦٥ من سورة هود . وانظر هذا الخبر فى قصص الأنبياء للثعلبى .

وتعللوا فى عقرها بعلل كاذبة لا ظل لها من الحقيقة ، فدعواهم أنها كانت تحتكر الماء يومًا فلا يشربون ولا يسقون زرعهم وماشيتهم منقوضة بأنه كانت لهم مياه غير هذه البئر .. بدليل قوله – تعالى – : ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَٰهُنَا آمِنِينَ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾[١٤].

ففى ذلك دلالة واضحة على أنه كانت لهم أكثر من عين ..

وأن التخصيص للناقة كان فى بئر بعينها لا فى كل الآبار ..

ودعواهم بأن الناقة كانت تُضيق عليهم فى زراعاتهم ، وقد تعتدى على ثمارهم منقوضة ، فإن الناقة كانت ترعى فى أرض الله ، بدليل قوله – تعالى – : ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾[١٥].

فإضافة الأرض إلى الله يفهم منها أنها كانت ترعى فى الأماكن التى يرعى فيها عادة دون ما يزرعه الناس ويحمونه لأنفسهم .

وحق وعيد الله :

كان « صالح » قد أنذرهم بأنه سيجىء أول يوم ووجوههم مصفرة ، وثانى يوم ووجوههم محمرة ، وثالث يوم ووجوههم مسودة .

وصدق « صالح » – عليه السلام – .

وظهرت هذه العلامات .. وهموا أن يبطشوا به ، ولكن الله أنجاه ..

وأخذتهم الرجفة المصحوبة بالصيحة ، وهى الصاعقة ..

لقد كان العذاب بالنسبة لهم شديدًا جمع صنوفًا من التنكيل ..

---

(١٤) الآيات ١٤٦ – ١٤٨ من سورة الشعراء .

(١٥) من الآية ٦٤ من سورة هود .

صاح بهم جبريل صيحة شديدة رجفت منها قلوبهم ، أو رجفت بهم الأرض وزلزلت زلزالاً شديدًا .. وأصابتهم صاعقة العذاب الهون .. وهم ينظرون بعيونهم هذا المصير المشئوم الذى صاروا إليه ..

وانطوت صفحة قوم آخرين .. أراد الله أن يعزهم فأذلوا أنفسهم ..

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[١٦]..

أورثهم ديار قوم سابقين ليعتبروا بمصيرهم ، فكانوا سواء فى الإعراض والجحود والنكران .. وحاق بهم ما حاق بسلفهم من قوم « عاد » ..

أما « صالح » – عليه السلام – فقد تولى عنهم ، وقال : ﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾[١٧].

قيل : إن « صالحًا » بعد أن حاق العذاب بقومه خرج هو ومن آمن معه حتى أتوا رملة « فلسطين » وأقاموا فيها ..

وقيل : إنه توفى بـ « مكة » وهو ابن ثمان وخمسين سنة بعد انتقاله من « الشام » إليها .. وظل يعبد الله بها حتى مات .. وكان قد أقام فى قومه عشرين سنة ..

وقيل : إنه ذهب إلى « حضر موت » ؛ لأن أصلهم من تلك الناحية ، وهو الأقرب إلى الصواب[١٨].

مرور النبى – صلى الله عليه وسلم – : بـ « الحجر » :

روى الإمام أحمد فى مسنده قال : لما نزل النبى – ﷺ – بالناس من « تبوك » نزل بهم « الحِجْر » عند بيوت « ثمود » ، فاستقى الناس من الآبار

---

(١٦) الآية ١٧ من سورة فصلت.

(١٧) من الآية ٧٩ من سورة الأعراف.

(١٨) الثعلبى ص ٧١.

التى كانت تشرب منها « ثمود » ، فعجنوا منها ، ونصبوا القدور ، فأمرهم رسول الله - ﷺ - فأهرقوا القدور ، وعلفوا العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ، فنهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذِّبوا ، فقال : إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم .

وفى رواية : لا تدخلوا على هؤلاء المعذَّبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم .

وهذا موطن للعبرة والعظة فى القصة ..

أى : الاعتبار بحال ما أصاب المشركين من عذاب حتى يتحاشى الناس ما فعلوه ، ويقبلوا على الله بيقين وإخلاص ، ويعبدوه حق عبادته .. ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[١٩].

(١٩) من الآية ١١٠ من سورة الكهف.

ابـراهـيم عليه السلام

- نسـبه ومولـده .
- بطـش النمـروذ .
- ارهاصات النبوة فى نفسه .
- فى طريقه لهداية قومه .
- تبييت ابراهيم الشر للأصنام .
- ابراهيم يكسر الأصنام .
- محـاكمة ابـراهيم .
- القـاءه فى النـار .
- هـلاك النمـروذ .
- ابـراهيم فى حـران



مقدمة :

أراد الله لمنطقتنا العربية أن تكون أرض خير وبركة ، وقد حباها الله – تعالى – بمآثر عظيمة ، ومزايا جسيمة ، وقال فى حق الأمة التى نشأت عليها : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1].

ومن أعظم مزايا هذه المنطقة أنها مهد الرسالات السماوية ، ومبعث الديانات الصحيحة ، اختار الله من أبنائها الأنبياء والمرسلين الذين ساروا على أرضها المباركة يبشرون بدين الله ، وينشرون الهدى والنور ، ويرفعون لواء العدل والتوحيد والمساواة بين الناس ، ويحضون على مكارم الأخلاق ..

وهذه المنطقة تشمل الحجاز والشام والعراق واليمن ومصر وغيرها ، وهى تمتد – بلغة العصر الحاضر – من المحيط إلى الخليج .

وحدودها من الشمال : البحر المتوسط وجبال طوروس .
ومن الجنوب : البحر العربى والمحيط الهندى والصحراء الكبرى .
ومن الشرق : جبال زاجروس وكردستان .
ومن الغرب : المحيط الأطلنطى .

فى هذه المنطقة بعث نوح ، ومن بعده هود وصالح وغيرهما من الأنبياء والمرسلين ، الذين أرسلوا إلى أقوامهم ليهدوهم إلى سواء السبيل .

فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، فنجى الله المؤمنين من العذاب الذى أهلك به الكافرين .

---

(١) البقرة ١٤٣ .

وقد أشار الحق - سبحانه وتعالى - إلى ذلك بقوله : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا . وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾[٢].

وفي هذه المنطقة بعث الله إبراهيم - عليه السلام - .

وتنقل بدعوته بين أقطار متعددة . بين العراق والشام ومصر ، وأسكن الحجاز من أولاده من يبلغ دعوته إلى أهلها وإلى من جاورهم في اليمن .

وكأن الله قد أراد أن يهيىء لعمومية رسالة نبينا محمد - ﷺ - برسالة أبيه إبراهيم - عليه السلام - ، فقد كان الرسل يبعثون في خاصة قومهم ، فآدم قد بعث لأهله الذين تناسلوا منه ، وتبعه ابنه « شيث » فإدريس ، وجاء بعده نوح الذى مكث في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، فلما لم يستجيبوا أغرق الله الأرض بالطوفان ، ولم ينج من الغرق إلا من قد آمن .

ونشأت ذرية صالحة إلى حين ، سارت على الجادة حتى غيرت وبدلت ، فجاء إليهم هود ، فلما لم يؤمنوا به هلكوا .

وبقي المؤمنون الذين تناسلت منهم طائفة سارت على الطريق حتى فسد من جاء بعدها ، فأرسل الله إليهم صالحًا ، فلما كذبوا به أهلكهم الله .

ومرت بعد ذلك قرون كثيرة قدرها العلماء بعد الطوفان بألف ومائتين وثلاث وستين سنة حتى جاء إبراهيم[٣].

بعث الله إبراهيم لتتسع رسالته أكثر فتشمل أقوامًا عدة ، وتنخرق قاعدة الخصوصية في الرسالة بعض الشيء . ثم تعود فيمن جاء بعده من الرسل من أبنائه وأحفاده . ثم تتسع على مصاريعها بمحمد - ﷺ - خاتم الأنبياء

---

(٢) الفرقان ٣٧ ، ٣٨ .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية مادة إبراهيم .

والمرسلين الذى أرسله الله للناس كافة بشيرًا ونذيرًا ، ونزل فى حقه ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[٤].

نسبه ومولده :

وإبراهيم – عليه السلام – هو إبراهام المذكور فى التوراة .

وأبوه تارح – بالحاء المهملة أو المعجمة – بن ناحور بن ساروغ بن أرغو ابن فالغ بن عابر بن شالح بن قينان بن أرفخشذ بن سام بن نوح – عليه السلام – .

هى سلالة أنبياء وصديقين .

وأمه اسمها « ليوثا »[٥]، وقيل : اسمها « أميلة » ، وقيل : « بونا » بنت كربتا بن كرثى من بنى أرفخشذ بن سام بن نوح[٦].

فهناك قرابة بين الأبوين .

وكنيته : أبو الضيفان ، ولقبه الخليل .

وقد ولد ولأبيه من العمر خمس وسبعون سنة ، ولإبراهيم أخوان هما : ناحور ، وهاران ، وإبراهيم هو الأوسط بين أخويه .

وقد ورد ذكر اسم أبيه فى القرآن الكريم على أنه « آزر » فى قوله – تعالى – : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾[٧].

وحاول بعض المستشرقين تعليل التناقض الظاهر بين الاسم الوارد فى التوراة والاسم الوارد فى القرآن بأن آزر هو تحريف لكلمة « اليعازر » وهو خادمه .

---

(٤) الأعراف ١٥٨ .

(٥) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ص ٧٧ .

(٦) قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٣٠ .

(٧) الأنعام ٧٤ .

ولكن فات هؤلاء أن الأب عند العرب قد يطلق على الجد وعلى العم فلا يبعد أن يكون آزر هذا عمًا لإبراهيم .

وربما كان هذا الاسم ورد في معرض الذم ، وهو وصف جرى مجرى العلم ومعناه بالعبرية : المخطىء أو المعوج أو الخرف .

ويقرب من هذا - ولعله الصحيح - جعله اسمًا للخادم وسمى به أبوه لأنه كان خادمًا للأصنام[٨].

وذكر الثعلبي وغيره أن اسمه الحقيقى تارخ ، وكان يعمل مع النمروذ قيِّمًا على خزائن آلهته ، فسماه آزر على اسم صنم كان لهم .

وذكر الإمام البيضاوى أن تارخ هو الاسم العلم لوالد إبراهيم وأن آزر وصف له[٩].

وإذا صح ذلك فإن آزر يكون معناه القوى أو الناصر أو المعين .. لأن لفظ آزر من الأزر أى القوة والعون ومنه الوزير أى المعين[١٠].. وربما كان هذا التعليل هو الأنسب ، لأن إبراهيم - عليه السلام - كان حريصًا على ألا يواجه أباه بكلمات فيها تحقيرٌ أو عَيْبٌ أو زجر كأعوج أو مخطىء أو خرف . وكان مؤدبًا جدًا مع أبيه بارًّا به على الرغم من كفره وغلظته مع إبراهيم.

ولماذا لا يكون آزر اسمًا آخر لتارح ، كما سمى يعقوب بإسرائيل ؟

وقد ولد إبراهيم فى عصر النمروذ ملك بابل .

واختلف فى مكان ولادته ، فقيل ولد فى « حران » وقيل ولد فى غوطة دمشق فى بلدة يقال لها برزة فى جبل قاسيون ثم انتقل به أبوه إلى بابل .

وقيل وهو الأصح : ولد فى بابل ..

---

(٨) تعليق على مادة إبراهيم فى دائرة المعارف الإسلامية للشيخ يوسف الدجوى .

(٩) تفسير البيضاوى (تفسير الأنعام) .

(١٠) تاج العروس للزبيدى .

وبابل هذه مدينة على شاطىء الفرات ، ولها تاريخ عريق منذ القدم حتى لقد قيل فى بعض الآراء : إن آدم سكن بها بعد هبوطه من الجنة . ولكن الأشهر على ما مر فى قصة آدم أنه نزل بالهند .

ويقال : إن بابل هى ثانى مدينة فى العالم بنيت بعد حران .

وهناك تعليل طريف فى تسميتها بهذا الاسم ، وهو أن أبناء نوح تفرقوا فى الأرض بعد الطوفان بعد أن اجتمعوا فى هذه المدينة وقد تبلبلت ألسنتهم فيها[11].

وقد دمرت هذه المدينة بطول العهد ، وأطلالها على بعد ٥٤ ميلاً جنوبى بغداد ، وحل محلها قرية صغيرة تحمل نفس الاسم .

أما النمروذ الذى ولد إبراهيم فى عصره فقد كان ملكًا جبارًا ، وصل ملكه إلى غاية ما يسكن من المعمورة . وقد ورد فى ذلك أثر :

« ملك الأرض أربعة مؤمنان وكافران ، فأما المؤمنان فسليمان بن داود وذو القرنين - عليهما السلام - وأما الكافران فنمروذ وبختنصر »[12].

قال عنه الرواة : إنه أول من وضع التاج على رأسه وتجبر فى الأرض ودعا الناس إلى عبادته .

وكان له كهان ومنجمون .

وقد صاغت الأخبار حوله بعض الأساطير .

قالوا : إن النمروذ أبوه كنعان بن سنحاريب بن نوش بن حام . وكان كنعان قوى البطش جبارًا مولعًا بالصيد ، بلغ من قوته أنه إذا صاح بالسباع والوحش انشقت مرائرها من شدة صيحته .

---

(١١) دائرة المعارف الاسلامية .

(١٢) قصص الأنبياء لابن كثير عن مجاهد ص ١٤٤ .

وتزوج امرأة فحملت بالنمروذ . فلما استوفت حملها ولدته . فنظر إليه أبوه فقال : هذا ولد مشئوم فاقتليه أو اطرحيه فى الفلاة ليموت . ولم تملك المرأة أمام جبروت زوجها رأيا .

فأخذته أمه وطرحته فى الفلاة بين بقر ترعى ، فنفر كل البقر عنه ، وكلما أبصره وحش فر منه .

فجاءت إليه أمه بعد ذلك فحملته ورمته فى نهر ، وظنت أنه قد غرق ، فأخرجه الماء إلى البر سالمًا .

وائتلفت به نمرة أخذت ترضعه فرآها أهل قرية فحملوه وربوه وسموه « النمروذ » - وهذا تكلف فى التسمية - .

فلما شب جعل يقطع الطريق ، واجتمع حوله خلق كثير .

فبلغ خبره إلى أبيه كنعان - وهو لا يعرفه - فجمع عليه الجيوش ، وسار كنعان بمن معه حتى أدرك النمروذ .

فلما أبصر النمروذ الجيوش القادمة حمل عليها بمن معه فهزمها ، وقتل أباه واستولى على ملكه .

وسار يغزو الملوك ويظفر بهم حتى ملك شرق الأرض وغربها(١٣).

وهذه مبالغة تصور قوة النمروذ ، وتصور وصوله إلى الملك بطريقة بطولية . مع أن الملك كان سيصل إليه عن طريق الوراثة الطبيعية ، ولكن خيال القصاص له شأن آخر .

بطش النمروذ :

وكان النمروذ يعبد الأصنام ، ثم دعا إلى عبادة نفسه ..

وأخبره كهانه أنه سيولد غلام يكون تقويض ملكه على يده .

---

(١٣) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ص ٧٧ .

فهاله ذلك وأزعجه .

وقيل : إنه رأى فى منامه كأن كوكبًا طلع فذهب بضوء الشمس والقمر ، حتى لم يبق لهما ضوء ، ففزع من ذلك فزعًا شديدًا ، ودعا السحرة والكهنة وكل من لديه خبرة بتأويل الأحلام ، وسألهم عن ذلك فقالوا له : هو مولود يولد فى ناحيتك من هذه السنة ، يكون هلاكك وهلاك أهل بيتك على يديه .

عند ذلك أمر النمروذ بذبح كل غلام يولد فى تلك الناحية فى تلك السنة .

وأمر كذلك بعزل الرجال عن النساء .

وجعل على كل عشرة رقيبًا أمينًا يحصى على الناس تحركاتهم ويراقب أفعالهم . فإذا حاضت المرأة خلى بينها وبين زوجها إذا أمن المواقعة . وإذا طهرت عزل زوجها عنها .

وقد أصاب الناس عنت شديد بسبب ذلك .

ورجع أبو إبراهيم يومًا – وكان غير مراقب – فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فوقع عليها فى طهرها فحملت بإبراهيم – عليه السلام – .

وهكذا إذا أراد الله شيئًا قضاه . لا يحول دون ذلك مانع أو مراقب .

وقالوا : بعث نمروذ إلى كل امرأة حبلى بقريته فحبسها عن زوجها إلا ما كان من أم إبراهيم ، فإنه لم يعلم بحبلها ، وذلك أنها كانت جارية حديثة السن لم تعرف الحبل ، ولم يظهر الحمل فى بطنها بقدرة الله جلت حكمته .

وحين ظهر الحمل خشى عليها آزر من الذبح ، فانطلق بها إلى أرض بين موقع الكوفة والبصرة يقال لها « وركاء » فأنزلها فى سرب من الأرض ، ووضع عندها ما يصلحها .

وأخذ الزوج يتعهدها بين الحين والحين ، وكتم خبرها عن الناس أجمعين ، حتى وضعت إبراهيم .

وتعهد الله إبراهيم ، فجعل يشب بسرعة غريبة ، حتى أصبح بعد سنة كأنه ابن ثلاث سنين ، وكان هذا سببًا فى أن الأعين لم تتنبه له ، ولم تسترب به ، فلم يخش أبوه أن يظهره أمام الناس[١٤].

حين خرج إبراهيم من السرب توهمه الناس أنه ولد منذ سنين ، وخاطب أمه خطاب أهل العلم المتفكرين .

قال لأمه : من ربى ؟ قالت له : أنا .

قال لها : ومن ربك ؟ قالت : أبوك .

قال : ومن رب أبى ؟ قالت : النمروذ .

قال : ومن رب النمروذ ؟ فلطمته .

وأدركت أن هذا الولد هو الذى سوف يكون ذهاب ملك النمروذ على يديه .

وكان إبراهيم حين ولد قد ظهرت عليه الكرامة ، وكان أحسن الناس وجهًا ، يلمع النور من جبهته . وقيل : خرت الأصنام منكسة على وجهها حين ولد ، وطارت التيجان التى كانت فوق رءوسها .

وكان حين مقامه فى السرب تتركه أمه وتعود إليه لترضعه فتجده يمص إبهامه ، وقد تفجر منه آونة لبنًا وآونة عسلاً وآونة ماء .

وتوسمت أمه فيه أنه سيكون ذا شأن .

ويبدو أنها كانت على بصيرة وهدى من الله ، ولكنها كانت تكتم إيمانها[١٥].

---

(١٤) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٧٤ والقرطبى ص ٢٤٦٠ .

(١٥) بدائع الزهور لابن إياس ص ٧٧ .

ومن ثم فقد أكرمها الله فى أثناء حملها فلم يظهر عليها أثره حتى نجت من أعين الرقباء . بل قال بعضهم : إن العيون التى كان يبثها النمروذ لمراقبة الحوامل تعرضوا لأم إبراهيم وهي به حامل ، فجسوا جنبها الأيمن فاختفى الجنين فى الجانب الأيسر ، وجسوا جنبها الأيسر فاختفى الجنين فى الجانب الأيمن ، فانصرفوا دون أن يظفروا بطائل(١٦).

وظلت أم إبراهيم على ذلك مستورًا حالها حتى أقربت ، فوضعت طفلها سرًا كما قدمنا .

ولم يُجْدِ النمروذَ حرصُه شيئًا ، فإن هذا المولود الذى حذره الكهنة منه ولد رغمًا عنه ، وشاءت الأقدار أن يكون ذهاب ملكه على يديه فعلاً - كما فسر المفسرون رؤياه .

ولكن سبقت ذلك أحداث وأحداث .

إرهاصات النبوة فى نفسه :

كانت لدى إبراهيم - عليه السلام - تطلعات إلى الهداية ، وكانت نفسه تتوق إلى معرفة خالق هذا الكون العظيم الذى يعيش فيه .

إن مظاهر الإبداع فى الكون كثيرة تشهد بعظمة المبدع ، وتدل على أن وراءها خالقًا قادرًا عظيمًا ، فمن هذا الخالق ؟

وقد دل حواره مع أمه فى سنه المبكرة على أن بصيرته قد تفتحت قبل الأوان ، وأن الله قد منحه عقلاً واسعًا لا يقتنع بما يملى عليه من أفكار وما يُلَقَّنُه من معارف .

وكان قومه أهل أوثان ، وكان أبوه نجارًا ينحت الأصنام ويبيعها لمن يطلبها .

---

(١٦) دائرة المعارف الإسلامية نقلاً عن قصص الأنبياء للكسائى ص ١١٥ .

ولا شك أنه كان يتأمل ذلك فيعجب ، كيف يسوى الإنسان صنمًا بيديه ثم يسجد له ؟

وربما سخر ممن يفعل ذلك . وقد روى الرواة أن أباه كان يطلب منه أن يبيع الأصنام التي يصنعها ، فكان ينادى عليها : من يشترى ما يضر ولا ينفع ؟

ولا غرابة أن يغضب منه أبوه لذلك ، فهو عقبة فى طريق تجارته . وكيف يرضى عنه وهو يبصر الناس بعيوب السلعة وهم عنها غافلون ؟

لقد أنار الله بصيرة إبراهيم منذ صغره وهداه إلى الرشد وقد حكى القرآن الكريم ذلك بقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾[١٧].

ف طريقه لهداية قومه :

ونظر إبراهيم إلى قومه فى عقائدهم ، فحزن لما وصلوا إليه من ضلال وغفلة ، إنهم يسجدون لأصنام جامدة لا تسمع ولا تبصر ولا تحس ولا ترد . وهى عنهم غافلة تمامًا ، بل هى لا تحس بغفلتها أيضًا ، وهل يحس الجماد ؟

وهو قد نشأ بينهم ، ورأى أن أباه هو الذى يُرَوِّج لهذه الآلهة ، وعليها يقوم رزقه ، فقد عينه النمروذ سادنًا لها ، وإليها تقدم القرابين والنذور فهي حصيلة سخية مستمرة لا تنقطع ، وهو الطريق إلى رضا هذه الآلهة ، وكلّ يتنافس فى شراء رضاه لترضى عنه الآلهة ..

وهو لا يكتفى بذلك السيل المدرار من الهدايا والقرابين ، ولكنه كان بدوره يصنعها ويبيعها .

---

(١٧) الأنبياء ٥١ .

لقد استهجن إبراهيم – عليه السلام – كل ذلك . كان الله في ضميره منذ صغره ، منّ عليه بمعرفته وهداه إلى طريقه ، وأتاه رشده ..

وقبل أن يوحى إليه فطّنه وعلمه وبصره ، حتى استطاع بنور العقل أن يهتدى إلى الله – تعالى – .

وانتظر آزر من ابنه أن يعينه في عمله ، وأن يساعده في مهمته ، وأن يدرج على نهجه في صناعته جريًا على عادة الناس ، في أن يرث الأبناء ما يصنعه الآباء ، ولكنه خيَّب ظن أبيه في ذلك .

فكان يقول له : خذ هذه الأصنام وبعها ، الكبير بكذا والصغير بكذا ، فكان إبراهيم لا يصغي لقول أبيه ويقول له كما قال الله تعالى : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ ولاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾[18].

وكان إبراهيم أحيانًا يأخذ هذه الأصنام من أبيه ، ويذهب بها ويشد الحبل بأرجلها ويجرها خلفه احتقارًا لها واستهزاء بها وينادى في الناس : من يشترى ما يضره ولا ينفعه ؟

وكان الناس ينظرون إليه ويعجبون من جرأته ، ولا يجرءون على كفه عما يفعل لمكانة أبيه عندهم وعند ملكهم وعند آلهتهم ، أليس سادن الآلهة وبيده رضاها وسخطها ؟

ولا شك أن أباه كان ينهره على ما يفعل .

حتى إذا ما استمر إبراهيم في دعوته إلى الغض من شأن هذه الأصنام وتحقيرها ، أغلظ له أبوه القول وهدده وتوعده على النحو الذى سيأتى بعد .

تبييت إبراهيم الشر للأصنام :

لما سأل إبراهيم – عليه السلام – قومه عن سبب عبادتهم لهذه الأصنام التي يصنعونها بأيديهم أجابوه بقولهم : ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا

---

(18) مريم 42 .

لَهَا عَابِدِينَ ﴾[١٩].. فتعجب من هذا الرد وقال لهم : ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾[٢٠].. فلم يجيبوه بالإيجاب ، فرثى لهم .. ثم أضمر الشر فى نفسه لهذه الآلهة التى أصروا على عبادتها من دون الله الواحد الأحد الخالق الرازق النافع الضار .

إن هؤلاء القوم لم تؤثر فيهم موعظة ولم يجد معهم إرشاد فلا بد من اتخاذ خطوة عملية فى إقناعهم وتبيين ضلالهم وفساد رأيهم وتفاهة عقولهم .

كان للقوم عيد يجتمعون إليه كل عام ، يحتفلون فيه بآلهتهم التى صنعوها بأيديهم . وكان لهذه الآلهة بيت كبير مبنى بالرخام الأبيض المنقوش بشتى الألوان ، وينتظم فى هذا البيت ثلاثة وسبعون صنمًا يستوى كل منها على كرسى من الذهب ، وموشى بالحرير ، وكبير هذه الأصنام يتوسطها وعلى رأسه تاج مرصع بالجواهر الفاخرة ، وله عينان من الياقوت الأحمر البديع الصنع ، وبقية الآلهة عن يمينه وشماله .

وكان القوم يتنافسون فى تقديم الطعام الشهى لهذه الأصنام ، ويضعونه أمامها لتباركه لهم ، ثم يعودون بعد انتهاء احتفالهم لأخذه وقد باركته الآلهة فيبتهجون لذلك .

وربما امتدت أيدى الشياطين لهذا الطعام فالتهمته ، فيعتقدون أن الآلهة أكلته ، فيزداد فرحهم واعتقادهم فى آلهتهم ويجنون بعبادتها جنونًا . لأنها رضيت عنهم فأكلت طعامهم[٢١].

كانوا ينتظرون هذا العيد كل عام بفارغ الصبر ، ويعدون له المواكب والاحتفالات ، ويتفننون فى تقديم القرابين التى يضعونها بين يدى هذه الآلهة ، ثم يغلقون البيت عليها ، ويخرجون إلى عيدهم حيث يسمرون

---

(١٩) الأنبياء ٥٣ .
(٢٠) الشعراء ٧٢ ، ٧٣ .
(٢١) بدائع الزهور لابن إياس ص ٧٩ .

ويلهون ويلعبون ، ثم يعودون إليها طائفين راكعين ساجدين قبل أن يعودوا إلى بيوتهم ..

وكان النمروذ قد بلغه نبأ إبراهيم .. وربما أراد أن يستميله إليه ، فأرسل إليه قائلاً : يا إبراهيمُ إن غدًا عيدنا فاخرج معنا[٢٢].

ولكن كيف يشاركهم فى كفرهم ؟ وفى الوقت نفسه كيف يخلو عنهم لينفذ ما فكر فيه ؟ لابد من حيلة يلجأ إليها .

واحتال إبراهيم .. نظر إلى نجم طالع فقال : إن هذا النجم يطلع مع سقمى .

وكان علم النجم مستعملاً عندهم منظورًا فيه ، وما كان بإبراهيم مرض جسمى ، ولكنه ضيق نفسى بسبب إعراض قومه عن الحق وانصرافهم إلى الباطل .

والضيق النفسى مر ض من الأمراض التى لا تقل خطورة عن الأمراض الجسدية ، وربما ترتب عليه ما يسمى بالاكتئاب النفسى الذى قد يكون سببًا فى قتل صاحبه .

لقد نظر إبراهيم إلى النجم استدلالاً به ، لأنهم كانوا يعتمدون عليها فى سقيهم وحرثهم وهم أهل فلاحة وزراعة ورعى ، ومن كانت صناعته كذلك ارتبط بالنجوم .

فما أخبرهم إبراهيم بأنه مريض حتى أسرعوا فى الابتعاد عنه ، وفروا من طريقه هاربين ، لقد خشوا على أنفسهم من العدوى ، فلربما كان المرض الذى أخبر عنه معديًا ، وربما كان هو الطاعون الذى إذا أصاب واحدًا تفشى بسرعة البرق فى الباقين .

---

(٢٢) تفسير القرطبى .

لم يتنبهوا إلى ما أراده من إخبارهم بمرضه . ولم تكن هناك أعراض ظاهرة عليه ، ولذلك لجأ إلى النجم مبينًا لهم أن طالعه هو الذى أخبره بسقمه الذى سيجىء ..

تركه القوم وانصرفوا ، ولم يفكروا فى الإلحاح عليه أو السؤال عنه وعن حاله ، أو تدبير أمر شفائه ، أو غير ذلك مما يتخذ مع المريض عادة . وما لهم وذلك ؟ إنهم عنه فى شغل ، إنهم ينتظرون عيدهم منذ عام فلماذا يضيعون فرحتهم مع مريض ؟

ولكن هل كذب إبراهيم فى ادعائه المرض ؟

كلا ، إنه ليس كذبًا بالمعنى المفهوم ، إنه من معاريض الكلام التى ورد فى حقها : إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب . وهو من قبيل قولهم : كفى بالسلامة داء ، وقولهم : أصحيح مَن الموتُ فى عنقه ؟

فإبراهيم – عليه السلام – صادق فى حقيقة الأمر . وإن كان قوله فى ظاهره يوحى بالكذب فهو معتذر عنه . وقد أخبر النبى – ﷺ – عن ذلك بقوله – فيما رواه القرطبى فى تفسيره – : لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ، ثنتان ما حل بهما عن دين الله وهما قوله : إنى سقيم ، وقوله : بلْ فَعَلَه كبيرُهُمْ هَذَا . والثالثة قوله عن زوجه إنها أخته .

لقد تركه القوم وانصرفوا .

وهذه فرصته التى ينتظرها ..

إبراهيم يكسر الأصنام :

وعاد إبراهيم مسرعًا إلى بيت الأصنام بعد أن تحقق أنه لم يبق أحد قريبًا منها .

ودخل البيت ، ونظر إلى الأصنام ، ورأى الطعام ممدودًا أمامها من مختلف الأصناف والألوان .

لقد تكلف القوم فى صنع هذه الألوان فوق ما يطيقون ، وقدموها هدية لأصنام لا تأكل ولا تشرب ، ولا تنفع ولا تشفع .

فأى حماقة أكثر من ذلك ؟

ووجه إبراهيم خطابه لهذه الأصنام فى سخرية وتبكيت :

ألا تأكلون ؟ خاطبها خطاب من يعقل ، فلم يسمع ردا .

فعاد يقول لها : مَالَكُم لا تنطِقُون ؟ فلم تحر جوابًا .

عند ذلك أقبل بفأسه عليها يحطمها ، لقد صب عليها جام غضبه ونقمته ، لأنها أضلت عقلاء قومه ..

يا للعجب كيف يغوى فاقد العقل من له عقل ؟

وكيف يتملك ما لا يحس من له حس ؟

كيف يتمكن الجماد من السيطرة على من يتصرف فى الجماد ؟

كيف ينحته بيده من حجر ثم يخر على ذقنه ساجدًا له ؟

يا لحماقة هؤلاء القوم !

وأخذ يهوى عليها بفأسه حتى أصبحت قطعًا متناثرة ، وشظايا مبعثرة . ثم علق الفأس فى عنق كبيرهم الذى أعفاه من التحطيم لحاجة فى نفسه .

ما لها لم تمنع عن نفسها التحطيم ولم تدفع ضربات المعول التى تهاوت فوق رءوسها كالجحيم ؟

ألا ما أغبى هؤلاء القوم وما أشد غفلتهم وضلالهم وأبعدهم عن الصواب !

وشفى إبراهيم غيظه من هذه الأصنام أولاً ، ومهد الطريق لمحاجتهم وكشف الغطاء عن عيونهم ثانيًا ..

وعاد إبراهيم هادىء النفس قرير العين إلى بيته ، استعدادًا للجولة القادمة .

ورجع القوم من حفلهم كعادتهم إلى بيت أصنامهم يطوفون ويتبركون ، وهنا كانت المفاجأة .

لقد رأوا ويا لهول ما رأوا . رأوا جذاذًا من الحجارة المتناثرة تملأ ساحات المعبد .

لا يوجد إلا صنم واحد لم يصبه التكسير . هو الصنم الأكبر .

وتساءلوا أولاً ، لماذا لم يصبه التكسير كما أصاب غيره ؟

ثم عادوا يتساءلون : مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ .

ولو كان هناك عقل يفكر لكان السؤال المتبادر هو :

لماذا لم ترد هذه الآلهة عن نفسها غائلة التحطيم والتكسير ؟

ولماذا لم تحطم من سولت له نفسه فعل ذلك قبل أن يحطمها ؟

إنهم لو سألوا ذلك لتسلل بريق النور إلى نفوسهم ، فوجدوا الجواب : إنها لا تستطيع أن ترد ولا تستطيع أن تمنع وما دامت لا تستطيع فهى إذن عاجزة ، وما دامت عاجزة عن أن تدفع عن نفسها فهى عن الدفع عن غيرها عاجزة .

ولكن الله قد طمس على قلوبهم وأبصارهم ، فهم صُمٌّ بكم عُمْىٌ لا يعقلون .

محاكمة إبراهيم :

حين ادعى إبراهيم المرض وقال : إنى سقيم ، وتركه القوم وانصرفوا مسرعين إلى لهوهم ولعبهم قال : ﴿ تَا للَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾(٢٣).

---

(٢٣) الأنبياء ٥٧ .

وسمعه آخر واحد فيهم ، ولكنه لم يلق بالاً لهذه الكلمة ، على اعتبار أنها كلمة عابرة قالها رجل حانق أو مريض أو عاجز عن تنفيذ قوله .

فلما عادوا إلى الأصنام ووجدوها على تلك الحال تساءلوا عمن فعل بها ذلك قال ذلك الرجل الذى سمعه : إنه إبراهيم ، وربما قال ذلك همسًا ، وسرى هذا الهمس حتى استعلن ، وجهروا به جميعًا قائلين : لقد ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾[٢٤].

ورفع الأمر إلى الملك ، فأرغى وأزبد ، وهدد وتوعد ، ونادى : فليأت هذا الفتى إلىّ .

وأسْرَعُوا إِلَيْهِ يَزِفُّون ، وانطلقوا به إلى النمروذ ..

ومثلُ إبراهيم – عليه السلام – بين يديه ثابت الجنان مستقر الوجدان .

ونظر إليه النمروذ مستنكرًا ، ولعله استعاد فى ذهنه محاورة سابقة كانت قد جرت بينهما منذ حين ، فقد قال الرواة :

إن النمروذ كان قد استدعى إبراهيم يومًا ، فنظر إبراهيم حوله فإذا بالأصنام منصوبة فى مجلس الملك ، وبين يديه أبوه والناس جالسون . فقال إبراهيم : يا قوم ، ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ ؟ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ؟ ﴾[٢٥].

وربما أراد النمروذ أن يتألفه فقال له : يا إبراهيم ، تذكر أنى أنا الذى خلقتك ورزقتك .

فأجابه إبراهيم فى ثبات ويقين : ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ . وإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[٢٦].

---

(٢٤) الأنبياء ٦٠.
(٢٥) الصافات ٨٥ ، ٨٦.
(٢٦) الشعراء ٧٨ : ٨٠.

فبهت النمروذ وبهت الناس معه ، وهم بأن يبطش به ولكنه تريث ونظر إلى آزر وقال له : يا آزر إن ابنك صغير لا يدرى مايقول ولا يجوز لمثلى فى قدرى وعظم ملكى أن أعجل به ، فخذه وأحسن إليه وحذره بأسى وسطوتى وانتقامى(٢٧).

تذكر النمروذ ذلك ، وأدرك أن الأمر أخطر مما كان يتوقع .

إنه إن تهاون الآن فلن تقوم له ولا لمملكته قائمة بعد ذلك .

فقال النمروذ لإبراهيم – عليه السلام – :

أأنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إبرَاهِيمُ ؟

فلاحت الفرصة أمام إبراهيم ، فأجاب فى سرعة باغتة :

﴿ بَلْ فَعلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذا ﴾ ..

إنها قوة التحدى فى الإجابة السديدة ، وفيها سخرية وتهكم أيضًا ، وكأنه أراد أن يقول لهم : لقد غار كبيرهم على نفسه وغضب أن عبدتم غيره معه ، فأقبل على تلك الأصنام الصغيرة يحطمها ، وهذا الفأس فى عنقه دليل على ذلك . ثم أراد أن يفتح الطريق أمام عقولهم للتفكير فقال لهم :

﴿ فَاسْألُوهُمْ إنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ ..

وما أسرع الأثر الذى تركته هذه الكلمة فى نفوسهم ! وأدركوا صدق إبراهيم فى قوله ، فرجعوا إلى أنفسهم موبخين لها على عبادتهم أصنامًا ضعيفة عاجزة لا تضر ولا تنفع ، واعترفوا بالحق قائلين : ﴿ إنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ ﴾ .

إنه بصيص من النور تسلل إلى العقول ، وكأنه أشار إليهم أن يقولوا لأنفسهم : كيف يرد عنا البأس من لا يدفع عن نفسه الفأس ؟

---

٢٧) بدائع الزهور لابن إياس ص ٧٨ .

ولكنها كانت بارقة هداية سرعان ما انتكست . ولحظة نور سرعان ما تقشعت ، وعاد الباطل بقوته يزحف زحفًا .

ونكسوا على رءوسهم وارتدوا على أدبارهم ، وأخذوا بتلابيب إبراهيم يوبخونه بدلاً من أن يشكروه ، ويؤاخذونه بدلاً من أن يحمدوه ، وقالوا له : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾ ..

يا سبحان الله .. تسلمون بعدم نطقهم ومع ذلك تعبدونهم . ما أعجب شأنكم ؟ .

وعاد إبراهيم يجادلهم . قائلاً لهم فى ضيق وألم : أتعبدون من دون الله ما لا ينطق ؟ وتقدسون ما لا يضر ولا ينفع ؟ أف لكم ولما تعبدون من دون الله .

إلقاؤه فى النار :

وخشى النمروذ على نفسه من هذه الدعوة الطارئة التى تزلزل ملكه وتقوض سلطانه .

إن فى نبذ عبادة الأصنام نبذًا له أيضًا . أليس هو صنمًا حيًا يعبده قومه ؟ ، فإن هجرت الأصنام اليوم فسوف يهجر هو غدًا ، ولئن ثار الناس على الأوثان الآن فستدور عليه الدائرة بعد ذلك .

وإذن فلابد من عقاب إبراهيم عقابًا صارمًا يناسب جريمته التى اقترفها فى حق آلهتهم .

لقد اعتدى إبراهيم على حرمة الآلهة باليد واللسان .

فما عقاب من يعتدى على الآلهة ؟

لن يكون هذا العقاب أقل من إحراقه حيًا ..

أيقعدون عن نصرة آلهتهم ؟ إنهم إذن جاحدون لها ، مقصرون فى نصرتها ، إن حطامها يستصرخهم بالثأر ممن فعل بها ذلك ، لابد أن ينصروا

آلهتهم بالتخلص ممن حطمها واعتدى عليها ، ويا عجبًا من إله يستنصر عابديه ليأخذوا له حقه ..

وثارت ثائرة المجانين وصعد هتاف المسعورين : ليحرق إبراهيم .. لابد من صنع جحيم له ..

لقد أراد النمروذ أن يرهب الناس مع إبراهيم ، حتى لا يفكر أحد فيما فكر فيه إبراهيم .

وأمر بجمع الأحطاب من كل مكان بعد أن أمر بصنع بنيان من حجارة طول كل جدار منه ثلاثون ذراعًا تلقى فيه هذه الأحطاب .

وجمعت الأحطاب وجذوع الأشجار على البغال من الجبال والأودية ومن كل مكان .

قيل : إنهم مكثوا ثلاثة أشهر يجمعونها ، حتى إن الناس كانوا ينذرون متقربين لآلهتهم بمد هذه النار بما يقدرون عليه من وقود .

وغذى الشيطان هذه الفتنة بكيده وسلط جنوده يعبئون النفوس ضد إبراهيم ، حتى امتلأت غيظًا وحقدًا ..

وأشعلوا فيما جمعوا النار التى تأججت وارتفعت ألسنتها إلى عنان السماء واخترق لهيبها أجواز الفضاء ، حتى لقد كان الطائر يشوى إذا حلق فوقها ، ووصل لفحها إلى مسافات طويلة حولها ، فلم يتحمل الناس الإقامة قريبًا منها فهربوا من شدة هولها .

وتحيروا . كيف يلقون إبراهيم فى هذا الجحيم ؟

فقيل : إن الشيطان جاءهم على صورة رجل فصنع لهم المنجنيق ، وقذفوا به إبراهيم بعد أن أوثقوه بالحبال .

لقد كان الشيطان وفيًا لمبادئه الخبيثة . وما زال يقف للخير بالمرصاد يحاول أن يقضى على كل محاولة تأخذ بيد الإنسان إلى طريق الهدى والرشاد .

وها هو ذا يدل الكفار على وسيلة التخلص من إبراهيم ، وهو يظن بذلك أنه انتصر على الحق .

وضجت السموات والأرض ، وهتفت الملائكة ضارعة إلى الله : ربنا ، ليس فى الأرض أحد يعبدك غير إبراهيم ، وإنه الآن يُحرق ، فأذن لنا يارب فى نصرته .

فقال الله – جل وعلا – وعينه ليست غافلة عن خليله وصفيه : إن استغاث بأحد منكم فليغثه ، وإن لم يدع غيرى فأنا وليه وناصره .

وجاء خزان الماء من الملائكة فقالوا : يا إبراهيم إن أردت أخمدنا لك النار . فقال إبراهيم – وهو واثق فى كلأ مولاه ورعايته : لا حاجة لى إليكم .

وقال له ملك الرياح : لو شئت طيّرت النار . ولكنه وكل أمره إلى مولاه .

ثم رفع رأسه إلى السماء فقال – فيما يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم – : لا إله إلا أنت سبحانك أنت رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك .

واستقبله جبريل قبل أن يقذف فى النار ، فقال له : ألك حاجة ؟

قال إبراهيم – عليه السلام – أما إليك فلا .

قال جبريل : فاسأل ربك .

فقال إبراهيم : حسبه من سؤالى علمه بحالى .

إنها قمة التوكل والتفويض إلى الله – تعالى – إنه الوفاء الذى وصف به حيث عاهد نفسه أن يرضى بقضاء الله وقدره .

وكان لطف الله فى قضائه أقرب إليه من كل شيء ، ورحمته بخليله أوسع من كل شيء .

وقال الله للنار : كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ .

فكانت بردًا وسلامًا ، ولم تحرق من إبراهيم إلا وثاقه ..

وأصبح إبراهيم فى قلب هذا الجحيم الذى صنعه هؤلاء الجاحدون وكأنه فى روضة من رياض الجنة .

وبقى فى النار سبعة أيام لم يقدر أحد أن يقترب منها ، ثم جاءوا إليه بعد أن هدأت حدتها وخفت شدتها ، واطلعوا وهم يحسبون ألا يجدوا لإبراهيم أثرًا ، إذ كيف يبقى أثر لحى يلقى فى هذا السعير المتلظى ؟ فإذا بهم يرونه قائمًا يصلى .

واعتراهم الذهول واستولى عليهم العجب ..

وتطوع بعضهم لسؤاله عن حاله بعد أن خرج من النار سليمًا معافى . فقال إبراهيم فى إيمان ويقين :

ما كنت أيامًا قط أنعم منى فى الأيام التى كنت فيها فى النار . إنها عناية الله بأحبابه ورعايته لأوليائه ، وصدق الشاعر الذى يقول :

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

ولقد قص الله علينا هذه القصة المباركة فى قوله تعالى :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ

كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ (٢٨)

محاورة بينه وبين النمروذ :

خرج إبراهيم – عليه السلام – من النار سليمًا معافى ..

وكان لابد أن تنكشف بصيرة كثيرٍ من الناس فيعرفوا أن الله هو الحق وأن الذى يدعون من دونه هو الباطل .

ولابد أن يثير إعجاب بعضهم فيعرفوا له فضله وصدقه ويؤمنوا به .

ولكن إعجاب النمروذ به – فيما يرويه البعض – يقف دونه العقل السليم والمنطق الصحيح . لأنه لو أعجب به لآمن ..

يقول بعض الرواة : إن النمروذ اطلع من صرح له عالٍ فرأى إبراهيم فى النار وكأنه فى روضة . فقال له : يا إبراهيم كبيرٌ إلهك الذى بلغت قدرته أن حال بينك وبين النار حتى لم تضرك ، وسأله عن الرجل الذى كان بجواره ، فأخبره بأنه ملك الظل أرسل إليه ربه يؤنسه . فقال النمروذ : إنى مقرب إلى إلهك قربانًا لما رأيت من قدرته ، إنى ذابح له أربعة آلاف بقرة .

فقال له إبراهيم : لا يقبل الله منك شيئًا ما كنت على دينك هذا حتى تفارقه إلى دينى .

---

(٢٨) الأنبياء ٥١ : ٧٠ .

فقال له : يا إبراهيم لا أستطيع ترك ملكي ولكن سوف أذبحها ، فذبحها وقربها ، ومنع العذاب عن إبراهيم ، ثم قال له : نعم الرب ربك يا إبراهيم[٢٩].

هذه القصة تتنافى مع المحاجة الكبرى التى حدثت بين إبراهيم - عليه السلام - وبين هذا الطاغية الجبار الذى ادعى الألوهية .

والواقع أن النمروذ اشتد خوفه من إبراهيم وقرر إبعاده عن بلدته حتى لا يفسد عليه الناس .

واستدعاه ليحاوره ..

فقال النمروذ لإبراهيم : من ربك ؟

قال إبراهيم : ربى الله .

ولعل النمروذ قال له : ما الدليل على ألوهيته ؟

فقال إبراهيم : الدليل على ذلك أنه يحيى ويميت ، أى أنه يحدث الأشياء بعد عدمها ، ويفنيها بعد وجودها ، وهذا ملاحظ بالمشاهدة ، وما نراه من أشياء لا تحدث بنفسها ، ولابد من موجد يوجدها .

ولكن النمروذ كان له فهم آخر فى ذلك إذ قال : أنا أيضًا أحيى وأميت . وأتى برجلين قد حكم عليهما بالقتل فعفا عن أحدهما ، ونفذ الحكم فى الآخر . ثم قال لإبراهيم : ألست قد أمت هذا وأحييت هذا ؟

وهذا ليس دليلاً بالمعنى الصحيح ، وإنما هو جهل ومكابرة .

فقال إبراهيم : ربى يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب .

فبهت النمروذ ولم يحر جوابًا ..

---

(٢٩) ذكرها الثعلبي في قصصه عن ابن اسحاق وغيره ص ٧٨ .

ولجأ إلى التهديد كعادة المكابرين ..

وقيل : إن هذه المحاورة تمت بعد هجرة إبراهيم ، ووفوده إلى النمروذ يطلب الميرة لأهله – وكان يحتكر الطعام – .

وكان الذى يمتار من النمروذ يسجد له ، فأبى إبراهيم السجود .

فقال له النمروذ : لم لا تسجد لى ؟

قال : أنا لا أسجد إلا لله – سبحانه وتعالى – وهو الذى خلقنى .

فقال له : ما صفة إلهك ؟

وجرت المحاورة السابقة ..

قالوا : ورفض النمروذ أن يعطيه شيئًا ، فعاد إبراهيم ، وأكياس الطعام فارغة ، وفى الطريق رأى رملاً ناعمًا يشبه الدقيق ، فملأ أكياسه منه ليشغل به أهله ريثما يدبر لهم ما يقتاتون به .

ووضعها ونام بجوارها . فجاءت امرأته سارة وفتحت الأكياس فوجدت ما فيها دقيقًا صافيًا ، فصنعت منه طعامًا .

ولما استيقظ إبراهيم سأل : من أين لكم هذا الطعام ؟

فقالت سارة : من الدقيق الذى جئت به ؟

فعرف أن الله قد رزقهموه[٣٠].

وعلى كل فإن مواقف الحوار بين إبراهيم والمعاندين متعددة ، وقد وقف نفسه على الدعوة إلى الله ، وهذه رسالته ، ولا يبعد أن يكون هناك أكثر من طاغية حاوره إبراهيم ودعاه إلى الله ..

وهذه المحاورة التى تمت بين إبراهيم – عليه السلام – والنمروذ تشير إليها هذه الآية الكريمة :

---

(٣٠) تفسير ابن كثير ، وتفسير القرطبى .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣١).

هلاك النمروذ :

لقد أفحم إبراهيم – عليه السلام – النمروذ ، والمكابر حين يُفحم يلجأ إلى التحدى الكاذب . لقد زين له وهمه أنه يستطيع أن يصعد إلى السماء فيقضى على رب إبراهيم .

وهذا هو الجهل ، فقد عمى عن أن الله بكل شيء محيط ، وعن أنه فى السماء إله وفى الأرض إله ، وعن أنه معنا أينما كنا ..

فأمرَ ببناء صرح عالٍ جدًا ، وارتفع فيه فتقوض الصرح عليهم فهلكوا وهذا ما يشير إليه قوله تعالى :

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾(٣٢).

وقيل : إن النمروذ جمع جموعًا كثيفة من الجند بدعوى أنه يحارب بها جند الله . فسلط الله عليهم أضعف خلقه وهو البعوض فأهلك الجند ، ودخلت بعوضة إلى أنف النمروذ وسكنت دماغه ، فكانت لا تسكن إلا إذا ضُرِبَتْ دماغه . فهل هناك ذل أكثر من هذا ؟

وظل على هذه الحال حتى مات – لعنه الله – .

لقد أذله الله فى الدنيا وهو فى الآخرة أذل وأشقى .

---

(٣١) البقرة ٢٥٨ .
(٣٢) النحل ٢٦ .

آية البعث :

لما رأى إبراهيم – عليه السلام – أن الكفر قد اشتد فى بابل ، وأنه لا جدوى من الإقامة بين قوم أظلهم النمروذ بجبروته وفرض عليهم عبادته ، وأحصى عليهم أنفاسهم واحتكر أقواتهم ، لقد أصبح المقام بين هؤلاء القوم ذلاً لا يطاق ، فقال إبراهيم – عليه السلام – : إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ .

فخرج هو ومن آمن معه ، وممن آمن معه لوط – عليه السلام – قال تعالى ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾[٣٣].

خرج لعله يجد قومًا آخرين يجيبون دعوته ويقبلون كلمته ، وربما استطاع أن يجمع منهم من يجاهد بهم فى سبيل الله .

خرج قاصدًا أرض حران .. وهى بلاد الشام التى بارك الله فيها ..

وكان إبراهيم لا يكف عن التأمل والتفكر ..

وفى يوم وهو غارق فى تأملاته فى خلق السموات والأرض رأى جيفة نصفها فى البر تتنازعها السباع ، ونصفها فى البحر تتنازعها دواب البحر . فلما رأى تفرقها أحب أن يرى اجتماعها ، فسأل ربه ليطمئن قلبه : كيف يكون الجمع بعد التفريق . فناجى ربه قائلاً : رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَى ؟

فقال له الحق – سبحانه – : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟

فأجاب إبراهيم : بلى يارب ، لقد آمنت ، ولكنى أردت أن يطمئن قلبى .

فقال الله سبحانه : خذ أربعة من الطير ، ثم اذبحها ، وقطعها أجزاء واخلط بعضها ببعض حتى يشتبه عليك أمرها ، وضع على كل جبل من الجبال المحيطة بك جزءًا من هذه اللحوم المختلطة .

---

(٣٣) الأنبياء ٧١ .

ثم ناد هذه الطيور .. وانظر ماذا ترى ..

وفعل إبراهيم ما أمر به ، جاء بأربعة طيور قيل : هي الديك والطاووس والحمام والغراب . وذبحها وخلطها وفرق أجزاءها فوق الجبال ، وأمسك الرءوس عنده .

ونادى هذه الطيور قائلاً : تعالين بإذن الله .

فتطايرت تلك الأجزاء ، طار الدم إلى الدم والريش إلى الريش واللحم إلى اللحم ، حتى التأم كل شكل إلى شكله ، وأقبلت الطيور إليه تسعى حتى التصق كل جسم برأسه .

فلما رأى إبراهيم ذلك ازداد يقينه ، لقد عاين بنفسه فعل القدرة ، لقد كان في مقام اليقين فأصبح في مقام حق اليقين .

ولم يكن إبراهيم شاكًا في قدرة الله - تعالى - بسؤاله ذاك ، ولكنه - كما يقول العلماء - كان شاكًا في إجابة الله دعوته حين يطلب ذلك ، وقد اطمأن قلبه بإجابة دعوته ، ويجدر بالذكر هنا الإشارة إلى الحديث الذي رواه البخارى قال : حدثنا أحمد بن صالح : حدثنا ابن وهب ، أخبرني يونس عن ابن شهاب عن أبي سلمة وسعيد عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى قال : أولم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي » ..

لم يكن النبي - ﷺ - في هذا القول شاكًا ، ولا كان إبراهيم شاكًا ، ولكن هذا الحديث ينفي الشك عنهما ، فكأن النبي - ﷺ - يقول : إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فإبراهيم أولى بألا يشك .

وقد قال النبي - ﷺ - ذلك على سبيل التواضع وهضم النفس . وفي الحديث إعلام بأن المسألة من إبراهيم - عليه السلام - لم تعرض من جهة

الشك ، ولكن من قبل زيادة العلم بالعيان ؛ فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال .

لقد أحب إبراهيم – عليه السلام – أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين(٣٤) .

فهم أهل الذوق فى هذه القصة :

قال العارفون : إن حصر العدد بأربعة من الطير فيه إشارة إلى أن الطبائع أربعة ، والغالب على كل واحد من هذه الطيور طبع منها ، فالشهوة فى الطاووس ، والصولة فى الديك ، والخسة فى الغراب ، والمسارعة إلى الهوى فى الحمام . وخص الطير لأنه أقرب إلى الإنسان وأجمع لخواص الحيوان .

وفى قتل هذه الطيور إشارة إلى أن قتل هذه الطبائع فيها حياة للنفس حياة أبدية . وهذا هو معنى جهاد النفس الذى تشير إليه الشريعة .

وفى الجمع بين هذه الطيور جمع بين مأكولى اللحم وضدهما ، فالديك والحمام مأكولان والطاووس والغراب متروكان . وجمع بين الممقوت والمحبوب منها ، فالطاووس ممقوت لكبره ، والغراب ممقوت لشؤمه ، والديك محبوب لحسن صوته ويقظته وطعمه ، والحمام محبوب لألفته وخفته وأنسه(٣٥) .

إبراهيم فى حران ؟؟

ودخل إبراهيم حران ، وهى مدينة قديمة قرب منابع نهر البليخ ، بين الرها ورأس عين(٣٦) .

---

(٣٤) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٦٥ .

(٣٥) راجع حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ١٧١ باب الطير .

(٣٦) دائرة المعارف الإسلامية .

ولم يكن أهل حران خيرًا من أهل بابل . فقد كانوا فى الشرك سواء . كان أهل حران يعبدون الكواكب . كل منهم يتخذ إلهًا من بين هذه النجوم والكواكب التى تطلع ثم تغيب .

وشمر إبراهيم عن ساقه فى الدعوة إلى الله .

ولكنه أراد مع هؤلاء أن يسلك طريقًا آخر فى البحث والاستهداء .

انتظر حتى طلع نجم مضىء فى السماء ، فقال : هذا ربى ..

لقد أراد بذلك أن يلفت نظر القوم إلى قوله ، ليبرهن لهم بالطريق العملى فساد ما يذهبون إليه ، ويقنعهم بأن الرب الحقيقى لا يغيب عن عابديه .

وغاب النجم فى آخر الليل .

فصاح قائلاً : لا أحب الآفلين ..

كيف يستحق هذا النجم العبادة مع أنه اختفى فى الأفق حين بدا ضوء النهار ؟

لقد ظهر ما أخفاه ، فهناك إذن ما هو أقوى منه . ومن خصائص الإله أن يكون أقوى من غيره ..

ثم خطا خطوة أفسح ..

انتظر حتى بدا القمر بنوره الوضاح ، إن نور القمر أكبر وأوضح وشعاعه أشمل وأفسح .

فقال : هذا هو الذى يستحق أن يكون ربًا ، وقال : هذا ربى .

ولعل من سمعه وافقه على ذلك .

ولكن القمر أيضًا غاب . جاء الصبح فمحاه وبدد ضوءه ، فصاح قائلاً : وأنت أيضًا أيها القمر أفلت ؟ فأنت إذن لا تستحق العبادة . لقد خطا بسامعيه خطوة أخرى فى طريق الحق ، وأثار فى عقولهم دوافع الشك فيما

كانوا يعبدون من نجوم وكواكب ، إن ما يعتريه الأفول لا يستحق أن يكون ربًا معبودًا ، لأن الإله غالب لا مغلوب ، وحاجب لا محجوب ، ودعا الله ليقتدى به من يسمعه فقال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من الضالين .

أى لئن لم يثبتنى على الهداية ، فقد منحه الله الهداية .

وطلعت الشمس بنورها الوضاء الواسع ، ودفئها اللافح القوى ، فصاح فيمن حوله لينبه عقولهم ويثير أذهانهم : هذا ربى ، هذا أكبر . فقد محا هذا الكوكب آية الليل وبدد الظلام وأشاع الدفء فى الكون ، وأمد الأجسام بالحرارة ، وأيقظ النائمين ..

ولكن سرعان ما انتهى النهار فغابت الشمس .

فقال : وأنت أيضًا يا من ظنناك أقوى من غيرك يعتريك الأفول ؟

وأنت أيضًا يا من اتخذناك إلهًا جاء من يقهرك ويخفيك ؟

فأنت إذن أيها الكوكب الساطع لا تستحق العبادة .

ولابد من وجود إله خلق كل هذه الأشياء جميعًا .

هو الذى خلق النجم والقمر والشمس ، وخلق أيضًا الإنسان والحيوان والنبات والماء والهواء والظلمة والضياء .

هذا الإله هو الذى يستحق العبادة ..

هو الإله الواحد الأحد ..

ثم أعلن ذلك فى صراحة ووضوح قائلاً : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُون . إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[٣٧] .

ولكن القوم الذين كان قد أثار أذهانهم وحثهم على التفكير وجذب انتباههم رفضوا الاستجابة لدعوته .

---

(٣٧) الأنعام ٧٨ - ٧٩ .

إن العقيدة لا يسهل اقتلاعها سريعًا من نفوس معتنقيها . إنها تحتاج إلى زمن ، وليس من السهل أن يغير المرء دينه ..

إلا أن حجة إبراهيم القوية وطريقته فى النقاش لاشك أنها حركت فى عقولهم التفكير ، وبعثت فى نفوسهم الشك فى عبادتهم ..

ومال بعض الناس إليه ، ودار حوار حول ما أثاره إبراهيم من قضايا .

ولكن دهاقنة الشر وتجار الأديان وخزنة الأوثان لا يمكن أن يستسلموا لهذا الفتى الذى جاءهم بفكر جديد ودين جديد .

إنها قصة كل نبى فى كل زمان ومكان ..

وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ . وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾[٣٨] .

وإذ يقول : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[٣٩] .

هؤلاء الشياطين أقبلوا على إبراهيم يحاجونه فيما جاء به ، ويجادلونه في دعوته ، ظنًا منهم أنهم يستطيعون التأثير عليه ، أو التغلب على فكره ورأيه .

ولكن نصاعة الحجة لا يمكن أن يثبت أمامها زيف الباطل وزخرف القول . وجلال الحق لا يقف معه زور الكذابين ودجل الدجالين .

لقد أجابهم إبراهيم – عليه السلام – فى بساطة :

أتحاجّونى فى الله وقد هدانى ؟

---

(٣٨) الأنعام ١١٢ ، ١١٣ .
(٣٩) الأنعام ١٢٣ .

والمكابر إذا غُلب لجأ إلى التهديد والوعيد - كما قلنا - .

لقد هددوه بانتقام الآلهة وحذروه عاقبة مهاجمتها والحط من شأنها . وقالوا : حذار أيها الرجل أن تغضب الآلهة ، إنها تسحق من يكفر بها سحقًا وتصعقه صعقًا ، وظلوا يخترعون له من الأكاذيب ما عساه يدخل الروع إلى قلبه ، أو يجعل الفزع يتسلل إلى داخل نفسه ، ولكنه أجابهم في تهكم بالغ : أَنَا لَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ..

إن هذه الأصنام لا تعلم مما تقولونه عنها شيئًا ، إنها صماء لا تسمع بكماء لا تتكلم ، إنها مجرد نجوم لامعة لا تزيد على أنها من خلق الله ، تؤدي دورًا معينًا في الحياة . أما علمتم أن كل شيء مسخر للإنسان ليتفرغ لعبادة ربه ؟ وهذه النجوم والكواكب مسخرة لنا وحقًا ذلك ، وهو لسان إبراهيم عليه السلام ، وهو ما جاء به بعد ذلك القرآن الكريم ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٤٠].

هذه المخلوقات التي تعبدونها لا تعلم عنا شيئًا .

أما ربي الذي أعبده فقد وسع كل شيء علمًا .

إنه يحصي كل دقائق حياتنا ويعلم ما نخفي وما نعلن وإليه النشور .

ثم نظر إليهم في رثاء ، وقد أدرك أن حياتهم مليئة بالقلق والخوف ، وأن الإرهاب يحيط بهم من كل جانب ، لقد فقدوا الاطمئنان في الحياة ،فلا أمن في طريقهم ، ولا أمل يراود نفوسهم ، وقد أرهقهم العسف والجور ، وخلت قلوبهم من الفرحة ، في عيونهم دموع مكبوتة ، لا تعرف البسمة طريقها إلى شفاههم ، ذلك أنهم علقوا مصايرهم بمخلوق لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً .

---

(٤٠) الجاثية ١٣ .

ولو أنهم علقوا آمالهم بالله ورفعوا أكف الضراعة إليه ، واتجهت ضمائرهم نحو حماه ، وأشرق نوره فى قلوبهم لعرفوا كيف يكون الأمن ، ولأدركوا سر السعادة ، ولذاقوا طعم الراحة ، ولأحسوا بنعمة الحرية ..

إن الإيمان هو صمام الأمن الوحيد فى هذه الحياة .

وبدون الإيمان لا يشعر الإنسان بالأمان ، مهما أحاط نفسه بسياج من الحراس والحفظة . وأحاط بقصره الجنود المدججون بالسلاح .

وهذه قاعدة عامة تصلح لكل زمان ومكان .

فالمؤمن فى حمى الله ، والذين فى حمى الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

لقد ألقى المؤمن حمله على ربه فكفاه همه وكفل له رزقه ، وأفرغ الرضا فى نفسه ، وثبت باليقين خطاه ، فأصبح يهتف مع الهاتفين : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾(٤١) .

لقد أذهل إبراهيم – عليه السلام – القوم بحجته التى ألهمها الله إياه ، واستطاع أن يقهر بهذه الحجة خصومه ، وأن يثير بها الشك فى نفوسهم نحو ما كانوا يعبدونه من كواكب أو أصنام .

ولنقرأ هذه القصة كما صورها كتاب الله الخالد :

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾

---

(٤١) إبراهيم ١٢ .

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[٤٢]

طريقة إبراهيم فى الهداية :

لقد كانت طريقة إبراهيم فى هداية قومه هى الحوار الهادىء .

وقد اتبع هذه الطريقة مع كل الأطراف التى يقوم بإبلاغها دعوته ، إن الله رزقه الجنان الثابت والعقل الثاقب واللسان الصادق والحجة القاطعة والبرهان الناصع . وبهذا كله سار إبراهيم فى طريقه يدعو إلى الله .

وكان إبراهيم - عليه السلام - قبل أن يدعو الناس إلى الله دعا أباه .

وهذا أمر منطقى فالأقربون أولى بالمعروف ، وقد قال الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾[٤٣] فبدأ بهم فى دعوته .

---

(٤٢) الأنعام ٧٥ : ٨٢ .

(٤٣) الشعراء ٢١٤ .

وكان والد إبراهيم – كما علمنا – من دهاقنة الكفر وسدنة الأصنام ، يروج لها ليل نهار ، يصنعها بيده ثم يبيعها للناس ، وهو مع ذلك يدعو الناس إلى عبادتها وتقديسها والتقرب إليها بشتى القرابين ، وهو المستفيد من ذلك على أى حال .

وقد بلغ آزر بذلك منزلة كبرى فى نفوس الناس ، فهو صاحب كلمة نافذة فى بلاط أصحاب الجلالة الأصنام التى لا تنفع ولا تضر ..

ولكن مع ضلال العقول يتوهم الواهمون ما لا يكون ..

حواره مع والده :

وأقبل إبراهيم على أبيه يقول له :

يا أبت لم تعبد هذه الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عنك شيئًا يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟

وقد استنكر آزر هذه اللهجة من ولده ، ودهش منه أن يوجه هذا السؤال إليه ، ولعله سأله عن سبب ذلك .

فقال له إبراهيم – عليه السلام – :

إن الله أعلمنى بما لم يعلم به أحدًا ، وخصنى برسالة أبلغها لعباده ، فأنا عبده ورسوله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون .

إن هذه الرسالة تقتضي الاتباع ، وأنت يا أبت أقرب الناس إلىّ ، وأحق من يسرع إلى إجابة ما أدعو إليه ، إن فيه الهداية والرشد . فاتبعنى يا أبت أهدك صراطًا سويًا .

ولاشك أن آزر اشتد إنكاره على ولده ، وانتهز الشيطان هذه الفرصة فأوغر صدره عليه ، وزين له أن ما يدعو إليه ولده باطل لا ظل له من الحقيقة ، وقد تنبه إبراهيم لذلك فأراد أن يبين لأبيه أن ما يدعو إليه حق من الله ، وأن هذه الأصنام من تزيين الشيطان للناس لأنه يريد أن يصدهم عن السبيل القويم والطريق المستقيم فقال لأبيه :

يا أبت لا تتبع الشيطان ولا تغتر بباطله ، إن الشيطان عدو للحق وهو عاص لله ، وقد أقسم بعزة الرحمن أن يغوى آدم وذريته قائلاً : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ ﴾ .

ومن البديهى أن يزداد استنكار الأب لابنه الذى جاء ليقوض نفوذه ويقضى على أطماعه ، ويقتلع ببساطة تلك المكانة التى تربع بها الأب على عرش قلوب الناس ، ويبدد فى لحظة ثروة سخية مستمرة تنصب كل يوم فى خزائنه ..

إن العذاب الذى يلوح به إبراهيم لأبيه شيء خيالى لا ظل له من الحقيقة . وجهنم التي يتحدث عنها فى الآخرة شيء لا يخطر على بال إنسان . لقد خلق الناس للدنيا فحسب ، وليس هناك ما يسمى بعثًا ونشورًا أو ثوابًا وعقابًا . لقد جن إبراهيم فى نظر أبيه .

لقد حذر إبراهيم أباه عاقبة كفره .

وهذه العاقبة هى النار التى أعدها الله لأولياء الشيطان ..

وإبراهيم حريص على أن ينجي أباه من هذا المصير السيىء والعاقبة الوخيمة .

ولكن الحجاب الكثيف الذى صنعته المادة على قلب هذا الأب حال دون نفاذ الكلام الطيب والدعوة الحسنة إلى عقله وحسه .

ولقد كان إبراهيم فى منتهى التعقل والهدوء واللين وهو يدعو أباه .

إنه لم ينس لحظة أنه أبوه . وهو يعرف له حقه .

وهو يحفظ حق التربية جيدًا ، ويعرف — كما أوصى الله دائمًا — أن الوالدين لهما احترامهما ، وإن جاهدا الابن على أن يشرك بالله شيئًا فعلى الابن ألا يضيعهما ، بل يصاحبهما فى الدنيا معروفًا ..

وقد أوصى القرآن الكريم بذلك فى قوله – تعالى – : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ . وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٤٤].

وأبو الأنبياء وأحق أن يعرف بذلك . ولذلك لم يكن جافيًا قط فى مخاطبة أبيه – على الرغم من كفره وعناده – .

وهذا هو أدب النبوة العالى .

وكان الأب على عكس الابن تمامًا .

فقد قابل إبراهيم بكل عنف ونكران ، وتهدده بكل أنواع التهديد . بل حاول أن يحمل ابنه على عبادة ما يعبده من أصنام ، ولما رأى عزوف إبراهيم عن ذلك هدده فى أسلوب استفهامى تهديدى قائلاً له :

أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ؟

وهو استفهام له معناه .

ثم خطا خطوة أخرى فى التهديد . لقد هدده بالرجم .

ولم يكتف بذلك بل هدده بالطرد .

فهو لم يقف عند حدود الإعراض عن دعوة إبراهيم والرفض لها ، ولكنه تعدى ذلك إلى التلويح بأشد أنواع القتل ، وهل هناك أفظع من القتل رجمًا ..

وربما كان المقصود بالرجم الشتم والسب كما يقول بعض المفسرين . ولكنه إعراض عن الدعوة على أى حال ..

---

(٤٤) لقمان ١٤ ، ١٥ .

وهو تصرف من والد إبراهيم يدل على شدة الكفر ، الذى يطغى على كل عاطفة ولو كانت عاطفة الأبوة الرحيمة التى تغفر للابن كل شيء .

لقد نسى آزر فى حمأة الكفر الرحمة بالابن والعطف عليه وهدد ابنه برجمه ولوح له بطرده .

الكفر ملة واحدة :

ولقد حدث مثل هذا الموقف من كفار قريش حين جاء الإسلام ، فقد آذى المشركون أولادهم الذين أسلموا ، وتحجرت عاطفة الرحمة فى نفوسهم نحو أبنائهم ، ولقد تصدى والد أبى عبيدة بن الجراح لابنه فى موقعة بدر فى كوكبة من فرسان المشركين ، وترصده فى كل طريق حتى سد أمامه منافذ النجاة وكان حريصًا على أن يقتله ، فلم يكن بد أمام أبى عبيدة من قتال هؤلاء ليخلص من شرهم حتى قتلهم جميعًا .

لقد كان الأب حريصًا على قتل ابنه ، وهذا من أعجب ما يفعله الكفر فى النفوس ، إنه يقطع أواصر القربة ويقضى على وشائج الرحم ، ويضيق الصدر فلا يصبح فيه منفذ للرحمة والمودة .

وبعكس ذلك الإيمان . إنه يسكب الرحمة فى القلوب ، ويفيض المودة فى النفوس .

فماذا كان موقف إبراهيم أمام تهديد أبيه السافر ؟

قال لأبيه : سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيًا .

لم يكتف إبراهيم بتوجيه السلام لوالده ، ولكنه شفع ذلك بالاستغفار له .

ولكن ماذا يجدى الاستغفار للكافر ؟

إنه لا يجدى شيئًا .

ولكنها الرحمة التى تلازم الإيمان ، والطهارة التى يفيض بها قلب المؤمن الذى عرف طريقه إلى ربه ، فزال منه الحقد والشر .

وظل إبراهيم يستغفر لأبيه فترة طويلة حتى نُهى عن ذلك ، وتيقن إبراهيم أن أباه مات مشركًا . وفى ذلك يقول الحق – تعالى – : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾[٤٥].

ويعلمنا ذلك عدم جواز الاستغفار للمشركين ولو كانت تربطنا بهم صلة القرابة أو المودة ، فالقرابة الحقيقية هى ما بين المؤمنين ، والمودة المثلى لا ينبغى أن تكون إلا بين المتقين ..

وقد نهانا الله عن أن نتخذ المشركين وأصفياء ماداموا مصرين على حربنا معدين العدة لقتالنا قائلاً فى صراحة واضحة : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾[٤٦]..

وقد حاول النبى – ﷺ – مع عمه أبى طالب أن ينطق بالشهادتين ليستحق بذلك شفاعة الرسول – ﷺ – دون جدوى . ولكنه على الرغم من منافحته عن النبى ومناصرته له أبى أن ينطق بالشهادتين ..

وحث الله – تعالى – المؤمنين على الاقتداء بإبراهيم – عليه السلام – فى ترك الاستغفار للمشركين ، وقال فى ذلك :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾[٤٧]

---

(٤٥) التوبة ١١٤ .
(٤٦) الممتحنة ١ .
(٤٧) الممتحنة ٤ .

وحين أدرك إبراهيم – عليه السلام – أن أباه مصر على عبادة الأوثان اعتزله وهجره ، واكتفى بذلك . ولكن بقى فى قلبه تطلع إلى أن يسلم ، ورجاء فى الله أن يهديه .

وربما لم ينقطع رجاء إبراهيم فى قبول استغفاره لأبيه حتى يوم القيامة ، فقد روى البخارى : يلقى إبراهيم أباه يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصنى ؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : يارب إنك وعدتنى أن لا تخزينى يوم يبعثون ، فأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله : إنى حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فينظر فإذا هو بذبح متلطخ بقوائمه فيلقى فى النار(٤٨).

ولنقرأ قصة إبراهيم فى حواره مع والده كما وردت فى القرآن الكريم :

﴿وَاذْكُرْ فِى الْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ

(٤٨) البخارى جـ ٥ ص ٢٠٢ كتاب التفسير حديث ٢٦٢ ، وقصص الأنبياء لابن كثير ص ١٣٤ .

سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾[٤٩]

وكما كان إبراهيم لبقًا لطيفًا هادئًا فى دعوة أبيه كان كذلك فى دعوته لقومه ، لا يلجأ إلى العنف ، ولا يميل إلى الحدة ، كان متبعًا لذلك المنهج الذى أوصى به الله – تعالى – نبيه محمدًا – ﷺ – بقوله : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[٥٠].

إبراهيم فى مصر :

مكث إبراهيم فى حران ما شاء الله له أن يمكث ، وبدا له أن يرحل إلى مصر .

واختلف الرواة فى سبب رحلته ..

فمنهم من يرجعها إلى قحط البلاد حتى ضاقت سبل العيش فى الشام . فرحل إبراهيم – عليه السلام – إلى مصر ، ومعه سارة ، وكان قد تزوجها بعد أن آمنت به[٥١].

ومنهم من يقول : إنه حين كان فى حران عمل بالتجارة حتى أثرى ، فرحل إلى مصر متاجرًا[٥٢]..

كانت مصر حين دخلها فى يد الهكسوس[٥٣] الذين استولوا عليها بعد معارك ضارية ، وظلوا محتلين لها فترة طويلة من الزمن .

---

(٤٩) مريم ٤١ : ٤٨ .
(٥٠) النحل ١٢٥ .
(٥١) قصص القرآن لجاد المولى ص ٤٦ ، وقصص الأنبياء لابن كثير ص ١٤٨ .
(٥٢) بدائع الزهور لابن إياس ص ٨١ .
(٥٣) الكعبة لأمينة الصاوى ص ٣٣ .

كانت سارة ذات جمال باهر ، وهى ابنة عم إبراهيم ، وكانت ممن آمن معه فى بابل وهاجرت معه إلى حران .

ورأت بطانة السوء سارة ، وبطانة السوء فى كل مكان وزمان يحيطون بالسلطة ولا همّ لهم إلا تزيين الشر للملوك والأمراء ، فأخبروا الملك بجمالها وأغروه بها .

فاستدعى الملك إبراهيم وسارة .

وخشى إبراهيم أن يقول إنها زوجتى فيقتله الملك لتخلص إليه . ولكنه رجا من قوله إنها أختى أن يبقى لأن الملك لن يجد سببًا لقتله ، وتكون هناك فرصة أمام إبراهيم يدبر أمر تخليصها من براثن هذا الشرير .

فقال للملك حين سأله عن سارة : إنها أختى .

وهى إجابة تتسم بالمرونة والذكاء .

وقال لها : إن سألك عنى فأنا أخوك ، وأنت أختى فى دين الله قبل أن تكونى زوجتى .

إن هذه القولة ذريعة لتخليص سارة من هذه الورطة .

وحين عرف الملك بأنها ليس لها زوج أمر بإدخالها قصره ، وضمها إلى حريمه ، وزينت بأفخر الثياب وأجمل الحلى ، وهى جميلة بطبعها ليست فى حاجة إلى زينة إضافية .

ورآها الملك فخطفت عقله ، وجن بها جنونًا .

وحاول الاقتراب منها ، ولكن الله عصمها منه ونجاها من شره ، لقد شلت يده . وأدرك أن فى هذه المرأة سرًّا لا يفهمه ، فطلب العفو منها فعفت عنه ، فأطلقت يده .

ووسوس إليه الشيطان ، وزين له أنها لا شأن لها بقبض يده وشلها ، فعاود الكرة ، فيبست يده .

فاضطرب وخاف ، وعرف أن هذه المرأة ليست كسائر النساء ، والدليل على ذلك أنها ليست متهافتة عليه كما تتهافت النساء على الملوك . لقد رأى نساء كثيرات غيرها كن يتطلعن فى شوق إلى هذه اللحظة المرتقبة معه .

أما هذه فمعتصمة بوقار الإيمان ، مستمسكة بحبال اليقين ، متذرعة بحمى الصبر ، تتمتم شفتاها بصلاة خافتة لا يعرفها ، ولكنها تدعو الله فيها أن ينجيها من شر ذلك الشيطان ويحفظها من رجسه ، ويحجبها بحوله وقوته من بطشه .

لقد أحس الملك برهبة منها ، وبدلاً من أن ينظر إليها نظرة المفتون نظر إليها نظرة التائب المستغفر .

أجاب الله دعاءها ، وحماها من صولة هذا المعتدى .

وجعلَ هذا الملك الذى يتهالك الناس على الارتماء تحت أقدامه يعتذر إليها ويطلب منها أن تعفو عنه .

ثم أمر بردها إلى أخيها مصحوبة بالعناية الفائقة والرعاية الكريمة والهدايا الكثيرة الثمينة ، ولم يكتف بذلك ، بل وهبها جارية نضرة كانت يومًا ملكة فى هذا القصر قبل أن ينتزعه الهكسوس من زوجها الذى مات دفاعاً عن بلده .

وأصبحت هذه السيدة المتوجة جارية فى هذا القصر ، بعد أن استولى هذا الملك عليه .. هذه الجارية هى هاجر التى أصبحت فيما بعد أم إسماعيل وأم العرب .

وعادت سارة ومعها هاجر إلى إبراهيم ، وأنست كل منهما إلى الأخرى .. وارتفعت العلاقة بينهما من مستوى سيدة وجاريتها إلى مستوى صديقة وصديقتها .

ولعل سارة بصرت هاجر بما تدين به فاستجابت لها ، ووجدت هاجر فى ظل العقيدة الصحيحة والإله الواحد مطمحًا كانت ترنو له وتتطلع إليه حتى وجدته بين هذين الرفيقين الصالحين إبراهيم وسارة .

وأقام إبراهيم في مصر فترة من الزمن ، كان موضع رعاية وعناية وحب ، ولم ينس في هذه الفترة دعوته إلى ربه ، فكان يبشر بها بأسلوبه الرفيق وكلامه الرقيق .

ولكن بطانة الشر لا تنأى عن الشر ولا تكف عن البغى .

لقد حسدوا إبراهيم على مكانته ، وحقدوا عليه ، وكادوا له على ما وصل إليه من منزلة رفيعة فى قلوب الناس . فرفعوا تقاريرهم المشبوهة الملفقة التي اصطنعوها وتوارثوها عبر الأجيال ثم وَرَّثوها ..

ولعلهم ضمَّنوا هذه التقارير أن إبراهيم ليس تاجرًا ، وليس طالب عطاء ، ولكنه طامع فى السلطة ، مغامر يبحث عن سبب الوصول إلى هدف . متخذين مِن التفاف الناس حوله وحبهم له أسبابًا لما يزيِّفون ومبررات لما يفترون .

وربما أوغرت دعوة إبراهيم إلى الله صدور الكهنة الذين يروجون لعبادة الآلهة المتعددة فى مصر فخشوا على نفوذهم ، فبيت كل من هؤلاء وهؤلاء الشر لإبراهيم .. فعرف أن مصر ليست بدار أمان له ، فتركها وعاد إلى الشام ..

إبراهيم فى فلسطين :

وفى أرض فلسطين حط إبراهيم رحاله بعد خروجه من مصر ..

وكان قد خرج من مصر وله مال ، ما زال ينميه حتى كثر وزاد ، وبارك الله فيه فتضاعف مرات ومرات .

وأقام مع قوم فى واد يقال له وادى سبع ، وهو الذى يسمى بئر سبع الآن ، وهو مكان يقع جنوبى فلسطين ، وبه عدة عيون يقال إن إبراهيم هو الذى حفرها بيده[٥٤].

---

(٥٤) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٨ ص ٥٥٥ .

ومازال إبراهيم يثمر أمواله ، حتى ضاقت الأرض بما فيها من أنعام وماشية على المقيمين بها ، فطلب القوم الذين أقام إبراهيم بينهم منه أن يرحل عنهم .

واستاق إبراهيم - عليه السلام - ماشيته وأنعامه ، وأخذ أهله وسار متجهًا إلى الشمال ، وكأنه أخذ البركة معه ، فما أن ارتحل حتى جفت الآبار ، وكاد القوم الذين طلبوا إليه أن يرحل أن يهلكوا عطشًا .

فأسرعوا خلفه يرجونه العودة إليهم ، ولكنه نبى ومن مقدمة أولى العزم منهم فكيف يغير عزمه ؟ ، لقد رسم له الله طريقًا فهو يسير فيه ، وما يحدث من الناس حين يطلبون منه الرحيل ما هو إلا مجرد أسباب لتنفذ المقادير ..

فأبى إبراهيم - عليه السلام - العودة إليهم ، فشكوا إليه العطش ، فأعطاهم سبع نعاج وقال لهم : أوقفوا على كل بئر من الآبار السبع نعجة يأتكم الماء . ففعلوا فعاد الماء ، وهذا هو سر تسمية المكان باسم وادى سبع .

وأوحى الله إلى إبراهيم أن يمد بصره جهة الجنوب والشمال والشرق والغرب ، وبشره أن كل ما تقع عليه عينه سيجعله الله له ولذريته بعده إلى آخر الدهر .

يا لها من بشرى عظيمة ، بل بشريات ..

بشرى بالاستقرار وبشرى بالبركة وبشرى بخلود الأثر ، والأهم من ذلك بشرى الولد الذى تجيء منه الذرية التى وعد الله بها ، فإلى هذا الوقت لم يكن لإبراهيم ولد ، فقد كانت سارة عقيمًا لا تلد .

وها هى ذى تتحقق البشرى ، ويجيء الولد ، وتصبح لإبراهيم ذرية مباركة عظيمة ، ثمارها هذه الأمة العربية التى تعمر هذه الديار المباركة ، التى بارك الله فيها ، وبعث منها الرسل والأنبياء ، وفى هذا المكان نشأت مدينة الخليل التى سميت باسم خليل الرحمن ، ونشأت مدينة القدس قريبًا منها ، وفيها بنى بيت المقدس ثانى مسجد بنى بعد بيت الله الحرام ..

وقريبًا من مدينة الخليل أيضًا أقام نبى الله لوط ، ابن أخى إبراهيم الذى هاجر معه من بابل ، أقام فى أرض الغور فى الأردن ونزل فى مدينة سدوم على شاطيء البحر الميت من فلسطين .

إبراهيم يتسرَّى بهاجر :

ونظرت سارة إلى زوجها الخليل – عليه السلام – وقد عزَّ عليها ألا يكون له عقب منها ، وكانت تحبه كثيرًا ، ومن حولهما الخير الكثير الذى فاض وعم وملأ الوديان ، وهذا المال فى حاجة إلى من يرعاه بعد إبراهيم . وإبراهيم فى حاجة إلى من يحمل اسمه من بعده ، وهى عقيم لا تلد ، وقد كبرتْ فى السن إلى درجة الإياس .

لقد فكرت سارة فى ذلك كله . وانتهت إلى قرار نفذته راضية بدافع حبها لزوجها . وكان هذا القرار هو أن وهبته هاجر جاريتها . وتحت إلحاح شديد قبل إبراهيم الهبة ، وتسرَّى بهاجر ، وكان منها إسماعيل الذبيح ، وهبه الله لإبراهيم قرة عين ورضاء نفس ، ومثار أنس .

وسعدت الأسرة بالمولود الجديد الذى ملأ البيت أنسًا وبهجة ، ولكن عوامل الغيرة الطبيعية تحركت فى نفس سارة . وطلبت من إبراهيم أن يُغيِّبَ هاجر وإسماعيل عنها حتى لا تراهما . فكانت رحلته بهما إلى مكة المكرمة ..

ونزل بهما هناك بجوار ربوة حمراء بنى فوقها بيت الله الحرام فيما بعد ..

وسيأتى تفصيل ذلك – إن شاء الله تعالى – فى قصة خاصة بإسماعيل الذبيح .

وعاد إبراهيم – عليه السلام – إلى فلسطين ، وأخذ يمارس حياته ويدعو من حوله إلى الله .

ولكنه مع ذلك يشعر بالوحدة ، وليس له ولد يأنس ليه ، وقد تقدمت بزوجه السن ، وابنه الذى أنعم الله به عليه أودعه مع أمه فى مكان قاحل لا نبات فيه ولا ماء ، فى أرض « فاران » حيث ظهرت مكة بعد .

حقًا إنه تركهما فى رعاية الله الذى لا تضيع عنده الودائع ، ولكن قلبه ظل معلقًا بهما ، إنه قلب بشر على أى حال ولو أنه نبى ، ومن قال إن

النبى لا يعتريه الشوق إلى ابنه وبخاصة إذا كان بعيدًا عنه ، وأرق الناس عاطفة هم الأنبياء .

وقد سئل أحد الحكماء : من أحب أبنائك إليك ؟ فقال :

صغيرهم حتى يكبر ، ومريضهم حتى يشفى ، وغائبهم حتى يعود .

وهذا حق . فما بالك إذا كان صغيرًا غائبًا ضعيفًا ؟

لاشك أنه يستأثر بالحب كله والعطف كله والشوق كله .

لا تتعجب إذا كان إبراهيم – عليه السلام – مقيمًا بالشام ، وقلبه يخفق بالوليد الذى تركه مع أمه وحيدًا بجبال فاران ..

البشارة بإسحاق :

وكان لإبراهيم بيت للضيافة ، يستقبل فيه الغرباء ويكرمهم ، ويبحث عن الضيوف إن أبطأوا عنه ، ويستبشر بقدومهم ، ويقربهم ويقدم لهم أشهى الأطعمة ويقوم نحوهم بالواجب على أتم ما يكون .

وفى يوم جاء إليه ثلاثة ضيوف غرباء ، لم ير أجمل منهم شكلاً ولا أحسن سمتًا ولا أنضر منظرًا .

ففرح بقدومهم ، ورحب بهم ترحيبًا شديدًا ، وأنزلهم فى بيت ضيافته ، وأسرع إلى بيته يطلب أن يُشوى لهؤلاء الضيوف الشرفاء عجل سمين .

وجلس إبراهيم – على عادة الكرماء – يسامر ضيوفه حتى نضج الطعام . ومدت المائدة ، وقدم العجل المشوى تسبقه رائحته الشهية ويسيل منظره اللعاب .

ومن عادة الضيف أن يكرم مضيفه بتناول طعامه .

وعزم إبراهيم على هؤلاء الضيوف أن يتقدموا للطعام ، ولكنهم أبوا .

فاستراب فى أمرهم ، وأوجس فى نفسه خيفة منهم .

إن الضيف إذا أكل من طعام مضيفه دل ذلك على الأمان ؛ وأصبح بينه وبيه ذمام ، لأن حرمة العيش والملح - كما يقال - لها أثر فى تقوية الصحبة وتثمير المودة ، ولكنه إذا رفض طعامه فكأنه رفض صحبته وأباح حرمته ..

وسألهم إبراهيم : مالكم لا تأكلون ؟

عند ذلك كشف الملائكة له عن أنفسهم ليطمئن ، وعرفوه بأنهم ليسوا بشرًا ، ولكنهم رسل ربهم إلى قوم لوط الذين عاشوا فى الأرض فسادًا ، وأبوا مع نبيهم إلا عنادًا ، فهم لم يصيخوا السمع إلى دعوة لوط ، ولم يقبلوا منه قولاً ، ولم يستجيبوا له نصحًا ، واستمروا فى فجورهم وعبثهم ، فأرسلهم الله لعقاب هؤلاء العصاة الفجرة .

لقد طمأن الملائكة إبراهيم ، وشكروه على إكرامه لهم ، وكافأوه على ذلك بأن بشروهُ بأن الله سيرزقه من زوجه البارة سارة غلامًا عليمًا ، يؤنس وحدتهما ، ويبدد وحشتهما ، ويملأ الحياة من حولهما بهجة وسرورًا ، وسيمتد بهما العمر ليريا له ذرية طيبة مباركة ..

وكانت سارة واقفة تسمع هذا الكلام فضحكت .

ولعلها ضحكت عجبًا ، ولعلها ضحكت استبشارًا .

ولئن عجبت فإنه يحق لها أن تعجب ، ولعل إبراهيم عجب معها أيضًا .

كيف تلد من أشرفت على الثمانين ولعلها فاقتها ؟

وكيف يكون لابن المائة والعشرين أو تزيد ولدٌ ؟

ولكن الله إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون .

ولقد حكى القرآن الكريم ذلك كله ، متحدثًا عن مختلف الأحاسيس النفسية التى راودت كلا منهما فى أسلوبه المعجز قائلاً :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ

إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴿٧٠﴾ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿٧١﴾ قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب ﴿٧٢﴾ قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾[55]

وفي موضع آخر يقول :

﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴿٢٤﴾ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون ﴿٢٥﴾ فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ﴿٢٦﴾ فقربه إليهم قال ألا تأكلون ﴿٢٧﴾ فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴿٢٨﴾ فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ﴿٢٩﴾ قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴿٣٠﴾ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴿٣١﴾ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾[56]

وفي سورة أخرى يقول :

﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم ﴿٥١﴾ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون ﴿٥٢﴾ قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم ﴿٥٣﴾ قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون ﴿٥٤﴾ قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ﴿٥٥﴾ قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾[57]

وتحققت البشرى ، وحملت سارة على الرغم من كبر سنها .

وعاشت حتى رأت اسحاق يولد له ، وقد ولد له يعقوب ، وسيأتى تفصيل لذلك إن شاء الله تعالى .

---

(٥٥) هود ٦٩ : ٧٣ .

(٥٦) الذاريات ٢٤ : ٣٢ .

(٥٧) الحجر ٥١ : ٥٦ .

لوط - عليه السلام - :

ويستدعى ذلك الحديث عن لوط - عليه السلام - لارتباط قصته بإبراهيم - عليه السلام - .

ولوط هو ابن أخى إبراهيم ، فهو ابن هاران بن تارح .

وتعليل اسمه عربيًا فيه تكلف ، حيث يقول الثعلبى : سمى لوطًا لأن حبه لاط بقلب إبراهيم - عليه السلام - أى تعلق به ولصق .

والمعروف أن هذا ليس علمًا عربيًا ولكنه أعجمى ، وصُرِف لأنه ساكن الوسط كنوح وهود .

وكان لوط فى بابل مع أسرة إبراهيم كلها .

وآمن لوط مع إبراهيم عليهما السلام . قال - تعالى - : ﴿ فآمن له لُوطٌ ﴾[٥٨].

وهاجر مع إبراهيم إلى الشام حين رفض النمروذ الاستجابة لدعوة إبراهيم وضيق عليه الخناق وعلى المؤمنين به .

قالوا : وهاجر أيضًا مع إبراهيم أبوه « تارح » وهو آزر ، ولكنه ظل مقيمًا على كفره[٥٩].

وربما هاجر - لو صح ذلك - لأن النمروذ لم يطق أن يرى أحدًا يمت إلى إبراهيم الذى عارضه بصلة ، وقد تكون المحاورة التى تمت بين إبراهيم وأبيه حدثت بعد هجرته معه ، فقد طمع إبراهيم حينئذ فى أن يترك أبوه ما هو عليه من وثنية .

---

(٥٨) العنكبوت ٢٦ .

(٥٩) قصص الأنبياء للثعلبى ص ١٠٤ .

ورحل لوط أيضًا مع عمه إبراهيم إلى مصر ، وعاد معه من مصر إلى فلسطين . ولكن لوطًا نزل في وادى الأردن في مدينة سدوم ، وبعثه الله إلى أهل هذه القرية التي كانت تعمل الخبائث .

كان قوم لوط أهل كفر وفاحشة ، وقد افتنوا في ارتكاب المنكر الذى زينه الشيطان لهم ، فكانوا يأتون الرجال ويقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر .

لقد كان هؤلاء القوم أفجر الناس وأشدهم كفرًا وضلالاً ، وأسوأهم طوية وأردأهم سيرة وأخبثهم سريرة ، وكانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، ويكفى أنهم ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم أحد إليها وهى أنهم كانوا يأتون الذكران من العالمين .

وعمت الفاحشة في الذكور والإناث ، وشاع الشذوذ الجنسى منهم شيوعًا خطيرًا ، ففى الذكور اللواط ، وفى النساء السحاق الذى هو نتيجة طبيعية للواط .

وقام لوط بتكليف من ربه - تعالى - بدعوتهم إلى عبادة الله وحده ، وترك الفاحشة ، والابتعاد عن ذلك المنكر الذى ابتدعوه .

ولكنهم لم يعيروا لوطًا التفاتًا ، ولم يصيخوا إلى نصحه ، ولم يستمعوا إلى قوله ، بل استهزءوا به وسخروا منه .

وهموا بطرده من بينهم قائلين بعضهم لبعض : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[٦٠].

إنه غريب عنهم ، وافد عليهم ، ولا وصاية له عليهم ، فكيف يقبلوه قوله ؟

بل العجب كل العجب أنه ينتقد سلوكهم ويستهجن فعلهم بدلاً من أن يجاريهم ..

---

(٦٠) النمل ٥٧ .

أما طلبهم إخراجه من بينهم لأنه وأهله يتطهرون فهو فى منتهى الدلالة على حقهم وعته عقولهم ، لأنهم حولوا ما يتمدح به الناس من طهارة إلى رجس مذموم .

ولم يكتف هؤلاء القوم الذين خلعوا برقع الحياة ، وجاهروا بالمعاصى ، وارتكبوا الفحشاء على قارعة الطريق وفى المنتديات ، وبلغوا الغاية فى السفه ، لم يكتفوا بمحاولة إخراج لوط وآله من القرية ، ولكنهم تحدوه سافرين قائلين له : ﴿ إِئْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾(٦١).

ومن الغريب أن يتمالأ القوم جميعًا على الفحشاء ، كبيرهم وصغيرهم ، شيبهم وشبانهم ، رجالهم ونساؤهم ، ويتعاونوا فيمًا بينهم على الإثم والعدوان ، لا يوجد بينهم أديب ، ولا يظهر منهم أريب ، كأن الشيطان قد طبعهم كلهم بطابعه ، فلم يشذ واحد منهم عما فرضه عليهم من بغى وفساد .

وما زال لوط على الرغم من ذلك يواصل فيهم دعوته ، وينشر بينهم كلمته ، ويحثهم على الصلاح ، ويحذرهم من الفساد ، ويخوفهم شدة العقاب وسوء المصير ولكن دون جدوى .

ولم يجد لوط بدًا بعد أن استفرغ فيهم صبره وبذل قصارى جهده من أن يستنصر الله عليهم ، فقد اشتد إيذاؤهم له وازدادت سخريتهم به وبأهله ، فسأل الله قائلاً : رب انصرنى على القوم المفسدين ..

لقد ضجت السموات والأرض من ظلمهم ، وأنفت الملائكة من شرهم وبغيهم ، وللملائكة غيرة على حرم الله ، وقديمًا قالوا للحق - تعالى - حين أخبرهم أنه جاعل فى الأرض خليفة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾(٦٢) فأمنوا على دعوة

---

(٦١) العنكبوت ٢٩ .

(٦٢) البقرة ٣١ .

لوط ، ورجوا نصرة الله له ، واستجاب الله دعوته ، فكان عقابه لهؤلاء القوم عبرة لمن يعتبر .

لقد أرسل الله ملائكته : جبريل وميكائيل وإسرافيل لعقاب هؤلاء المردة ، ومروا أولاً بإبراهيم في صورة إنسية ، فحسبهم ضيوفًا وذبح لهم عجلاً سمينًا ، ولكنهم عرفوه بأنهم ملائكة الله جاءوا ليعاقبوا قوم لوط .. وبشروا إبراهيم بإسحاق - كما قدمنا - .

محاورة إبراهيم للملائكة :

ولكن إبراهيم الذى أتاه الله رحمة فى قلبه وحلمًا فى عقله ، أشفق على ابن أخيه، وأسرته ، وأراد أن يستشفع لهؤلاء القوم عسى أن يكون فيهم رجاء .. إن إبراهيم كان يخشى عذاب هؤلاء وفيهم لوط ، لأن النقمة إذا جاءت عمت ، مصداقًا لقول الحق : ﴿ واتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾[٦٣].

أخذ إبراهيم يجادل الملائكة فى أمر قوم لوط فى محاولة أخرى للإصلاح .

ولكن الله كان قد علم أن هؤلاء القوم لا ينتظر منهم نجاح ولا يظهر فيما بينهم فلاح ، ولا يرجى لهم صلاح .

لقد عميت قلوبهم عن كل خير ، وضلت عقولهم عن كل رشاد ، وركب الشيطان رءوسهم ، وعشش الشر فى نفوسهم فلابد من هلاكهم .

قال إبراهيم - عليه السلام - : أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن ؟

قالوا : لا ..

قال : أتهلكونها وفيها مائتا مؤمن ؟

قالوا : لا ..

---

(٦٣) الأنفال ٢٥ .

قال : أتهلكونها وفيها أربعون مؤمنًا ؟

قالوا : لا ..

قال : أتهلكونها وفيها أربعة عشر مؤمنًا ؟

قالوا : لا ..

قال : أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد ؟ إن فيها لوطًا ..

قالوا : نحن أعلم بمن فيها[٦٤] ..

لقد علم الله أنه لا يوجد فى هذه القرية صالح إلا لوطًا .. ولابد أن ينجيه الله قبل أن ينزل العذاب بأهل هذه القرية .

الملائكة فى قرية لوط :

وشاء الله أن يمد لهؤلاء المفسدين فى الغى حتى آخر لحظة لهم حتى لا تكون لهم حجة يحتجون بها عند ربهم .

وسار الملائكة فى صورتهم الإنسية الجميلة ، وطرقوا باب لوط عند غروب شمس .

ورآهم لوط فرحب بهم على وجل وخوف أن يحس بهم قومه فيأتوا للاعتداء عليهم . وكان لوط يحسبهم ضيوفًا .

ولم يكن لوط بخيلاً ، فإن الكرم فى طبعه ، وهكذا يكون الأنبياء .

ولكن استقبال هذه الصور الجميلة سوف يجر عليه من المتاعب ما لا قبل له به .

إنه وحيد بين قوم لئام ، فكيف يحمى ضيوفه من وحشيتهم ؟

---

(٦٤) قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٩٧ .

لقد أصبح مغلوبًا على أمره ، وخشي إن ردهم عن بابه أن يستضيفهم هؤلاء الذئاب ، ويحدث ما يخشاه .

وفتح لهم الباب حفاظًا عليهم ، وسيحاول أن يدفع عنهم جهده ، ورجا الله نصرته .

وكان قومه قد اشترطوا عليه ألاً يستضيف أحدًا إلا بعلمهم ، ولكن كيف يعلمهم وهو يدرك ما سوف يحدث لضيوفه ؟

وهكذا صور القرآن الكريم حيرة لوط - عليه السلام - قائلاً : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾(٦٥).

وحكى بعض الرواة : أن الملائكة حين جاءوا للوط كان في أرض يعمل فيها فتضيفوا له ، فاستحيا منهم وانطلق أمامهم ، وجعل يُعرِّض لهم في الكلام بخبث القوم الذين يعيش بينهم ، على أمل أن يتركوه وينصرفوا ، لقد قال لهم : إن صفة أهل هذه القرية كذا وكذا ، وكرر هذا القول عدة مرات ، ولكن الضيوف مع ذلك مضوا معه ولم يلتفتوا إلى كلامه .

وقال بعضهم : إنهم التقوا أولاً بابنته عند نهر سدوم ، وللوط بنتان ، إحداهما « ريثا » وهي الكبرى ، والثانية « زغرتا » .

فقالوا لها : يا جارية هل من منزل ؟

فقالت : نعم ، مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم - شفقة عليهم من قومها - وانطلقت إلى أبيها ، فقالت : يا أبت أتاك فتيان على باب المدينة لم أر وجوه قوم أجمل منهم ، فاحذر عليهم من قومك .

فجاء بهم لوط ، وأدخلهم إلى بيته ، دون أن يعرف بهم أحدًا من أهل القرية . لم يعرف بهم إلا أهله .

---

(٦٥) هود ٧٧ .

ولكن زوجته - بكل أسف - كانت من هؤلاء القوم الكافرين .

قال الله فى حقها هى وامرأة نوح : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾(٦٦).

فأسرعت هذه الزوجة إلى قومها قائلة لهم : إن مع لوط رجالاً ما رأيت أجمل من وجوههم قط .

﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾(٦٧).

وأحدق هؤلاء القوم بالبيت ، والبيت مغلق ، فتسوروا الجدر .

وحاول لوط أن يدفع عن ضيفه بما أمكنه من جهد ونصح .

قال لهم : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ولاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾(٦٨).

وقال لهم حين يئس منهم : ﴿ يَا قَوْمِ هَؤُلاَءِ بَنَاتِي أَزَوِجُهُنَ لَكُمْ فَانْكِحُوهُن وَهُن أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ ، ولكنهم رفضوا قائلين : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾(٦٩).

وتحسر لوط على أنه غريب بين هؤلاء اللئام ، وتمنى أن لو كانت له عشيرة تناصره ضدهم ، وتدفع عنه كيدهم ، فقال : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾(٧٠).

وظل لوط يدافع عن ضيفه ، ويمنع القوم من دخولهم داره ، حتى اشتد به الضيق وبلغ منه أقصاه ، ودعا الله أن ينصره على القوم المفسدين .

---

(٦٦) التحريم ١٠ .
(٦٧) هود ٧٨ .
(٦٨) هود ٧٨ .
(٦٩) هود ٧٩ .
(٧٠) هود ٨٠ .

لقد نصره الركن الشديد ، وهل هناك ركن أشد من ركن الله – عز وجل – .

وصبر الملائكة الكرام طوال هذه الفترة حتى عرفوا أن لوطًا قد فرغ صبره واستفرغ جهده ، وأنه لن يستشفع لهم إن نزل بهم العذاب .

عند ذلك قالوا له مطمئنين إياه : ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾(٧١).

وخرج جبريل إليهم فضربهم بجناحه فطمس عيونهم فعموا ، فانصرفوا وهم يتوعدون لوطًا بأنهم سيحضرون في الصباح لينالوا مأربهم . وقد أخبر القرآن عن فعل جبريل بهم بقوله :

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴾(٧٢)

قال الملائكة للوط : لا تخش وعيدهم ، إن الله قد فرغ منهم ، إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب .

وطلبوا من لوط أن يسري بأهله آخر الليل ، لا يلتفت أحد منهم إلى الوراء ، إن الله قد كتب لهم النجاة مما سيصيب هؤلاء القوم من عذاب شديد . إن التي سيصيبها العذاب منهم هي امرأته التي أخبرت قومها بشأن الضيوف ودلت عليهم ، فلابد أن تشرب من نفس الكأس التي سيشربون منها ..

وكان اسم هذه المرأة « والهة » أو « والغة » ..

قال الملائكة : لن يجيء الصبح يالوط حتى تخسف القرية بمن عليها وما عليها .

---

(٧١) هود ٨١ .

(٧٢) القمر ٣٧ ، ٣٨ .

وأسرى لوط بأهله كما أمر ، ووصل إلى قرية « صوعر » التي يقال إنها : « غور زغر » .

وما أشرقت الشمس حتى حمل جبريل القرية على جناحيه وارتفع بها حتى بلغ عنان السماء ، وسمعت الملائكة تصايح الديكة ونباح الكلاب ، ثم قلبها رأسًا على عقب . فأصبح عاليها سافلها ، وأتبع ذلك بإمطارها بحجارة من سجيل منضود ، أى متتابع ، كل حجر مكتوب عليه اسم صاحبه ، حتى لقد انتظر الحجر صاحبه الغائب حتى عاد فوقع عليه وأهلكه ، وهذه هى المؤتفكات التى ورد فى حقها قوله تعالى : ﴿ والمؤتفكة أهوى . فغشاها ما غشى ﴾[73].

ولحقت امرأة لوط بأهلها فى العذاب فعلاً .

وأصبحت مدينة سدوم عبرة لمن يعتبر ، وبقيت أطلالها قائمة تشهد بمدى مالحق أصحابها من عذاب أليم ، وجعل الله مكانها بحرة منتنة لا ينتفع بمائها ولا بما حولها من المناطق المتاخمة لها .

وقد جعلها الله فى طريق يمر عليه الناس فى رحلاتهم ، فيرون تلك الآثار من المدينة التى دمرتها القدرة ، لتكون شاهدًا حيًا على أن الله لا يطلب إلا كرامة عباده ، فإذا ما رفضوا هذه الكرامة خسف بهم وألقاهم فى الهوان المقيم والعذاب الأليم . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[74].

لقد كان العذاب شديدًا على قدر الجرم الذى ارتكبه هؤلاء القوم ، وفى ذلك دليل على أن تلك الجريمة تستحق من المشرع أقسى عقاب ، وقد ذهب الفقهاء إلى وجوب الرجم لمقترف هذه الفاحشة ، وبعضهم أوجب إلقاءه من شاهق ثم يتبع بالحجارة بعد ذلك .

---

(٧٣) النجم ٥٣ ، ٥٤ .
(٧٤) ق ٣٧ .

لقد خلق الله الإنسان وميزه بالعقل ، وأحل له الطيبات وحرم عليه الخبائث ، فإذا ما نفر من الطيبات وجرى وراء الخبائث فقد استهان بشرف خلقته وارتد عن رفعة منزلته ، وانتكس إلى أحط مكانة واستحق بذلك أقصى عقاب وأشد عذاب .

عود إلى ذكر إبراهيم :

وكرم الله إبراهيم - عليه السلام - فعهد إليه ببناء الكعبة المشرفة ، فقام بذلك على أكمل وجه وأرضاه ، وساعده فى ذلك ابنه إسماعيل الذى تعرض لمحنة الذبح فخاض التجربة هو وأبوه وخرجا منها ظافرين مرضيًا عنهما من الله .. وسيأتى تفصيل ذلك كله فى قصة خاصة بإسماعيل ، وقصة خاصة بالكعبة المشرفة - إن شاء الله تعالى - .

وفى شأن بناء الكعبة يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾(75).

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾(76).

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾(77).

---

(75) البقرة ١٢٥ .
(76) البقرة ١٢٧ .
(77) الحج ٢٦ ، ٢٧ .

فضائل إبراهيم - عليه السلام - :

لقد خص الله إبراهيم - عليه السلام - بصفات ، وأثنى عليه فى كتابه الكريم فى مواضع كثيرة متفرقة . فقد ذكره الله - سبحانه وتعالى - فى القرآن الكريم تسعًا وستين مرة فى خمس وعشرين سورة ، ووردت سورة خاصة باسمه .

ومن الخصائص التى خص الله بها إبراهيم - عليه السلام - أن الله جعله أبًا للأنبياء ، فمن ذريته إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف والأسباط وموسى وهارون وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وغيرهم ، وخاتم الأنبياء جميعًا رسولنا الأمين محمد - ﷺ - وهو من ذرية إسماعيل عليه السلام .

وقد أخبر الله عن ذلك بقوله ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(٧٨) .

وطلب الله من النبى - ﷺ - أن يتبع ملة إبراهيم حنيفا ، وكان - ﷺ - قبل البعثة يتعبد فى غار حراء على ملته .

وقد ابتلى الله إبراهيم بكلمات فأتمهن ، وجعله إمامًا . أخبر الله عن ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾(٧٩) . والكلمات هى التكاليف وقد وفى بها إبراهيم فاستحق الإمامة لذلك .

ومن فضل إبراهيم أن أهل الأديان يتنازعون نسبته إليهم ، ويزعمون أنه منهم ، حتى حاجهم القرآن الكريم فى ذلك وأبطل مزاعمهم ، وصحح مفهوماتهم ، قال تعالى :

---

(٧٨) العنكبوت ٢٧ .

(٧٩) البقرة ١٢٤ .

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[٨٠]

وكما جعل الله إبراهيم إمامًا لمن جاء بعده ، جعله أمة وحده ، وقال تعالى في ذلك :

﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١ ﴾[٨١].

ومعنى كونه أمة أي يعدل أمة ، والأمة الرجل الجامع للخير ، أو الذى يعلم الناس الخير ، ومعنى قانتًا أي مطيعًا .

ووصفه الله بالفتوة فقال في حقه : ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾[٨٢].

والفتوة من صفات الشرف والكمال .. قال أهل اللغة : ليس الفتى بمعنى الشاب والحدث ، إنما هو بمعنى الكامل الجزل من الرجال ، قال الشاعر :

إن الفتى حمّال كل ملمة ليس الفتى بمنعم الشبان[٨٣]

---

(٨٠) آل عمران ٦٥ : ٦٨ .
(٨١) النحل ١٢٠ : ١٢١ .
(٨٢) الأنبياء ٦٠ .
(٨٣) لسان العرب لابن منظور .

وقد وصف القرآن الكريم أهل الكهف بقوله ﴿إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾[٨٤]. وورد فى الأثر الكريم : « لا فتى إلا على » .

واتخذ الله إبراهيم خليلاً ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾[٨٥].

وسمى الخليل خليلاً لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خللاً إلا ملأته ، وكان إبراهيم محبوبًا من الله محبًا له .

أو هو الذى ليس فى محبته خلل أى نقص ، أو هو الذى فى فقر دائم إلى الله من الخلة وهى الحاجة .

وقيل فى اتخاذ الله إبراهيم خليلاً أسباب .

منها أنه مضى إلى صاحب له ليمتار من عنده طعامًا ، فلم يجده فملأ غرائره رملاً وراح به إلى أهله ، فحطه ثم نام ، ففتح أهله الغرائر فوجدوه دقيقًا فصنعوا له منه ، فلما قدموه إليه قال : من أين لكم هذا ؟ قالوا : من الذى جئت به من عند خليلك .

فقال : هو من عند خليلى ، يعنى الله — سبحانه وتعالى — فسمى خليل الله لذلك .

وقيل : إنه أضاف رؤساء الكفار وأكرمهم وأحسن إليهم ، فقالوا له : ما حاجتك ؟

قال : حاجتى أن تسجدوا لله سجدة ، فسجدوا ، فدعا الله — تعالى — وقال : اللهم إنى قد فعلت ما أمكننى فافعل يا الله ما أنت له أهل . فوفقهم الله للإسلام ، فاتخذه الله خليلاً لذلك[٨٦].

---

(٨٤) الكهف ١٣ .

(٨٥) النساء ١٢٥ .

(٨٦) تفسير القرطبى .

وقيل إنه سأل ملك الموت : بم اتخذني الله خليلاً ؟ قال : بأنك تعطى الناس ولا تسألهم(٨٧).

وقيل : إن الله أوحى إلى إبراهيم : يا إبراهيم إنك لما سلمت مالك إلى الضيفان ، وابنك إلى القربان ، ونفسك إلى النيران وقلبك إلى الرحمن اتخذناك خليلاً(٨٨).

وقيل : إنه لما دخلت عليه الملائكة وهم يشبهون الناس ، وقرب إليهم العجل السمين فلم يأكلوا ، وقالوا : إنا لا نأكل شيئًا بغير ثمن ، فقال لهم : أعطوا ثمنه وكلوا .

قالوا : وما ثمنه ؟ قال : أن تقولوا في أوله باسم الله وفي آخره الحمد لله .

فقالوا فيما بينهم : حق على الله أن يتخذه خليلاً ، فاتخذه خليلاً(٨٩).

وقد ورد في ذلك أثر عن النبي - ﷺ - رواه جابر بن عبد الله قال : اتخذ الله إبراهيم خليلاً لإطعامه الطعام وإفشائه السلام وصلاته بالليل والناس نيام(٨٩).

وقد سار النبي - ﷺ - على قدم الخليل في ذلك ، فكان أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان ، وقد اتخذه الله خليلاً أيضًا وقال في ذلك : لو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الرحمن .

وكرم الله إبراهيم بأن جعل مقامه مصلى إلى يوم الدين .

قال تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾(٩٠).

---

(٨٧) قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٨٢ .

(٨٨) قصص الأنبياء للثعلبي ص ١٠١ .

(٨٩) تفسير القرطبي .

(٩٠) البقرة ١٢٥ .

وجعله أسوة حسنة للنبى - ﷺ - والمؤمنين فقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾[٩١].

ووصفه الله بأنه حليم أواه منيب .

والحليم الذى يملك نفسه عند الغضب .

والأواه الذى يكثر التأوه عند ذكر الذنوب .

والمنيب الذى يقبل بقلبه على ربه .

وهو في مقدمة أولي العزم من الأنبياء . وقد أُمرنا بالصلاة عليه مع رسول الله - ﷺ - وتسمى الصلاة الواردة في ذلك بالصلاة الإبراهيمية وهى التى تقرأ فى التشهد الأخير : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد »[٩٢] وقد علم النبى - ﷺ - هذه الصلاة لأصحابه .

وقد وصفه الله بالوفاء فى قوله - تعالى - ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾[٩٣].

لقد وفى بعهده مع الله بأنه لا يسأل سواه ، وأن يرضى بقضاه ، وحين ألقى في النار لم يزد على أن قال : علمه بحالي يغنى عن سؤالى .

ووفى بجميع مستلزمات الإيمان ولم يقصر فى أى منها ، ولم يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر اليسير[٩٤].

---

(٩١) الممتحنة ٤ .
(٩٢) البخارى ٣ / ٣١٥ - مسلم ٢ / ١٦ .
(٩٣) النجم ٣٧ .
(٩٤) قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٨٦ .

وابتلاه الله بكلمات فأتمها ، وهذه الكلمات فسرها ابن عباس - رضى الله عنهما - بقوله : « ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم ، قال الله تعالى : ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ وقال عكرمة : قلت لابن عباس - رضى الله عنهما - وما الكلمات التى ابتلى إبراهيم بهن فأتمهن ؟

قال : الإسلام ثلاثون سهمًا منها عشر آيات في براءة : التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين[٩٥].

وعشر آيات فى سورة : قد أفلح المؤمنون[٩٦] وسأل سائل[٩٧].

وعشر آيات فى الأحزاب : إن المسلمين والمسلمات[٩٨].

فأتمهن كلهن فكتبت له براءة من النار . قال الله - تعالى - : وإبراهيم الذى وفى[٩٩].

وقيل إنه وفى لأنه كان يقول حين يصبح وحين يمسى : فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون .

وإبراهيم صاحب سنن الفطرة وهى كما أخبر العلماء عشر :

ست فى الإنسان وهى : حلق العانة ، ونتف الإبط ، والختان ، وتقليم الأظافر ، وقص الشارب ، وغسل يوم الجمعة - وزاد بعضهم السواك - .

وأربع فى المشاعر وهى : الطواف ، والسعى بين الصفا والمروة ، ورمى الجمار ، والإفاضة[١٠٠].

---

(٩٥) التوبة ١١٢ .
(٩٦) الآيات من ١ : ٩ .
(٩٧) الآيات من ٢٢ : ٣٠ .
(٩٨) الآية رقم ٣٥ .
(٩٩) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٢٨ .
(١٠٠) المرجع السابق .

روى سعيد ابن المسيب عن أبى هريرة أن إبراهيم هو أول من اختتن ، وأول من استحد ، وأول من تسرول ، وأول من فَرَق ، وأول من قرى الضيف ، وأول من شاب ، وأول من قص شاربه[١٠١].

وفاة إبراهيم – عليه السلام – :

ظل إبراهيم – عليه السلام – مقيمًا فى أرض الشام فى إيليا حيث بنى بيت المقدس بعد ذلك – وسيأتى حديث عن ذلك إن شاء الله تعالى – .

ونشأ فى كنفه إسحاق الذى ولد له بعد زواجه يعقوب .

وتحققت البشارة التى أخبر بها الحق على لسان ملائكته – عليهم السلام – .

لقد رأى حفيده كما رأته سارة أيضًا .

وقد اطمأن على إسماعيل الذى شاركه فى بناء الكعبة المشرفة ، وقد أصبح إسماعيل فى أمة من الناس وأصبح له نسل مبارك طيب .

وماتت سارة فحزن إبراهيم – عليه السلام – حزنًا شديدًا ، لقد كانت له عضدًا ووزير صدق .

ماتت فى قرية « جبرون » ولها من العمر مائة وسبعة وعشرون عامًا .

ولم يطق إبراهيم الوحدة بعد وفاة زوجته .

فتزوج من امرأة اسمها « قنطورا بنت يقطن » الكنعانية وولدت له أولادًا كثيرين هم : زمران ، ويقشان ، ماداان ، مدين ، شياق ، شوح .

وكل من هؤلاء أصبح له عقب .

وتزوج بعدها امرأة أخرى اسمها « حجون بنت أمين » فولدت له خمسة هم : كيسان ، سورج ، أميم ، لوطان ، نافس[١٠٢].

---

(١٠١) المرجع السابق .

(١٠٢) قصص الأنبياء لابن كثير .

وقبيل وفاته بقليل زاره ابنه إسماعيل - عليه السلام - وبقى عنده حتى حانت وفاته وهو ابن مائة وخمس وسبعين سنة ، وقيل مائتى سنة ودفن فى المغارة التى دفنت فيها زوجته سارة وهى فى البلدة المعروفة باسم الخليل .

صحف إبراهيم :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[١٠٣].

ذكر الثعلبى ما روى عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذر الغفارى قال : قلت يا رسول الله : كم كتابًا أنزل الله تعالى ؟ قال : مائة صحيفة وأربعة كتب . أنزل الله على آدم عشر صحائف ، وعلى شيث خمسين صحيفة ، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف ، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان .

فقلت يا رسول الله : فما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : كانت أمثالاً كلها ..

أيها الملك المبتلى ، المسلط المغرور ، إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكنى بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم فإنى لا أردها ولو من كافر .

وكان فيها : على العاقل ما لم يكن مغلوبًا على عقله أن يكون له أربع ساعات ، ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يتفكر فيها فى صنع الله تعالى ، وساعة يحاسب فيها نفسه على ما قدم وأخر ، وساعة يخلو فيها لحاجته .

وعلى العاقل ألا يكون ظاعنًا إلا فى ثلاث : تزود لمعاده ، ومئونة لمعاشه ، ولذة فى غير محرم .

---

(١٠٣) الأعلى ١٨ ، ١٩ .

العبرة من القصة :

قال تعالى : ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثًا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾[١٠٤].

وحياة الأنبياء تجمع صور الكمال التى يجب أن يتأسى بها المؤمنون ويسير على نهجها الصالحون .

ومن سيرة إبراهيم – عليه السلام – نتعلم الصبر على الشدائد والوفاء بالعهد والوعد ، والصدق فى الجهاد ، والإخلاص فى العبادة ، وإسلام الوجه لله ، وغير ذلك من مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات .

ولقد وضع الله معالم تذكرنا بإبراهيم – عليه السلام – لنسير على نهجه ، فشعائر الحج كلها التى نقوم بها متوارثة عن خليل الرحمن الذى علمه جبريل المناسك ، وأعاد سنتها صحيحة نبينا – ﷺ – الذى يقول : خذوا عنى مناسككم .

لقد شوه الجاهلون صورة إبراهيم – عليه السلام – حتى زعم اليهود أنه منهم وزعم النصارى أنه منهم ، وزعم الجاهليون أنه منهم حتى صوروه على جدران الكعبة يستقسم بالأزلام . وحين فتح النبى – ﷺ – مكة ودخل الكعبة محا تلك الصور . أخرج البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي – ﷺ – لما رأى الصور فى البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت ، ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام فقال : قاتلهم الله ، والله ما استقسما بالأزلام قط[١٠٥].

وصدق الله العظيم إذ يقول :

---

(١٠٤) يوسف ١١١ .

(١٠٥) البخارى كتاب المغازى جـ ٥ ص ٨٧ .

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾(١٠٦)



★ ★ ★

(١٠٦) الحج ٧٨.

قصة إسماعيل عليه السلام

- إسماعيل في القرآن .
- ولادة إسماعيل .
- الغيرة تتحرك في نفس "هاجر" .
- هاجر وإسماعيل في مكة .
- محنة هاجر .
- السعي بين الصفا والمروة .
- انفراج الأزمة بانفجار زمزم .
- قبيلة «جرهم» تستوطن المكان .
- محنة جديدة .
- أمر إبراهيم بذبح إسماعيل .
- الفداء .
- حياة ابراهيم سلسلة من المحن .
- من الذبيح .
- اسماعيل يواصل الحياة .
- زواج اسماعيل .
- اشتراك اسماعيل في بناء البيت .
- رسالة اسماعيل .
- صدق وعده .
- من صور وفاء النبي صلى الله عليه وسلم .
- الأمر بالصلاة والزكاة .
- شريعة اسماعيل .
- وفاة اسماعيل .
- اسماعيل أبو العرب .
- اسماعيل واللغة العربية .



تمهيـد :

بين رياض الشام الفيحاء وحيث بنى بيت المقدس فيما بعد كان مسقط رأس إسماعيل الذبيح – عليه السلام – حيث كان يقيم إبراهيم – عليه السلام – وقد سميت مدينة باسمه هى مدينة الخليل .

وفوق ربوات الوادى المقدس الذى أصبح مكة فيما بعد ، وبنيت الكعبة على ربوة حمراء بين هذه الربوات كانت نشأة إسماعيل – عليه السلام – .

ولدته هاجر ، أميرة مصر السابقة ، والتى امتحنت بالأسر حين هاجم الهكسوس مصر فى القرن السابع عشر قبل الميلاد ، وقتلوا زوجها الملك ، ومنذ ذلك الحين أصبحت جارية من جوارى القصر بعد أن كانت السيدة الأولى فيه[1].

وكان إبراهيم – عليه السلام – قد جاء إلى مصر مهاجرًا بدينه إلى ربه ، ومعه زوجته « سارة » وحاول ملك الهكسوس – الذى أصبح ملك مصر وفرعونها – الاعتداء على سارة زوجة إبراهيم ، ولكن الله حفظها ، ورأى الملك من الآيات ما ملأ قلبه فزعًا ورعبًا ..

فأطلقها ، ووهبها « هاجر » جارية تخدمها ..

وعاد إبراهيم بزوجته وجاريتها إلى أرض الشام ..

وكانت سارة عقيمًا لا تلد ، ورأت زوجها إبراهيم قد كبرت سنه وهو فى حاجة إلى ولد يكون عضدًا له ، يؤازره فى دعوته إلى الله ، ويناصره فى كفاحه فى الحياة ، ويعينه فى شئونه ودنياه .

---

(١) الكعبة المشرفة لأمينة الصاوى ص ٣٣ .

فماذا تفعل وهي عاجزة عن الإنجاب ؟

لقد وهبته جاريتها هاجر ، فعسى أن يكون له منها الولد الذى يتمناه وتتمناه .

وكانت المودة قد ربطت بين قلبي سارة وهاجر ، ولم تكن سارة تنظر إلى هاجر على أنها جارية لها وهبها لها الملك لتخدمها ، ولكنها كانت تنظر إليها على أنها صديقة حميمة وأخت كريمة .

وأنجب إبراهيم من هاجر إسماعيل .

ولدته فى أرض كنعان فى الشام التى بنى فيها بيت المقدس . بناه سليمان بن داود - عليهما السلام - بعد ذلك بقرون .

وهكذا نشأ إسماعيل فى مهد طيب .. ومكان مبارك ..

ومن سلالة طاهرة .. فأبوه أبو الأنبياء ..

وأمه سليلة الأمجاد المصرية العريقة أميرة مصر - وأصلها من مدينة « الفرما » على شط بحيرة تنيس ، وكانت مدينة خصبة وبها قبر جالينوس الحكيم[٢].

وموطنه المكان المبارك أولاً وأخرا ..

فالشام حيث ولد بارك الله حوله . ومكة حيث درج ونشأ وعاش وأرسل ومات هى التى أشاد الله بذكرها ، وجعل فيها أول بيت وضع للناس وعلى يدى هذا المبارك وأبيه رفع وطهر وأصبح هدى للعالمين وقبلة للمسلمين ..

إسماعيل فى القرآن :

وقد نوه القرآن الكريم بذكر إسماعيل ووصفه بصفات مُثلى ، وناط به وبأبيه عملاً جليلاً يعد مفخرة لهما مدى الأيام وتعاقب الدهور ..

---

(٢) خطط المقريزى جـ ١ ص ٣٩٦ .

من ذلك قوله – تعالى – :

﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾(٣)..

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾(٤)..

﴿ وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ﴾(٥)..

﴿ وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ﴾(٦)..

﴿ واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيًا ﴾(٧)..

وغير ذلك من الآيات الكريمة المباركة التى تشير إلى منزلة إسماعيل وفضله ونبوته ..

لقد ذكر القرآن الكريم إسماعيل فى اثنتى عشرة آية تناولتها سور (البقرة) و (آل عمران) و (النساء) و (الأنعام) و (إبراهيم) و (مريم) و (الأنبياء) و (ص) .

كما أشارت سورة (الصافات) إلى قصة ذبحه دون ذكر اسمه .

---

(٣) سورة البقرة ١٢٥ .

(٤) سورة البقرة ١٢٧ .

(٥) سورة النساء ١٦٣ .

(٦) سورة الأنعام ٨٦ .

(٧) سورة مريم ٥٤ .

ولادة إسماعيل :

قدمنا أن سارة زوجة إبراهيم – عليه السلام – وهي ابنة عمه في أشهر الأقوال – كانت عاقرًا لا تلد – وحين كانت في مصر وهبها الملك جارية مصرية تقوم على خدمتها ورعاية شئونها ..

وتقدمت السن بها وبزوجها .. وكانت تنظر إلى زوجها الذي لم تستطع أن تقدم له ولدًا فتتألم وتشعر بالمرارة ..

إن الرغد الذي تتقلب فيه ، والحدائق التي تحيط بها ، والمال الذي تغله الأرض التي تزرع والماشية التي ترعى لا قيمة له بدون وارث .. يحمل اسم إبراهيم ..

وتنظر إلى نفسها وقد شاب مفرقها ، وكاد الإعياء بتقدم السن يحطمها فترتد عينها كسيرة حزينة ، لقد فقدت الأمل في الإنجاب على حسب ما جرت به عادة الأنثى في أنها من الممكن أن تحمل ما دامت لم تتخط سن اليأس ، وهي الآن قد تجاوزت هذه السن بكثير ..

إنها تعدت السبعين من عمرها .. وأنى لبنت السبعين أن تحمل ؟

وتعود فتنظر إلى زوجها الذي تحبه وتقول في نفسها : ما ذنبه هو أن يحرم من الولد ، والرجل لا يشيخ على الإنجاب كما تشيخ المرأة ؟

أيتحمل جريرة الحرمان لأنه يحبني ؟ وأين التضحية إذن ؟

وأخذت تفكر في هذا الأمر كثيرًا ، حتى وصلت إلى قرار ..

لابد أن تفكر في سعادة زوجها وتضحي من أجل ذلك ..

وكان القرار الذي اتخذته هو أن تهب جاريتها التي ائتلفت بها .أحبتها وأنست إليها .. تهبها لزوجها ليكون له منها الولد إن شاء الله تعالى ..

لقد أحست بذلك إحساسًا غريزيًا .. وإحساس المرأة-فيما يختص بشئون المرأة كثيرًا ما يصدق ..

إن هاجر ما تزال شابة فتية ، وهي من عنصر طيب فلابد أن يكون نسلها مباركًا طيبًا ..

وعارض إبراهيم – عليه السلام – فى أول الأمر إشفاقًا على زوجه الحبيبة ومراعاة لشعورها .. ولكنها ألحت وأصرت على ما قررت ..

فوافق إبراهيم ..

وتسرَّى إبراهيم بهاجر ، وشاء الله ألا يخيب أمل إبراهيم وسارة .. وهاجر أيضًا ..

فحملت هاجر .. وتكاملت شهور حملها .. ووضعت غلامًا وضيئًا مشرقًا أخذ محاسن أبويه وجمع مجد عنصريه ..

لقد استجاب الله ضراعة إبراهيم حين كان يقول ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[8].

كما استجاب لـ « هاجر » حين كانت تتضرع إلى الله أن يهبها ولدًا لتقر به عين والده ، وتسعد به هذه الأسرة الصالحة الطيبة التى أنقذها الله بها من وهدة الشرك والوثنية والعبودية التى كانت تحيط بها فى مصر ..

لقد أراها الله – قبل أن تحمل – فى منامها بشرى هذا المولود الذى سعدت بطلعته .. وجاءها من يخبرها :

« يا هاجر قد سمع الله ضراعتك وسوف يهب لك ولدًا ذكرًا فسميه إسماعيل – أى المسموع من الله – لأن الله سمع صلاتك ودعاءك ، وسوف يباركه ويكثر نسله تكثيرًا »[9].

لقد كانت هاجر وفية أمينة ، وكريمة مطيعة ، وزادها وجودها فى بيت إبراهيم – عليه السلام – نبلاً وجمال خلق ..

---

(٨) سورة الصافات ١٠٠ .

(٩) الكعبة المشرفة ص ٣٩ .

ولم لا ؟ وهى تعيش فى بيت النبوة والرسالة ..

وكانت سارة تتمنى على الله أن يرزق إبراهيم من هاجر الولد حتى تقر به عينه وتكتمل به سعادته ، ويملأ البيت أنسًا ونورًا ..

وها هو ذا قد تحقق الأمل ، وأشرقت الفرحة ، وصعد صراخ الطفل المولود لتتصاعد معه ضحكات من الأعماق تعبر عن سرور هذه الأسرة التى كانت تنتظر هذه اللحظة بصبر فارغ وشوق بالغ .

وأخيرًا يا إبراهيم أصبح لك ولد .. تنظر إليه فترى صورتك .. يأخذ مخايلك ، ويكتسب صفاتك ، ويرث علمك ، وينتفع بأدبك ، ولعله يصبح نبيًا مثلك ..

وفرح إبراهيم بولده .. وأطلق عليه الاسم الذى لُقّنَتْه هاجر فى منامها .. إسماعيل ..

وأولاه إبراهيم من بره وعطفه وحنانه الكثير ..

وفرحت به سارة أيضًا فرحًا شديدًا ، ويزداد فرحها حين ترى الفرحة فى عينى إبراهيم بولده ..

ولكن لكل شىء حد .. وغريزة المرأة لابد أن تظهر ، وطبيعتها لابد أن تعبر عن نفسها ..

الغيرة تتحرك فى نفس سارة :

لقد فرحت سارة بالغلام الصغير ، وتحركت غريزة الأمومة فى نفسها ، وأقبلت على الطفل بشوق فى أول الأمر .. ولكنها بمرور الأيام أخذت تتمنى لو كان هذا الطفل ابنها .. ثم أخذت عوامل الضيق تظهر وبخاصة حين كان إبراهيم يقبل على ابنه بشغف ويرمق أمه بحنان أكثر ..

إنها قدرت على ما لم تقدر عليه سارة ..

هذا ما أخذت سارة تحدث به نفسها .. وصار هذا الحديث يكبر شيئًا فشيئًا ، حتى تحول إلى غيرة طاحنة ، صحبها حزن شديد ..

إن الغيرة بين الزوجات معروفة وطبيعة مألوفة ، فالعاطفة عندهن قوية ، وتأثرهن بالأحداث سريع .. ومن أجل ذلك أوصانا رسول الله – ﷺ – بحسن معاملتهن ، فقال : « اتقوا الله فى النساء فإنهن خلقن من ضلع أعوج ، وإن أعوج شيء فى الضلع أعلاه ، إن أردت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج » ..

وقد كانت زوجات النبى – ﷺ – يغرن من زوجه الأولى خديجة – رضى الله عنها – وبخاصة حينما يسمعنه يثنى عليها ويذكر فضلها وكرمها .. مع أنها كانت قد لقيت ربها ، ولم تعاشرهن مع الرسول – ﷺ – .

وكان النبى – ﷺ – يثنى على خديجة كثيرًا ، ويكرم صديقاتها ، لأنها أحسنت مؤازرته فى دعوته لربه ، وواسته بمالها ، وكانت له وزير صدق .. والنبى – ﷺ – من أخلاقه الوفاء ..

وقال للسيدة عائشة أم المؤمنين – رضى الله عنها – حينما قالت له مرة : لقد عوضك الله خيرًا منها : والله ما عوضنى الله خيرًا منها ؛ آمنت بى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، ووقفت بجانبى إذ انفض عنى الناس .

فليس غريبًا أن تغار سارة إذن ..

ولكن غيرتها كانت عاصفة ..

لقد حولت البيت الذى كانت تملؤه البهجة والفرحة والهدوء إلى بيت تبدو عليه مظاهر البؤس والحزن ، وتعلوه الكآبة والأسى .

وربما وجدت « سارة » مبررًا لهذه الغيرة الجامحة غير إقبال إبراهيم الشديد على الطفل ..

ربما وجدت فى هاجر ازورارًا عنها ، وإدلالاً عليها .. وهى التى كانت تعدها خادمًا لها ..

إنها هى التى رفعتها إلى هذا المستوى الذى أصبحت فيه .. فكيف ترفع عنها ؟

وقد لا يكون ذلك حقيقة ، ولكن الإفراط فى الغيرة يصور ما لا يكون فى صورة الذى يكون .. إنه يجسم الأوهام ويحولها إلى حقائق تتحرك وتعيش ..

وأيا مّا كان ، فقد أصبحت سارة لا تطيق أن ترى الغلام .. وبخاصة حين ترى اهتمام إبراهيم - عليه السلام - به وإقباله عليه ..

وسبحان مقلب القلوب ..

لقد نسيت سارة تمنياتها لإبراهيم ..

ونسيت إيثارها الذى قدمته راضية ، وإلحاحها على إبراهيم أن يتسرى بهاجر ..

ونسيت أشواقها إلى طفل من هاجر يملأ جو هذا البيت أملاً وفرحًا وسرورًا ..

نسيت ذلك كله ، وتحول حبها لهاجر كرهًا .. وإقبالها على الغلام ضيقًا .. وفرحها به تبرمًا وحزنًا ..

وأخذت تفكر ماذا تفعل لتزيل عن نفسها هذا الهم المقيم الذى سيطر عليها نتيجة لتلك الغيرة السوداء ؟

وربما أفرطت إلى جانب ذلك فى تأنيب نفسها ، لأنها هى التى سمحت بحدوث ما حدث ..

وعلى الرغم من إيمانها العميق بالله ، ذلك الإيمان الذى تلقته على يد إبراهيم - عليه السلام - إلا أن الإيمان قد يغيب مع القلق النفسى الذى يتغلب على سكينة الإيمان أحيانًا لحكمة يعلمها الله ..

أليست هى التى أهدت هاجر إلى إبراهيم ؟

أليست هى التى ألحت عليه بقبولها سُرِّية له ؟ بل وصنعتها له كما تصنع العروس ؟

فما بالها تجزع الآن مما حدث وهو نتيجة متوقعة لما قدمته ؟

ولكنها عادت واتخذت قرارًا حاسمًا بينها وبين نفسها ..

ما دامت هى التى صنعت المشكلة فعليها هى أن تحلها ..

ولم يكن إبراهيم – عليه السلام – بطبيعة الحال سعيدًا وهو يرى الحزن فى وجه زوجه الأولى ؛ والقلق يعصف بنفسها .

وكان له ولهاجر من هذا الحزن نصيب كبير ..

ولكن ماذا يفعلان والأمر خارج عن أيديهم جميعًا .

هو لا يستطيع إلا أن يحب الغلام ويسعد به ويحنو عليه .. وهاجر كذلك لا تستطيع إلا أن تحب ابنها وتلاطفه وتداعبه .

وفى الوقت نفسه يعز عليهما أن تكون سارة حزينة أو متألمة فما الحل إذن ؟

لابد من حل لتلك الأزمة حتى تهدأ الخواطر وترتاح النفوس ..

أما إبراهيم – عليه السلام – فلا يملك إلا الدعاء والتضرع إلى الله ..

ولكن الله – جلت حكمته – يريد أن تندفع سارة فى غيرتها لينفذ قدرٌ أراده ، ويتحقق أمرٌ شاءه منذ الأزل .

واهتدت سارة إلى الحل الذى رأته علاجًا للمشكلة وصممت على تنفيذه .

هذا الحل الذى رأته هو إبعاد هاجر وولدها عن هذا البيت إلى مكان سحيق .. لا تراهما ولا تسمع عنهما شيئًا على الإطلاق ..

ما أقسى هذا الحل على نفس إبراهيم ؟، بل ما أقساه أيضًا على هاجر وابنها ؟..

إنها تفرقة بين الأب وابنه وبين الزوج وزوجه ..

ولكنها أصدرت الأمر ، وعلى الجارية أن تنصاع لأمر السيد ..

وحين أفضت سارة بهذا الأمر لإبراهيم لا يبعد أن يكون قد حاول إثناءها عنه ..

ولكن نور النبوة وكشف البصيرة ألهماه بأن هذا هو أمر السماء ، ولم تكن غيرة سارة سوى سبب ساقته الأقدار لتجرى الأحكام فى مجراها الذى أراده الله ..

لقد استجاب إبراهيم لطلب سارة ..

وليس من شك فى أنه استخار الله – تعالى – فى ذلك فوجد الضوء الأخضر ينير له الطريق ..

وليس غريبًا مع ذلك – أن يهبه الله البراق – كما تقول بعض الروايات لينتقل عليه إبراهيم وهاجر وولدهما إلى مكة من الشام ..

فى الطريق إلى مكة :

ولكن بعض الرواة يذكرون أن إبراهيم – عليه السلام – ركب دابة عادية ، واصطحب الغلام وأمه ، وسار بهما ترعاهم جميعًا رعاية الله وعنايته .

وكانت هذه الرحلة قبل ولادة إسحاق ، بل قبل أن يبشر به .. على الرغم من أن هناك رواية تذكر أن الرحلة تمت بعد مولد إسحاق ، وبسبب مشاجرة حدثت بين الطفلين « إسماعيل وإسحاق » كما يحدث عادة بين الأطفال ، غضبت على أثرها سارة ..

لم يكن إسحاق قد ولد بعد .. ومن أجل ذلك أشفق إبراهيم على سارة من الحزن الذى كان يعتصر قلبها حين ترى غلامًا لإبراهيم من غيرها وهى عقيم لا تلد .

ولو أن إبراهيم كان قد بشر بإسحاق من سارة قبل إبعاد إسماعيل وهاجر لكان الأمر غير الأمر .. ولكنها إرادة الله ..

وما ذكر فى بعض المصادر من أن سارة طلبت من إبراهيم - عليه السلام - أن يبعد إسماعيل وهاجر ، حتى لا يرث إسماعيل مع ابنها إسحاق فى ملك إبراهيم يناقض الحقيقة ويجافى المنطق ..

طال المسير بإبراهيم - عليه السلام - وامتد أمامه الطريق حتى وصل إلى المكان الذى قدر الله نزوله فيه ، والذى اقتضت حكمة الله الخفية أن يترك فيه إسماعيل وهاجر ..

ولم يكن أحد يستطيع أن يدرك فى ذلك الوقت ما سيكون عليه ذلك المكان من شأن عظيم بعد ذلك ..

نزلت هاجر وإسماعيل فى هذا المكان الصحراوى القاحل ، الذى لا ماء فيه ولا نباتٌ ، ولا أنيس ولا سمير ..

لقد تركهما إبراهيم وحيدين ضعيفين ، لا يملكان شيئًا سوى ما تركه لهما من زاد وماء قليلين ، لا يكادان يكفيان سوى أيام قليلة معدودة ..

ولعل إبراهيم فكر فى ذلك .. فكر فى الصعوبة التى سوف تواجهها هاجر وابنها ، ولكنه كان قد عود نفسه ألا يراجع الله فى شيء أمره به .. وهذا هو معنى الوفاء الذى هو من أخص صفاته .. لقد وصفه القرآن به حين قال : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى ﴾[١٠].

---

(١٠) سورة النجم ٣٧ .

لقد وكل إبراهيم وحيده وأمه لله .. والله لن يضيع وديعة إبراهيم عنده .. لا ولا وديعة غير إبراهيم ..

إن إبراهيم رسول الله وخليله ، وهو يعرف تمامًا أن الله سبحانه وتعالى سيتكفل بهما وسيهيىء لهما رزقهما ..

إن الإيمان القوى الذى يعمر قلب إبراهيم وثقته الكاملة فى الخالق هما اللذان جعلاه يترك فلذة كبده وأمه فى هذا المكان المقفر ..

وهذا الإيمان القوى هو الذى جعله يتجه إلى الله مناجيًا إياه فى ضراعة وخشوع ..

﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾(١١).

وبالرغم من ثقة هاجر التى لا حدود لها فى فضل الله وقدرته وحيطته ورحمته فإنها بدافع البشرية والطبيعة تعلقت بإبراهيم وأمسكت به ، ورجته ألا يتركهما فى هذا المكان الموحش ، يحيط بهما الخطر من كل جانب ..

إنها امرأة ضعيفة لا حول لها ولا قوة ..

وولدها رضيع فى حاجة إلى الرعاية والغذاء ..

فمن أين تطعمه ؟ ومن أين تسقيه ؟ وكيف تحميه ؟ ..

كيف تعيش بين حيوانات الصحراء ووحوش الجبال وهوام الأرض ؟

إنها إن نجت من الموت جوعًا فلن تنجو من تلك الحيوانات الضارية ، والوحوش المفترسة ؟ والهوام المفزعة القاتلة ..

---

(١١) سورة إبراهيم ٣٧.

وهى إن نجت من تلك فلن تنجو من لفح الصحراء ونارها القاسية ولظاها المستعر ورياحها العاتية .

كيف تعيش دون بيت أو مأوى يقيها تقلبات الجو ويرد عنها الغوائل ؟

لاشك أن هذه الهواجس قد أحاطت بها وراودت نفسها وجالت بخاطرها وهى تتمسك بأثواب إبراهيم متوسلة إليه ألا يتركها ووحيدها فى هذا المكان ..

ولكن إبراهيم - عليه السلام - يمضى دون أن يلتفت إليهما ..

إنه يخشى من لحظة ضعف قد تنتابه حين ينظر إلى عينى الطفل الوديعتين ، وحين يرى دموع هاجر المتدفقة ووجهها الحزين ..

إنه بشر قبل أن يكون نبيًا ، والنبوة لا تمنع العواطف النبيلة والمشاعر الحميدة ..

ولكن الثقة بالله تعصمه واليقين يأخذ بيده ، ويقول لهاجر بعد أن تسأله : آلله أمرك بذلك ؟

يقول لها : نعم ..

عندئذ تستكين هاجر لأمر الله ، وتستسلم لقضائه ، وتقول فى إيمان تحسد عليه ..

إذن ، لن يضيعنا .

ما أعظم الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب !

وما أروع اليقين يلقي المؤمن بنفسه فى حماه ؟

هنا تجد الأم السكينة وقد أثلجت صدرها ، وردت العافية إلى قلبها وعقلها ، وترى النور وقد قوض معاقل الخوف فى نفسها ، وقضى على وساوس الشك والقلق ، وتشعر بأن الكون كله من حولها حافل بكل معانى الأنس والرحمة والعطف والحنان ..

هاجر وحدها :

رحل إبراهيم وترك هاجر وحيدة مع ولدها الرضيع ، بجوار الربوة الحمراء التى أقيم فوقها البيت الحرام بعد ذلك بسنوات .. فى مكة المكرمة ، وليس بمكة يومئذ أحد ..

وآنسها الإيمان الصادق واليقين بالله والرضا بحكمه وقضائه . لقد أدركت أن هناك حكمة خافية عليها من وجودها وولدها فى هذا المكان ..

لقد رأت فى منامها يومًا أنها ستحمل طفلاً سيكون له شأن وسيكون أبًا لأمة ذات شأن عظيم ..

ولكن كيف يتحقق ذلك ، وهى فى مكان لا أنيس به ولا جليس ؟

حين تغلبها هذه التساؤلات ترد نفسها إلى حمى اليقين تعتصم به وتسلم الأمر لله .. فتستريح .. ومن هذا يجب أن نتعلم ..

محنة هاجر :

وشاء الله أن تتعرض هاجر لمحنة قاسية أنجاها الله منها بفيض رحمته وكرمه ..

انصرفت هاجر إلى وليدها ترضعه ، وكانت تنظر إليه فى شفقة وعطف شديدين ..

وتقتات بما تركه لها إبراهيم من زاد قليل ، حتى نفد ..

وظمئت فالتفتت إلى السقاء فوجدته قد نضب ماؤه ..

وسمعت صراخ ابنها فأسرعت إليه تلقمه ثديها ، ولكن اللبن كان قد جف بسبب الجوع والعطش ..

واشتد صراخ الطفل ففزعت .. إنها تصبر على تحمل لذعات الجوع والعطش ، ولكنها لا تتحمل ذلك حين يكون الأمر متعلقًا بابنها ..

إنها لا تريد الطعام والشراب لنفسها بل تريدهما من أجل ذلك الرضيع الذى تريد له الحياة ..

لقد خوى الجراب من التمر ونضب السقاء من الماء .. ومن أين يجىء الطعام والشراب فى هذه الصحراء ؟

ما أفظع هذا الموقف وما أقساه ! أم ترى وليدها يبكى ويتلوى من شدة العطش وهى فى تيه مجهول لا تستطيع أن تقدم له عونًا أو تخفف عنه ألمًا ..

وتحسست صدرها بيديها ، وعبثًا تفعل ، فلم يعد فى الثديين نقطة لبن واحدة يمكن أن ترطب بها حلق ابنها الذى يوشك على الموت جوعًا وعطشًا .

ولم تستطع الأم الوقوف أمام هذا المنظر المؤلم ..

وخارت قواها وأفزعها التفكير فى المصير المتوقع ..

أيموت إسماعيل بين يديها هكذا بصورة قاسية لا تقدر على فعل شىء أمامها ؟

إنها الآن فى واد بين جبلين .. ودفعتها الحيرة والقلق إلى أن تستجمع ما بقى لها من قوة وتصعد إلى أحد الجبلين وتنظر من قمته ، لعلها تجد ما ينقذ وليدها ، ونظرت فلم تجد شيئًا ..

فهبطت إلى الوادى مسرعة وانطلقت إلى الجبل الآخر وصعدت إليه ونظرت إلى الأفق فلم تجد شيئًا ..

وهكذا أم تعدو مذعورة بين الجبلين تصعدهما وتحدق من فوقهما فى الأفق البعيد ، ولكنها لا تجد أحدًا ولا ترى شيئًا ..

سبع مرات تفعل ذلك ، تصعد وتهبط ، وصراخ الطفل فى أذنيها يقطع نياط قلبها ..

هذان الجبلان هما الصفا والمروة ، وهذا السعى الذى سعته هاجر بينهما باحثة عن الماء هو الذى أصبح فيما بعد من مشاعر الحج والعمرة . قال

ابن عباس – رضى الله عنهما – راويًا عن النبى – ﷺ – قوله : « ذلك هو السعى بين الصفا والمروة » الذى هو فرض من فرائض الحج فى الإسلام يتعبد به المسلمون ، ويتقربون به إلى الله ، ويحيون به ذكرى أسلافهم . والله – سبحانه وتعالى – يقول فى ذلك : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾[12].

فنحن الآن حين نسعى بين الصفا والمروة نستعيد فى أذهاننا هذه الذكريات والأحداث التى وقعت لهاجر وولدها إسماعيل .. وفى ذلك ربط بين قديم المؤمنين وجديدهم ، وإعلان بأن دين الله فى الأولين هو دينه فى الآخرين ، يجدد اللاحق من عباده سنة السابق منهم ..

أما قول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ فقد فهم البعض منه أن السعى بين الصفا والمروة ليس بفرض ولا واجب فى أعمال الحج ، وقد أخطأوا فى هذا الفهم . لأن القول الكريم لا يفيد أكثر من نفى الإثم عمن يسعى بينهما ، والقصد منه إزالة ما كان يتوقع من تحرج المؤمنين من السعى بينهما مع وجود الأصنام عليهما ، ونفى الإثم لا ينافى أن السعى مشروع ومطلوب خصوصًا بعد بيان أنه من شعائر الله .

حكم السعى :

وقد اختلف الفقهاء فى حكم السعى هل هو ركن أو واجب ؟ وحكى الزمخشرى فى الكشاف عن أبى حنيفة أنه يقول : إنه واجب وليس بركن ، وعلى تاركه دم .

وذهب الجمهور إلى أن السعى واجب ونسك من جملة المناسك ، وهذا خلاف لا يؤثر فى وجوب الالتزام به كما أمر الله – سبحانه وتعالى – ، وكما فعل رسوله – ﷺ – وأصحابه من بعده ..

---

(١٢) سورة البقرة ١٥٨ .

وقد جرت محاورة لطيفة بين السيدة عائشة – رضى الله عنها – وبين ابن أختها عروة بن الزبير – رضى الله عنهما – :

قال لها : أرأيت قول الله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ ؟ فما أرى على أحد جناحًا ألا يطوف بهما .

فقالت عائشة – رضى الله عنها – : بئس ما قلت يا بن أختى ، إنها لو كانت على ما أوّلتها لقال : فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما .

ثم قالت : إن الرسول – ﷺ – قد بين الطواف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما .

وأخرج الإمام مسلم وغيره عن أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها – أنها قالت : لعمرى ما أتم الله حج من لم يسع بين الصفا والمروة ولا عمرته ، لأن الله تعالى قال : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ ..

وأخرج الطبرانى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : سئل رسول الله – ﷺ – فقال : إن الله كتب عليكم السعى فاسعَوْا .

فالسعى إذن واجب لا ينبغى تركه ، وقد دعا النبى – ﷺ – إليه وفعله ، وهو الذى يقول : « خذوا عنى مناسككم » وأعمال الحج كلها استعادة لذكريات جليلة أراد الله أن تكون ماثلة فى أذهان العباد حتى يتذكروا نعمة الله عليهم وعلى سلفهم ، فيدوم الشكر والحمد ، وتزداد النعمة وتكثر . مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾[١٣].

---

(١٣) إبراهيم ٧ .

انفراج الأزمة بانفجار زمزم :

تعبت هاجر وخارت قواها بعد الأشواط السبعة التى قطعتها تباعًا دون أن تستريح ، باحثة عن فرجة أمل تنقذ بها وليدها دون جدوى ..

ولما لم تجد شيئًا ، استسلمت فى يأس ، ووقفت تنظر إلى وليدها وهو يكاد يسلم الروح إلى خالقهما . ولكنها - مع ذلك - لم تفقد إيمانها . نظرت إلى السماء نظرة استعطاف . وكأنها كانت تقول : إن فقدت الأسباب فهناك مسبب الأسباب ..

وعندما تصل الأزمة إلى أقصى مدى لها ، وتوصد فى وجه الإنسان جميع الأبواب ، ينفتح باب الرحمن الرحيم . وأشد الساعات حلكة أقربها إلى طلوع الفجر كما يقول الحكماء .. وقد قال الحق فى حق رسله - وهم أقوى الناس إيمانًا - ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾(١٤).

وكذلك كان الأمر بالنسبة لهاجر .. يئست من أسباب الأرض فى النجاة بابنها وبنفسها من براثن الهلكة .. فلم تعد أمامها إلا أسباب السماء .. وجاءها الفرج من السماء . وانفرجت الأزمة بعد أن وصلت إلى نهايتها وصدق الشاعر الحكيم إذ يقول :

كم شدة فى الأرض ضاق بها الفتى ذرعًا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

لقد فجر الله لهذه المسكينة وطفلها عينًا عذبة فيها رواء وفيها غذاء وفيها شفاء ..

قال بعض العلماء : إن جبريل جاءها وهمز الأرض بجناحه فتفجرت العين ..

وقال بعضهم : إن الطفل من شدة البكاء ضرب برجله الأرض فتفجرت العين ..

وأيا كان السبب فهو معجزة على أى حال ..

---

(١٤) يوسف ١١٠

إن تفجر الماء في صحراء قاحلة بدون ضربة معول ، أو حفر حفرة ، أو اتخاذ سبب من أسباب استنباط الماء معجزة لاشك فيها ..

إنها رحمة الله القريب من المحسنين ..

ونظرت هاجر إلى الماء يتدفق وينساب فى الصحراء أمامها فلم تصدق عينيها ، ولعلها أخذت تمسح عينيها وتدقق النظر وتختبر نفسها أهى مستيقظة أم نائمة ، حتى تتحقق أن ذلك الذى يجرى أمام عينيها ماء حقيقى ، وليس وهمًا أو سرابًا أو خيالاً ..

لقد تأكدت أنه الماء . الماء الحقيقى ، سر الحياة ، الحمد لله ، لقد عاش إسماعيل .. وتنظر إليه .. بعد أن ذاق قطرة من هذا الماء ، فإذا بالحياة تدب فيه من جديد .

سبحانك ربى ، لقد قلت وقولك الحق ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾[(١٥)].

ومن أين نبع الماء ؟ لقد نبع من الصخر .. وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾[(١٦)]

وخشيت هاجر أن ينفد الماء قبل أن تأخذ حاجتها منه ، فأخذت تغرف منه فى سقائها وآنيتها ، ولكن الماء أخذ يفور ويشتد فورانه ، فحوطت حوله ، وجعلت تقول له : زم زم . أى اجتمع ولا تتفرق ومن هنا أطلق على هذه العين : « زمزم » ..

ولقد روى عن النبى – ﷺ – أنه أخبر عن ذلك « بقوله يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم .. أو قال : لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينًا معينًا »[(١٧)].

---

(١٥) الأنبياء ٣٠ .

(١٦) البقرة ٧٤ .

(١٧) قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٥٧ .

لقد تبدلت حالة هاجر فى لحظة من هاوية اليأس إلى قمة الأمل .. من الهلاك إلى النجاة ، من الموت إلى الحياة ..

وازدادت ثقتها فى الله ، وأصبح ما أخبرت به فى نومها ذات يوم قبل أن تحمل بإسماعيل حقيقة ماثلة أمامها كأنها تشهد مستقبل الأيام فى هذه البقعة أجسامًا تتحرك وصورًا قائمة تمشى وتتكلم ..

أجل ، فلا ينبع ماء فى هذه الصحراء المهلكة إلا لحكمة عظمى أرادها ربُّ السماء .. ورنَّ فى أذنها دعاء إبراهيم وهو يودعهما فى هذا المكان :

﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[18].

فإذا هى تجد صدى الاستجابة لهذا الدعاء ..

فما دام هناك ماء فهناك إذن حياة ، وهناك إذن أمن ، وهناك إذن أنس وعمران ..

وهكذا بدأت الحياة تسرى فى هذا الوادى ..

فبعد أن نبع الماء حلقت الطيور فوق المكان فرحة مسرورة ..

إنه الخير من الله ، إنه الرزق الإلهى .. إنه سبب الحياة وأساس السعادة وسر النماء والبقاء ..

وبدأت رحلة التعمير تزحف على المكان .. ويد العمران تمتد إلى الوادى المقفر ..

قبيلة جرهم تستوطن المكان :

وكان قوم من جرهم يسيرون قرب هذا المكان ، فلفت أنظارهم تحليق الطيور ..

---

(١٨) ابراهيم ٣٧ .

لقد رأوا الطيور تحوم غادية رائحة ، تحط وتطير ، وعهدهم بهذا المكان لا طيور فيه ..

وقد علمتهم الفراسة والخبرة أن الطيور لا تقع إلا على ماء ، ومعرفتهم بهذا المكان أنه لا ماء فيه ..

إنهم فى أشد الحاجة إلى الماء ، وصاحب الحاجة دائمًا أبصر الناس بحاجته ..

ولأنهم يعرفون هذا المكان جيدًا ، فهو طريقهم فى رحلاتهم بين الشمال والجنوب .. ويعرفون خلوه من الماء .. فقد تحيروا فى أمر الطيور المحلقة .. وتريثوا فى استبانة الخبر ، ولم يذهبوا جميعًا إلى هذا المكان ، بل فضلوا أن يرسلوا بعض الأفراد لاستطلاع الأمر والعودة إليهم بالخبر اليقين ، وفى ضوء ذلك يتخذون القرار ..

وأرسلوا واردهم أو وُرَّادهم ..

وعرف الواردون ما لم يكن يعرفون من قبل ..

هذه عين ماء فوارة ، ما أعذب ماءها ؟، وما أجمل رواءها ؟..

وبجوارها هذه المرأة الوحيدة تحنو على طفلها فى حب وإشفاق ..

فاستأذنوا فى الشرب ، فشربوا وارتووا ..

وأخبروا هاجر بأن وراءهم قومًا أرسلوهم فى طلب الماء فهل تسمح لهم بالورود ؟

واستبشرت هاجر خيرًا ولم تمانع ..

وملأ الوراد أسقيتهم وعادوا إلى قومهم مستبشرين ..

عادوا إليهم بأعظم مفاجأة سارة لا يمكن أن تخطر على البال .. ولم تكن الفرحة بوجود الماء عند هؤلاء بأقل من فرحتهم حين أخبرهم الوراد بأن صاحبة الماء قد سمحت لهم بالنزول عند الماء ..

وعمت الفرحة الجميع ، وانطلقوا إلى هذا المكان ..

وعندما وصلوا إليه وجدوا إسماعيل وهاجر ..

ولابد أنهم سمعوا منها قصتها وقصة نبع الماء من تحت قدم طفلها .

ولابد أنهم صدقوها فيما قالت ، فهم يعرفون أن هذا المكان لا يوجد فيه ماء ..

ولابد أيضًا أنهم قد هابوها فقد استأذنوها فى النزول ، وكان فى الإمكان أن ينزلوا على الرغم منها ، فهم كثرة وهى وحدها .. فلولا أنهم أنسوا فيها هيبة غير معهودة ما استأذنوها ..

لقد أذنت لهم بالنزول بشرط ألا يكون لهم ملك فى الماء ..

فوافقوا ، وأقاموا ، وأرسلوا إلى أهليهم وأقاربهم فتوافدوا أو توافد كثير منهم ..

وأنست بهم هاجر ، واطمأنت إلى جوارهم ، وتحققت دعوة إبراهيم - عليه السلام - كاملة ..

وقد عمل هؤلاء القوم بجد فى عمارة هذا المكان . وساعدهم وجود الماء على الزرع وتربية الأغنام ، فكثر الخير وفاض .

وظلت هاجر وولدها موضع تكريم وتقدير منهم ..

بين هؤلاء القوم عاش إسماعيل ، وتربى ، وتعلم منهم العربية ..

وقد فرحوا به كثيرًا ، وسعدوا بوجوده ، وشعروا أن فى هذا الغلام سرًا مباركًا جعلهم يحبونه ويقبلون عليه ويتحاشون إغضابه ..

محنة جديدة :

وكان إبراهيم - عليه السلام - يلم بين الحين بولده وأمه ، يستطلع أخبارهما ويعرف أحوالهما ويطمئن عليهما ..

وسره أن الله قد أكرمه بالحفاظ على ولده ، وبإحاطة هؤلاء القوم الذين كفل الله بهم له الأمن والسعادة ..

ولكن أشد الناس بلاء هم الأنبياء ، وقد أراد الله أن يختبر إبراهيم اختبارًا آخر .. ولا عجب فهو أبو الأنبياء ، وعلى نهجه سيسير أنبياء كثيرون ، فيكون قدوة لهم فى التأسى والصبر والاحتساب ..

ولكن هذا الاختبار الجديد أقسى مما مر ..

لقد كان الاختبار الأول هو إلقاء ابنه فى صحراء موحشة لا حياة فيها ، ولكن أمه كانت معه .. فهو ليس وحده على أى حال ..

أما هذا الاختبار الجديد فهو ذبح ابنه ..

لقد رأى إبراهيم فى نومه – ورؤى الأنبياء حق – أنه مأمور بذبح إسماعيل قربانًا لله ..

وتذكر بعض الروايات أن إبراهيم – عليه السلام – قام من نومه مرتاعًا خائفًا ، ويحق له ذلك ، أليس بشرًا ؟ وقد جبل الله الناس على حب الأبناء ؟

وفى الليلة الثانية رأى نفس الرؤيا .. فتروى فى الأمر وتريث ..

وجاءت الليلة الثالثة فرأى الرؤيا نفسها ، فعرف أنه حق ..

قال مقاتل : رأى إبراهيم – عليه السلام – ذلك ثلاث ليال متتابعات ، فعلم أن الأمر من ربه ..

ولم يكن إبراهيم بالرجل الذى يعرض عن أمر ربه ..

فاستجاب لأمر الله ، ولبى نداءه طائعًا مختارًا ..

وذهب إلى ابنه وقص عليه الأمر ، فلم يكن الابن أقل استجابة ولا طاعة لله من أبيه ، بل تقبل أمر الله بالرضا والتسليم ، دون تردد أو تأخير ..

وقد قص الله علينا ذلك – قائلا : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى .. قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾[١٩].

---

(١٩) الصافات ١٠٢.

فهل هناك طاعة لله أعظم من تلك الطاعة ؟

وهل هناك رضا بقضاء الله أتم من هذا الرضا ؟

لقد نجح كلاهما في الامتحان ..

وصحب إبراهيم ولده إلى المكان الذى اختاره لتنفيذ أمر الله فيه ..

الفــــداء :

ولنستمع إلى القرآن الكريم وهو يقص علينا قصة هذا الاستسلام العجيب لأمر الله والرضوخ لقضائه وقدره :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ . وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾[20].

حقًا إنه البلاء المبين . وهل هناك أعظم من الابتلاء بذبح الابن ؟

ومع ذلك فالأب وهو الذابح يسرع فى تنفيذ أمر الله ولا يتوانى عنه .. والابن وهو المذبوح يرضخ لأمر الله ولا يتهرب ولا يرفض ..

لقد أسلم كلاهما الوجه لله ..

وألقى إبراهيم ابنه على وجهه حتى لا تأخذه الرحمة الفطرية حين ينظر إلى وجه ابنه وهو يهم بذبحه ..

وإن كان بعض المفسرين يرى أن معنى – تله للجبين – إلقاؤه على جانبه . لأن الجبين أحد جانبى الجبهة ، وللوجه جبينان والجبهة بينهما .

وكان إبراهيم قد شحذ سكينه جيدًا ، حتى تسرع فى القطع ، ولا يتألم الولد .

---

(٢٠) الصافات ١٠٣ ، ١٠٧ .

وهمَّ الوالد بتنفيذ أمر الله ، وبينما هو يهوى بالمدية على رقبة ولده تدخلت القدرة الإلهية لإنقاذ الذبيح ..

بل إن بعض الرواة يقولون : إن إبراهيم – عليه السلام – نزل فعلاً بالسكين على رقبة ولده ، وأخذ يحز بها فى رقبته ، ولكن السكين انقلبت فى يده ، ولم تقطع السكين شيئًا ..

وتعجب إبراهيم من ذلك ، إنه قد شحذ السكين جيدًا فما بالها لا تقطع ؟

ونظر إلى السماء ، وهنا كانت البشرى التى لم تخطر له على بال ..

هذه البشرى التى زفها الله إلى قلب إبراهيم وولده إسماعيل ..
لقد فدى الله ولدك يا إبراهيم ..

ونزل الملك من السماء ومعه كبش عظيم فداء لإسماعيل ..

وقيل : إنه لم يكد يضع السكين على عنق ولده حتى نودى من السماء بالكف . يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا .. إنا كذلك نجزى المحسنين ..

وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

هذا هو الكبش يا إبراهيم الذى تقبله الله من هابيل منذ القدم قد تقبلته منه وادخرته لولدك .. فخذه واذبحه فداء له ، وسنة متبعة كل عام فى مثل هذا اليوم ، يتقرب المؤمنون إلى الله بأضحياتهم ، ويطعمون منها الفقراء والمساكين ..

لقد نجى الله إبراهيم وإسماعيل من هذه المحنة القاسية ، وقد نجوا بتلك العزيمة الصادقة ، والإيمان العميق ، والصدق العظيم ..

وقد لا يكون هذا الكبش كبش هابيل ، فالله جلت قدرته غنّى عن كبش يدخره لفداء نبى من أنبيائه .

وقال بعض المفسرين فى ذلك : إن الله فدى إسماعيل بكبش عظيم القدر رعى فى الجنة أربعين خريفًا ..

وأيًا مّا كان فقد فدى الله إسماعيل من الذبح ، ونجاه الله ليكون أبا عظيمًا لشعب عظيم كما أخبرت بذلك أمه منذ سنين ..

حياة إبراهيم سلسلة من المحن :

ما أعظم نبى الله إبراهيم ! لقد وفى بعهده مع الله ألا يجزع من قضاء .. وقد كانت حياته سلسلة متواصلة من المحن والتجارب ، خاضها جميعًا فى إيمان عميق وصبر شديد وعزم قوى ..

وفى كل تجربة من تجاربه تمتد يد القدرة لتنقذه فى اللحظة الحاسمة . والوقت المناسب . ويكون إنقاذه معجزة تدهش العقول وتحير الألباب ، وتدفع المتشككين إلى الإيمان ..

فقد تمكن الكفار منه قديمًا ، وأوثقوه بالحبال ، وأججوا له نارًا وقذفوه فيها .. فأوحى الله إلى النار : ﴿ كُونِى بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾[٢١]..

وكان فى مقدور الحق سبحانه أن لا يمكن الكفار منه ، وكان فى مقدوره أن يأمر السماء فتمطر فتنطفىء النار قبل أن يلقى فيها إبراهيم .. ولكن الله ترك المحنة تصل إلى غايتها لتكون المعجزة أعظم وأقهر ، وتكون الفرحة أكثر والسعادة أغمر .. وحتى لا يقول الكفار لولا أن السماء أمطرت لاحترق إبراهيم .. وهذا هو التحدى العظيم للكفار .. والعناية الفائقة بإبراهيم .

وفى محنة إسماعيل وهاجر حين تركهما فى المكان الموحش ، أنجاهما الله من الهلاك المحتوم ، فى لحظة اليأس الخانقة التى تبلغ القلوب فيها الحناجر ويظن المؤمنون فيها بالله الظنون ، أنقذهما بتفجير زمزم تحت قدم إسماعيل .

وهى معجزة حية محسوسة باقية إلى الآن وإلى ما شاء الله تشهد بقدرة الله الخارقة وعنايته الفائقة .

---

(٢١) الأنبياء ٦٩.

وفى محنة إبراهيم فى مصر أنجى الله زوجته سارة من براثن الذئب البشرى ملك مصر حينئذ ، بمعجزة خارقة أيبست يد الملك وأدخلت الرعب فى قلبه ، فجعل يتضرع لسارة أن تطلق سراحه ، فدعت الله ففك وثاقه وأعاد الحركة إلى يده التى شُلَّت ..

وفى هذه المحنة القاسية ، محنة ذبح إسماعيل ، نجى الله إسماعيل من الذبح ، ولم يبق بينه وبين الذبح إلا ثوان معدودة لو أن الله أعطى السكين القوة ولم يجردها من عملها الذى صنعت من أجله .. وفداه بذبح عظيم ..

وكأن الله أراد أن يكون البلاء شديدًا حتى تكون الفرحة بالنجاة منه أشد ، والثواب عليه أعظم ، فعلى قدر المحنة والاختبار يكون الثواب والجزاء، وتكون الفرحة باجتيازه .

وحق لإبراهيم أن يستبشر بنجاة ابنه . وحق للإنسانية جمعاء أن تفرح بذلك ، لأن إسماعيل هذا الذى فداه الله سيكون من نسله المطهر نبى الإنسانية الأعظم الذى سوف يرسله الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ..

وذبح إبراهيم الكبش ، وسط فرحة عظيمة شملت الأب والابن والأم على السواء ، وسجدوا لله شكرًا على هذه النعمة العظيمة والمنة الكبيرة . وأنعم الله على إبراهيم بنعمة أخرى نجد مصداقها فى القرآن العظيم حيث يقول :

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ . سَلامٌ عَلَى إبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ . وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ . وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾[٢٢].

---

(٢٢) الصافات ١٠٨ : ١١٣ .

من الذبيح ؟

وملاحظة هذه الآيات الكريمة يدلنا سياقها دلالة قاطعة على أن الذبيح هو إسماعيل ، وهو وإن كان اسمه لم يذكر صريحًا فى الآيات الكريمة إلا أن السياق يفيد ذلك .

ذلك أن البشرى بإسحاق ذكرت صراحة بعد ذكر قصة الذبح ، مما يدل على أن إسحاق غير الغلام الذى ابتلى إبراهيم بذبحه .

وعود الضمير على الغلام الذبيح وذكر اسم إسحاق صريحًا فى قوله تعالى : ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ﴾ يقتضى التغاير بين الذبيح وإسحاق .

أما اليهود فيزعمون أن الذبيح هو إسحاق ، ويحرفون نصوص التوراة حتى تتلاءم مع زعمهم وهدفهم الذى يقصدونه ، كما يزعمون أن أحداث هذه القصة دارت فى أرض الشام ، على أحد جبال القدس ، وأن الله – سبحانه وتعالى – أمر إبراهيم أن يذبح ابنه إسحاق ويقدمه قربانًا لله ويحرقه كما تحرق القرابين ، ويجب أن نعلم أن كون الذبيح هو إسحاق لا يطل لنا نحن المسلمين حجة ، ولا يقدح لنا فى دليل ، ولا يتعارض مع شرعنا وعقيدتنا .

ولكننا إحقاقًا للحق ووضعًا للأمور فى نصابها وحقيقتها نقول : إن أكثر المفسرين والمحققين على أن الذبيح هو إسماعيل ، وأن قصة الذبح هذه كانت قبل ولادة إسحاق ، وأن أحداثها وقعت فى مكة المكرمة ، فى المقام أو فى المنحر بمنى ، أو فى جبل من جبال مكة .

والنص الذى استشهد به اليهود من التوراة يدل على كذب ادعائهم ، ويدل على تحريفهم لكتبهم .

ذلك أنهم يقولون ، إن نص التوراة يقول : قال الرب لإبراهيم : خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق ، واذهب به إلى أرض الموريا – أى القدس – وأصعده محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك ..

فهذا النص الذى يستشهدون به يقول : خذ ابنك وحيدك إسحاق . وإسحاق لم يكن فى يوم من الأيام وحيدًا لإبراهيم - عليهما السلام - لأن إسماعيل - عليه السلام - أكبر منه سنًا . وقد ولد إسحاق بعد إسماعيل بنحو أربع عشرة سنة . فالذى كان وحيدًا لإبراهيم هو إسماعيل لا إسحاق .

وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبتلى إبراهيم بذبح ابنه الوحيد ليكون ذلك أدل على نهاية الطاعة والامتثال لأمر الله[٢٣].

ومما يدل على رد قول أهل الكتاب ويؤكد أن الذبيح هو إسماعيل أن الله - سبحانه وتعالى - وصفه بالصبر فى قوله تعالى : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾[٢٤].

قال المفسرون بالنسبة لإسماعيل هو صبره على الذبح .

كما وصفه بصدق الوعد فى قوله - تعالى - : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً ﴾[٢٥].

وذلك أنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به .

ومما يدل على رد قولهم أيضًا قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيًا من الصالحين ﴾ فكيف يأمره بذبحه وقد وعده أن يكون نبيًا ؟ ويدل على ذلك أيضًا قوله - تعالى - : ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ فكيف يأمره بذبح إسحاق قبل إنجاز الوعد بولادة يعقوب ؟

فهذه كلها أدلة صريحة قاطعة فى أن الذبيح هو إسماعيل ..

أما ما يزعمه اليهود فلا يبعد أن يكون من تحريفاتهم ..

---

(٢٣) قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢٤) الأنبياء ٨٥ .

(٢٥) مريم ٥٤ .

وتحريف اليهود لكتبهم شائع ومعروف تحدث عنه القرآن فى أكثر من موضع . قال تعالى : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[٢٦].

وقد حذرهم الحق سبحانه وتعالى مغبة ذلك فى قوله : ﴿ وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٢٧].

فالادعاءات الباطلة والزعم الفاسد ليس غريبًا على طباعهم ..

قال محمد بن كعب القرظى : سأل عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - رجلاً من علماء يهود وكان قد أسلم وحسن إسلامه : أى ابنى إبراهيم أمر بذبحه ؟

فقال : إسماعيل . ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إن يهود لتعلم ذلك ولكنهم يحسدونكم يا معشر العرب على أن يكون أبوكم الذى أمر الله بذبحه ، ويزعمون أنه إسحاق أبوهم ، ومن الدليل عليه أن قرنى الكبش كانا منوطين بالكعبة فى أيدى بنى إسماعيل إلى أن احترق البيت ، واحترق القرنان فى أيام ابن الزبير والحجاج[٢٨].

سُنة الذبح :

نجى الله إسماعيل - عليه السلام - من الذبح ، وفداه بذبح عظيم ، وأصبح الذبح سُنة من سُنن المسلمين فى عيد الأضحى من كل عام ، وواجبًا على كل حاج فاته نسك من مناسك الحج ، أو قصر فى واجب من واجباته ،

---

(٢٦) النساء ٤٦ .

(٢٧) البقرة ٤٢ .

(٢٨) حياة الحيوان للدميرى - مادة كبش - جـ ٢ ص ٤٧٥ .

أو قرن بين الحج والعمرة ، أو تمتع بالعمرة ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾(٢٩).

وفي الذبح قربة إلى الله بإطعام الفقراء والمساكين .. قال تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾(٣٠).

وقال تعالى :

﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾(٣١).

وفي الذبح أيضًا إحياء لسُنة إبراهيم - عليه السلام - وتذكير بنعمة الله عليه وعلى الناس عامة والمسلمين خاصة ..

وكما فدى الله إسماعيل - عليه السلام - بذبح عظيم ، فقد اشترط الإسلام على المسلم أن يكون الهدى خاليًا من العيوب سليمًا من المرض ، فإن الله طيب ولا يقبل إلا طيبًا .. وهو الذى يقول : ﴿ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾(٣٢)..

إسماعيل يواصل حياته :

بعد فداء إسماعيل - عليه السلام - واصل حياته كما كانت بين بطون قبيلة جرهم ، وقد عرفنا أنه تعلم منهم اللغة العربية ، وأحبهم وأحبوه ، وأعجبوا به سلوكًا وأخلاقًا وذكاءً ونشاطًا ونباهةَ شأن ..

وكانت أمه قد لقيت ربها راضية مرضية مطمئنة على ولدها بين هؤلاء القوم .

---

(٢٩) البقرة ١٩٦ .
(٣٠) الحج ٢٨ .
(٣١) الحج ٣٦ .
(٣٢) البقرة ٢٦٧ .

وتزوج إسماعيل امرأة من قبيلة جرهم - عند بعض الرواة - فأصبح واحدًا منهم واندمج فيهم اندماجًا تامًا وتوثقت صلته بهم أكثر وأكثر ..

ومضت مدة من الزمن واشتاق إبراهيم لزيارة ولده ، فشد الرحال إليه ..

وحين وصل إليه لم يجده ، كان قد خرج ساعيًا في طلب الرزق . ووجد امرأته ، فأخذ يسأل عنه وعن أحواله وأحوالها معه وأحوال حياتهم ، فشكت إليه سوء الحال وقلة الرزق وضيق العيش وخشونة الحياة ..

لقد رأى إبراهيم فيها امرأة متمردة على القدر ، لا ترضى بما قسم الله لها ، غير شاكرة لله أنعمه ، غير قانعة بالرزق .. وليس هكذا تكون زوجة المؤمن فضلاً عن النبى ..

إن المؤمن يحتاج إلى امرأة تعينه بالرضا والقناعة على المضي فى طريقه إلى الله بسلام وثبات ..

والمرأة واحة يجد الزوج فى ظلها الأمن والراحة من مشقة الحياة والكفاح والجهاد .. فمتى لا يجد فيها غير الشكوى والصخب ضاق ذرعه ووهن عزمه وضعف عن مواجهة الحياة .

من أجل ذلك قال إبراهيم لهذه الزوجة : إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولى له : إن عليه أن يغير عتبة داره ..

إنها كناية لطيفة عن المرأة ..

والعتبة تعنى طريق الدخول إلى الدار ، وبدونها لا يستقيم الباب ثم لا تستقيم الدار كلها ..

وقد شاء إبراهيم ألا يفهم هذه الكناية إلا ابنه المرشح للنبوة والذى أعطاه الله الذكاء وسرعة الفهم .

وعاد إبراهيم لتوه دون أن يلقى ابنه .

ولما عاد إسماعيل من رحلته ودخل بيته آنس شيئًا غريبًا . لقد أحس بريح أبيه . أدرك ذلك بقلبه وروحه . فسأل زوجته : هل حضر إلينا من أحد ؟

فقالت : نعم ، حضر شيخ كبير صفته كذا وكذا ، ووصفته ..

فقال لها : هل سألك عن شيء ؟

فقالت : نعم ، سألنى عنك وعن أحوالنا ، فشكوت له ما نحن فيه من ضيق فى الرزق ، وخشونة فى العيش ، ومصاعب فى الحياة .

فقال لها : وهل أوصاك بشيء ؟

قالت : نعم ، أوصانى أن أقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تغير عتبة الدار ..

فقال لها : ذاك أبى خليل الرحمن ، وقد أمرنى بأن أفارقك فالحقى بأهلك ..

وما أظهرته زوجة إسماعيل من الشكوى قد لا يكون فى ظن البعض سببًا كافيًا لأمر إبراهيم ابنه بفراقها ، فالمعروف من طبع المرأة الشكوى والتبرم السريع بضوائق الحياة ، والتطلع إلى حياة الترف وزخارف الدنيا . ولو طبقت قاعدة إسماعيل هذه على نساء عصرنا لطلقن جميعًا إلا القليل منهن .. فمن منهن لا تشتكى ؟ ومن منهن لا تندب حظها صباح مساء ؟ ومن منهن لا تزعم أن نصيبها فى الحياة أقل كثيرًا مما تستحقه ؟

لكن بيوت الناس شيء وبيوت النبوة شيء آخر ، فما يتجاوز عنه فى بيوت عامة الناس لا يتجاوز عنه فى بيت من بيوت النبوة ، فلكل بيت مكانته ، ولكل زمان طبيعته . وما يقبل من زوجات عامة الناس لا يقبل من زوجة نبى ابن نبى ، وقد كشف لنا القرآن جانبًا من هذا بالنسبة لزوجات النبى - ﷺ - حين تطلعن إلى ما تتطلع إليه النساء عادة من زينة الحياة الدنيا ، وطمعن فى أن يكون لهن مثل ما لغيرهن من متاع وزخرف وترف فقال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ

﴿ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝٣١ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[٣٣] .

وقد كانت زوجة إسماعيل – عليه السلام – من المحبات للدنيا وزينتها ، تؤثر متعها على متع الآخرة ، لهذا فارقها إسماعيل كما أوصاه والده . وربما كان هناك سبب آخر يضاف إلى ذلك ، وإن كان هذا السبب وحده وهو حب الدنيا والرغبة الشديدة فيها يكفى للفراق ، فقد ورد أن حب الدنيا رأس كل خطيئة ..

هذا السبب الآخر أشارت إليه بعض المصادر وهو أن هذه الزوجة قد أساءت استقبال إبراهيم – عليه السلام – وحين سلم عليها لم ترد عايه السلام ، وطلب إليها النزول من فوق دابته لحين حضور ولده قائلاً لها : هل من منزل ؟ فرفضت وقالت : لا ها الله[٣٤] ..

فإذا صح ذلك فهو سوء خلق ، فهذا شيخ غريب وقور وافد من بلاد بعيدة تبدو عليه مشقة السفر ..

وكان هذا الشيخ يطمع فى أن يجد فى بيت ابنه الذى هو بيته حقيقةً وفرضًا راحته . فإذا بربة هذا البيت تتجهم فى وجهه وترفض أن ترد عليه السلام وتأبى أن تستقبله بعبارات مجاملة تتناسب وحالته ، بل ترد عليه فى جفاء : لا والله لا تنزل . وهو الذى طبيعته الأولى الكرم والوفاء .. فأى جحود أكبر من ذلك ؟ وأى جفاء أشد من هذا الجفاء ؟ وكيف يبقى الجحود والجفاء وسوء الخلق فى بيت من بيوت النبوة ؟؟ .

---

(٣٣) الأحزاب ٢٨ : ٣٢ .

(٣٤) مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص ٣٢٠ .

الزوجة الثانية :

طلق إسماعيل زوجته ، ثم تزوج من امرأة أخرى طيبة طيعة صالحة ، ليست فيها تلك الصفات التي كانت فى الزوجة الأولى .

ويقول بعض الرواة إن الزوجة الأولى لم تكن من جرهم بل كانت من العماليق ، ويستندون فى ذلك إلى أن الذين نزلوا فى جوار هاجر أولاً لم يكونوا الجراهمة بل كانوا العماليق ، وقائدهم « السميدع بن هُوبر بن لاوى » وقد رحبت بهم هاجر . وكانت زوجة إسماعيل الأولى هى « الجداء بنت سعد العملاق » وهى التى طلقها إسماعيل .

وحدث أن الجراهمة سمعوا بخبر الماء فى هذا المكان فتوافدوا ونزلوا بجوار الماء ، ومن هؤلاء كانت زوجة إسماعيل الثانية . وهى « سامة بنت مهلهل ابن سعد بن عوف »[٣٥]..

واستأذن إبراهيم سارة أن يزور ولده ، فاستحلفته غيرةً عليه أنه إذا أتى الموضع لا ينزل عن ركابه .

ويشاء القدر أن يكون إسماعيل أيضًا فى تلك المرة ، مرتحلاً فى طلب الرزق . فلم يجده أبوه ، ووجد زوجته ، فسلمت عليه ورحبت به ، وتلقته بأحسن لقاء .

وسألها عن أحوالهما وأحوال معيشتهما ، فقالت : نحن بخير والحمد لله ، وفى سعة من الرزق ، وفى نعمة عظيمة ، وفاض لسانها بحمد الله والثناء عليه ، كما أثنت على زوجها وعلى أخلاقه العظيمة وحسن معاملته لها ، وسعيه الدءوب على توفير الحياة الكريمة لها .

وألحت هذه المرأة على إبراهيم فى أن ينزل عن دابته ، ولكنه كان قد أقسم ألا ينزل ، وهو وفى لما يقول . تلك طبيعته وصفته .

---

(٣٥) المرجع السابق.

فلما أبى أن ينزل ، قدمت له لبنًا وشرائح من لحم الصيد ، وهو جالس فوق راحلته ، فدعا لها بالبركة ..

ثم جاءت بحجر كان فى البيت فمال عن ركابه ، وجعلت الحجر تحت قدمه اليمنى ، ثم رجّلت شعره ودهنته ، ثم حولت الحجر إلى شماله فوضع رجله اليسرى عليه ، ومال برأسه فرجلته ودهنته ، فأثرت قدماه فى الحجر .

فلما رأت الجرهمية ذلك أكبرت ما شاهدته ، وهذا الحجر هو مقام إبراهيم . فقال لها إبراهيم : ارفعيه فسيكون لهذا الحجر شأن ونبأ بعد حين .

ثم قال لها : إذا جاءك إسماعيل فقولى له : إن إبراهيم يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : احتفظ بعتبة بيتك ، فنعمت العتبة هى .

وقفل إبراهيم راجعًا نحو الشام[٣٦]..

وعاد إسماعيل إلى داره وأحس بالريح الطيب الذى أحس به قبل ذلك . فسأل زوجته عن حالها ، وعما إذا كان قد جاءهم أحد ، فقالت : نعم ، حضر شيخ جليل حسن الهيئة ، بهى الطلعة ، يجلله الوقار وتكسوه الهيبة ، فسأل عنك وعن أحوال معيشتنا .

فقال لها : ألم يوصك بشىء ؟

فقالت : بلى ، أوصانى أن أقرئك السلام ، وأقول لك : ثبت عتبة بابك .

فقال لها إسماعيل – عليه السلام – : هذا أبى وقد أمرنى أن أحتفظ بك ولا أفارقك[٣٧]..

---

(٣٦) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٢٠ .
(٣٧) قصص الأنبياء ص ١٠٥ .

بناء البيت :

وتمر الأيام ، ويبلغ إسماعيل من العمر ثلاثين سنة ، وقد أصبح له بنون ..

وجاء إبراهيم إلى مكة ..

وفى هذه المرة لم يكن مجيئه للزيارة والاطمئنان كما جاء فى المرتين السابقتين ..

وإنما كان مجيئه لأمر عظيم وهدف جليل ، فقد أمره الله – تعالى – بإعادة بناء البيت الحرام ورفع قواعده ..

وما أعظمها من مهمة ، وما أنبله من هدف ، وما أجله من شرف !

هذا البيت الذى وجد منذ آدم أو قبل آدم فى بعض الروايات ، وغمره الطوفان فى عهد نوح – عليه السلام – وهو البيت الذى كان أول بيت وضع للناس مباركًا وهدى للعالمين ، وجعله الله مثابة للناس وأمنًا .. يتقربون إلى الله بزيارته ، ويتبركون بالطواف حوله ، ويجدون فى حماه الأمن والسلام ويعودون منه وقد غفر الله ذنوبهم وتجاوز عن سيئاتهم وامتلأت قلوبهم هدى ورحمة وسكينة ، إنهم يعودون كيوم ولدتهم أمهاتهم طهارة ونقاء ..

هذا البيت العتيق أُمر إبراهيمُ بإعادته وأُمر إسماعيل بمساعدة أبيه فى هذه المهمة الجليلة : ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ والْعَاكِفِينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾[٣٨] ..

وجاء إبراهيم إلى مكة .. وبحث عن إسماعيل والتقى به وكان قد مضى زمن طويل دون أن يلتقيا .. فقد مرت بعد حادثة الذبح سنون كثيرة .. فما أن رأى كل منهما الآخر حتى اعتنقه . وصنع كل منهما ما يصنع فى هذه المناسبة الجليلة ..

وفرح إسماعيل بلقاء والده ، وتهلل وجهه بالبشر والسرور لرؤيته ، وأفضى إبراهيم لابنه بالمهمة التى جاء من أجلها فتضاعف فرح إسماعيل حين

---

(٣٨) البقرة ١٢٥ .

علم أن الله وكل إليه مهمة مساعدة والده فى بناء البيت الحرام ، فأى شرف أعظم من مشاركته فى بناء بيت الله فى الأرض حيث يواجه البيت المعمور فى السماء ؟

وسأل إسماعيل أباه عن المكان الذى سيبنى فيه البيت ، فأشار إبراهيم إلى مكان مرتفع عما حوله ، وأخبره أن هذا هو مكان البيت .

ولم تكن المهمة سهلة ، ولكن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - لم يفكرا فى ذلك على الإطلاق ، لأنهما يعلمان علم اليقين أن الذى أمرهما ببناء البيت لن يتركهما وحدهما ، ويدركان أن القدرة الإلهية ستعاونهما فى هذا العمل ..

إن العناية الإلهية كانت مصاحبة لهما فى مسيرتهما عبر الحياة ، فهل تتخلى عنهما الآن ؟ كلا ..

لقد تعهدت هذه العناية إسماعيل وهو رضيع لا حول له ولا قوة فى تلك الصحراء القاحلة ففجرت له الماء تحت قدمه ..

وتعهدت هذه العناية إبراهيم فجعلت النار بردًا وسلامًا له حين ألقاه قومه فيها ..

وتعهدتهما العناية معًا حين هَمَّ إبراهيم بذبح ولده استجابة لأمر الله ففدى الذبيح بكبش هبط به جبريل من السماء .. وقال الله فى ذلك ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾[٣٩] .

فكيف تتخلى عنهما هذه العناية فى هذه المهمة ؟؟

إنهما ينفذان ما أمرهما الله به ، ويقومان ببناء بيت الله الذى سيحجه الناس من كل حدب وصوب . ومن أجل ذلك أقبلا على العمل بهمة ونشاط وهما يستعينان بالله القادر على أن يسهل أمامهما كل صعب وييسر لهما كل عسير.

---

(٣٩) الصافات ١٠٧ .

كشف إبراهيم عن مكان البيت ، وأخذ في رفع القواعد ، وإسماعيل يعاونه في ذلك كما قال الله تعالى ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(٤٠).

والقواعد هى الأساس ، والمعنى أن إبراهيم – عليه السلام – أخذ يبنى فوقها فترتفع ، لأن البيت كان مؤسسًا قبل ذلك .

وسيأتى تفصيل ذلك – إن شاء الله تعالى – فى عدد خاص عن الكعبة المشرفة .

الحجر الأسود :

أخذ إبراهيم يبنى وإسماعيل يعاونه .. كان يناوله الحجارة كما يقول الرواة – حتى ارتفع البناء وطالت الجدران ، ولم تعد يد إبراهيم تستطيع الوصول إلى أكثر من ذلك ..

وكان لابد من البحث عن حجر كبير ليقف عليه إبراهيم حتى تستمر عملية البناء ، فبحثا عن حجر يصلح لتلك المهمة ، فهداهما الله إلى حجر « بمقام إبراهيم » ، قام عليه إبراهيم ، وأخذ يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة ، وكلما فرغا من جدار انتقلا إلى جدار آخر حتى تم البناء .

وذكر بعض المفسرين أن الحجر الأسود جاء به جبريل من السماء ، وأن إبراهيم وضعه فى مكانه الموضوع به الآن .

وقد تحدث الرواة كثيرًا عن هذا الحجر ، وعن أهميته وعن المكان الذى جاء منه ، أمن الأرض أم من الجنة ؟ وعن لونه وعن التبرك به وقيمته ..

فإذا صح أنه كان نتيجة بحث إبراهيم وإسماعيل فهو حجر عادى إذن .. أما إذا كان قد هبط به جبريل فهو ذو منزلة خاصة .

---

(٤٠) البقرة ١٢٧ .

وتظهر هذه المنزلة في أنه مبتدأ الطواف في جميع المذاهب ، وتقبيله ولمسه ووضع الجبهة عليه من السنن ما أمكن ذلك ، فإن اشتد الزحام أشار الحاج إليه بيده ، يفعل ذلك عند كل طوفة. وإذا تعذر عليه لمسه بيده لمسه بما في يده كعود مثلاً ، ثم يقبل يده أو العود الذى لمسه[41]..

لقد قبل النبى - ﷺ - الحجر الأسود ، وورد ذلك فى آثار عدة منها:

ذكر البزار عن جعفر بن عبد الله بن عثمان المخزومي قال: « رأيت محمد ابن عباد بن جعفر قبل الحجر ثم سجد عليه ، وقال : رأيت عمر قبله وسجد عليه » وقال: رأيت رسول الله - ﷺ - قبله وسجد عليه.

ونزول الحجر الأسود من السماء ورد به أثر صحيح رواه الترمذى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضًا من اللبن فسودته خطايا بنى آدم . قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح..

وفى استلام الحجر معنى تعبدى دقيق ، إذا لاحظنا أن مناسك الحج كلها رموز وإشارات إلى معان روحية عميقة ، ترتفع بالإنسان إلى حالة من الصفاء والنقاء ، وتخلصه من أدران المادة التى يتقلب فيها صباح مساء.. ابتداء من تجرده عن المخيط وإحرامه بالحج بعد اغتساله ، وجهره بالتلبية ، وطوافه حول البيت ، واستلامه الحجر وتقبيله إياه ، وسعيه بين الصفا والمروة ، ووقوفه بعرفة ، ورميه الجمار ، وغير ذلك من مختلف المناسك التى يقوم بها الحاج..

وما ورد عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - حين قال : « والله إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله - ﷺ - يقبلك ما قبلتك » يفهم منه أنه يريد أن يلاحظ الحاج فى تقبيله الحجر رب الحجر لا الحجر نفسه..

---

(٤١) الفقه على المذاهب الأربعة..

وقد ذكر الترمذى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبى ﷺ - قال فى الحجر : « والله ليبعثنه الله يوم القيامة وله عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد على من استلمه » ..

ومعنى يشهد على من استلمه أنه يشهد لمن استلمه ، فعلى بمعنى اللام ، قياسًا على قوله تعالى : ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾[42] أى ما ذبح للنصب .

ويؤيد ذلك أن هناك رواية أخرى للحديث وردت باللام وهى :

« ليبعثن الله الحجر يوم القيامة وله عينان ينظر بهما ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحق »[43].

قال السيوطى فى جمع الجوامع : رواه أحمد ، وابن حبان ، والطبرانى ، والبيهقى فى السنن ، عن ابن عباس .

ومعنى ذلك أنه يضر وينفع بإذن الله ..

فشهادته لمن يحج فيها نفع له من غير شك ، وإنطاق الجمادات ليس بمعجز إذا أراد الله ..

وقد ورد فى بعض الأخبار - رَدٌّ بهذا الحديث على عمر - رضى الله عنه - حين قال قولته تلك ..

إن للحجر الأسود قدسية خاصة عند الناس جميعًا ، حتى قبل الإسلام .. الإسلام ..

---

(42) المائدة ٣ .

(43) هذا الحديث رواه أحمد فى مسنده - مسند ابن عباس - جـ ١ ص ٣٧١ قال : حدثنا عبد الله ، حدثنى أبى ، ثنا روح ، ثنا حماد ، عن عبد الله بن عثمان بن خشيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبى - ﷺ - قال : ليبعثن الله تبارك وتعالى الحجر يوم القيامة وله .. الحديث .. جمع الجوامع جـ ٣ ص ١٤٤٠ الحديث رقم ١٧١ ١٧٩٧٣

ويدل على ذلك ما ورد عند تجديد الكعبة فى عهد الجاهلية ، وقبل بعثة النبى - ﷺ - بخمس سنوات .. حرصت كل قبيلة أن يكون لها شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه .. وتنافسوا تنافسًا شديدًا أدى إلى صراع أوشك أن يشعل الحرب الدامية بينهم ، وقد حسم هذا الخلاف النبى - ﷺ - إذ حكموه بينهم.

فأتى النبى - ﷺ - برداء وضع الحجر الأسود بيده الشريفة عليه ، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بطرف من أطراف الرداء ، فاختارت كل قبيلة منها فردًا أمسك بطرف من الأطراف ونقلوا الرداء وفوقه الحجر إلى جوار الكعبة ، فتناوله النبى - ﷺ - بيده الشريفة ووضعه فى مكانه.

ورضى القرشيون جميعًا بهذا الحل الذى أطفأ الحرب التى أوشكت أن تشتعل فيما بينهم.

لقد توارث الناس عبر الأجيال توقير هذا الحجر وتعظيمه ، وما ذلك إلا لخصوصية أودعها الله فيه ..

وقد حدثنا الرواة أن هناك حربًا اشتعلت قديمًا بين إياد ومضر بسبب الولاية على البيت ، وانهزم الإياديون فقلعوا الحجر الأسود وأخفوه ، فرأت مكانه امرأة من خزاعة، فأخبرت قومها بهذا المكان، فذهب الخزاعيون لمضر وقالوا لهم: نحن نعرف مكان الحجر ولنا عليكم إن رددناه أن نتولى البيت . فوافقوا على ذلك ، فعادوا به وردوه إلى مكانه وتولوا أمر البيت[٤٤].

والله جلت قدرته يخص بعض مخلوقاته بأسراره التى يكون لها تأثير فى القلوب والأرواح ، وهناك أماكن فضلت على أماكن ، وأيام فضلت على أيام ، وناس فضلوا على ناس ، بل هناك رسل فضلهم الله على رسل ، أخبر بذلك الحق سبحانه حيث يقول: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ

---

(٤٤) مروج الذهب جـ ١ ص ٢٢٦ .

فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾[٤٥].

وقد فهم البعض من استلام الحجر وتقبيله معنى مبايعة الله على الاستقامة على النهج السليم والطريق المستقيم ، وكأن فى ذلك عزمًا على الإقلاع عن المعصية والإقبال على الطاعة ، وبذلك يعود الحاج مغفورًا ذنبه ، مستورًا عيبه ، مستجيبًا له ربه.. مصداقًا لما رواه مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: « من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه ».

وفى ذلك إشارة إلى أنه بالحج خرج من الضيق إلى السعة ومن الظلمة إلى النور، ومن ذل المعصية إلى عز الطاعة..

فما أعظم معانى الحج وما أجمل ما تشير إليه مناسكه من دلائل وإشارات!.

فهم بعض العلماء لأسرار الحج:

لقد فهم بعض العلماء أسرار الحج ، فتأدبوا بالآداب المطلوبة التى استنبطوها من واقع جهادهم لأنفسهم ، ومن تذوقهم لجمال العبادة والإقبال على الله حتى إنهم إذا قالوا: لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك. ألزموا أنفسهم ألا يجيبوا بعد ذلك دواعى النفس والشيطان بعد ما أجابوا الحق بالتلبية وأقروا أنه لا شريك له فى ملكه .

فإذا نظروا إلى البيت بأعين رءوسهم نظروا بأعين قلوبهم إلى من دعاهم إلى البيت .

فإذا طافوا حول البيت بأبدانهم فمن آدابهم أن يذكروا قول الله - عز وجل - ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾[٤٦] فكأن الملائكة تنظر إلى طوافهم

---

(٤٥) البقرة ٢٥٣ .

(٤٦) الزمر ٧٥ .

فإذا صلوا خلف المقام يعلمون أنه مقام عبد قد وفى لله – تعالى – بعهده ، فندب الأولين والآخرين إلى متابعة قدمه .

فإذا استلموا الحجر وقبلوه علموا أنهم يبايعون الله بأيمانهم ، فمن الأدب ألا يمدوا بعد ذلك أيمانهم إلى شهوة[٤٧] ..

وهناك محاورة طريفة جرت بين أبى القاسم الجنيد ورجل عاد من الحج ، نذكرها لندرك منها كيف فهم العلماء بالله أسرار العبادة وتذوقوا لذاتها .

قال الجنيد للرجل : أرحلت من جميع ذنبك حين رحلت عن دارك ؟

قال الرجل : لا ..

قال الجنيد : فأنت لم ترحل .. ثم قال الجنيد : وبعد كل مرحلة نزلت حيث تلبث بالليل ، هل قطعت مرحلة إلى الله ؟

قال الرجل : لا .. فقال الجنيد : فأنت لم تقطع الطريق مرحلة مرحلة .

ثم قال الجنيد : وحين لبست ثياب الإحرام فى موضعه . هل خلعت صفات البشرية عنك وأنت تخلع ثوبك ؟

قال الرجل : لا .. فقال الجنيد : فأنت لم تحرم .

ثم قال الجنيد : وحين وقفت بعرفة ، هل تأملت فى الله لحظة ؟

فقال الرجل : لا ..

فقال الجنيد : فأنت لم تقف بعرفة . ثم قال : وحين أفضت إلى المزدلفة ، وقضيت مناسكك ، هل رفضت جميع الأغراض الجسدية ؟

قال الرجل : لا ..

قال الجنيد : فأنت لم تفض إلى المزدلفة .

---

(٤٧) اللمع للطوسى ص ٢٢٨ .

ثم قال الجنيد : وحين طفت بالبيت ، هل أدركت الجمال الإلهى فى بيت الطهر ؟

قال الرجل : لا .. قال الجنيد : فأنت لم تطف بالبيت .

ثم قال الجنيد : وحين سعيت بين الصفا والمروة ، هل أدركت معنى الصفاء والمروءة ؟

قال الرجل : لا .. فقال الجنيد : فأنت لم تسع .

ثم قال الجنيد : فلما وصلت إلى المنحر ونحرت القربان ، هل نحرت أسباب متاع الدنيا ؟

قال الرجل : لا .. فقال الجنيد : فأنت لم تنحر .

ثم قال الجنيد : فلما رميت الجمار هل رميت ما صحبك من أفكار جسدانية ؟

قال الرجل : لا .. فقال الجنيد : فأنت لم ترم الجمار ، بل لم تؤد على ذلك حجًا .

ويعقب الدكتور أحمد الشرباصى بعد أن ساق هذه القصة بقوله : هذه القصة إن صحت تصور لنا المثالية الروحية العبادية التى يتطلع إليها الأئمة العارفون ، مع ما فى هذه القصة من توسع فى الطموح إلى بلوغ الدرجة العليا التى تعز على كثير من الناس[٤٨].

إن كثيرًا من الناس ، بل عامة الناس ، يكفيهم أن يسقطوا الفريضة عنهم بأدائها على أى صورة كانت ، دون التفطن لما تهدف إليه من أسرار ، ودون أن يتكلفوا فى سبيل أدائها مشقة . وهم يبحثون من أجل ذلك عن أقرب الطرق وأيسرها ، وعن أجمل الأماكن وأكثرها راحة فى الإقامة ،

(٤٨) التصوف عند المستشرقين ص ٤٩ د . أحمد الشرباصى .

ويجعلون من موسم الحج موسم متعة وسياحة واقتناء سلع وتحصيل منافع مادية ، ثم الأهم مع ذلك الحصول على لقب « حاج » وما من أجل ذلك أقيمت الكعبة وشرع الحج .

جبريل يعلم إبراهيم وإسماعيل المناسك :

بعد أن فرغ إبراهيم وإسماعيل من بناء البيت طلبا من الله – سبحانه وتعالى – أن يعلمهما المناسك ، وقد حكى القرآن الكريم ذلك فى قوله – تعالى – :

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾(٤٩)..

لقد طلبا من الله أن يثبتهما على الإسلام ، فقد كانا مسلمين لله مخلصين له ..

وهذا يدل على أن الإسلام هو الدين الذى ارتضاه الله لعباده منذ الأزل ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾(٥٠)..

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾(٥١)..

لقد كان إبراهيم مسلمًا – إذن – وقد ورد ذلك فى نص صريح فى القرآن الكريم ..

﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾(٥٢) .

---

(٤٩) البقرة ١٢٨ .
(٥٠) آل عمران ١٩ .
(٥١) آل عمران ٨٥ .
(٥٢) الحج ٧٨ .

وقد استجاب الله – تعالى – دعاء إبراهيم وإسماعيل .

أرسل إليهما جبريل – عليه السلام – فعلمهما المناسك ..

رمي الجمار :

روى أنه أخذ بيد إبراهيم وانطلق به نحو منى ، فلما كان عند العقبة إذا إبليس قائم عند الجمرة ، فقال لإبراهيم : كبر وارمه ..

فكبر إبراهيم ورماه ..

فذهب إبليس حتى أتى الجمرة الوسطى ، ففعل به إبراهيم كما فعل فى الأولى ..

ثم فعل مثل ذلك فى الجمرة الثالثة ..

لقد رمى إبراهيم الشيطان فعلاً ..

وأصبح الرمى بعد ذلك شعيرة تمارس فى الحج .. وأصبح رمزًا لرفض وساوس الشيطان ورجمه وعدم الاستجابة لهمزاته ..

وهناك قصة أخرى رواها أبو هريرة عن كعب الأحبار وابن إسحاق عن رجال تدور حول سبب الرمى ..

قالوا : لما رأى إبراهيم فى المنام أن يذبح ابنه قال الشيطان : والله لئن لم أفتن عند هذا آل ابراهيم وإلا لم أفتن أحدًا منهم أبدًا ..

فتمثل لهم الشيطان رجلاً ، فأتى أم الغلام فقال لها : أتدرين أين ذهب إبراهيم بابنك ؟

قالت : ذهب به ليحتطب من هذا الشعب .

فقال : لا ، والله ما ذهب إلا ليذبحه .

قالت : كلا هو أرحم به منى وأشد حبًا له من ذلك .

فقال لها : إنه يزعم أن الله أمره بذلك .

فقالت له : إن كان أمره بذلك فقد أحسن فى امتثال طاعة ربه ، وفى استسلامه لأمر الله تعالى .

فخرج الشيطان من عندها هاربا ، حتى أدرك الابن وهو يمشى على أثر أبيه .

فقال الشيطان للابن : يا غلام ، هل تدرى أين يذهب بك أبوك ؟

قال : نحتطب لأهلنا من هذا الشعب .

قال : لا ، والله مايريد إلا ذبحك .

قال : ولم؟

قال : يزعم أن الله أمره بذلك .

قال إسماعيل : فليفعل ما أمره الله به ، فسمعا وطاعة لأمر الله – تعالى ..

فلما امتنع منه الغلام أقبل على إبراهيم ، فقال له :

أين تريد أيها الشيخ؟

قال : أريد هذا الشعب لحاجة لى .

فقال إبليس : والله إنى لأرى الشيطان قد جاءك فى منامك يأمرك بذبح ابنك هذا .

فعرفه إبراهيم فقال له : إليك عنى يا ملعون ، فو الله لأمضين لأمر ربى .

فرجع إبليس – لعنه الله – بغيظه لم يصب من إبراهيم وأهله شيئا مما أراد وقد امتنعوا منه بعون الله وتأييده .

ولعله أتبع بالرجم من كل منهم حين عرض لهم .

وروى أبو الطفيل عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن إبراهيم – عليه السلام – لما أمر بذبح ابنه عرض له إبليس عند المشعر الحرام فسابقه فسبقه إبراهيم – عليه السلام – .

ثم ذهب إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب .

ثم عرض عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات ، حتى ذهب .

ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات . حتى ذهب ثم مضى إبراهيم عليه السلام لأمر الله(٥٣) .

وذكر ابن إياس فى كتابه عن السُّدى : أن إبليس تعرض لإسماعيل فى صورة شيخ فقال له :

إلى أين تمضى يا إسماعيل؟

قال : مع أبى يقرب قربانا إلى الله تعالى .

فقال إبليس : أتدرى ما القربان الذى يقربه أبوك؟

قال : لا .

قال : إنه يريد أن يذبحك وقد جئتك ناصحا .

فعرفه إسماعيل : فقال له : ياإبليس أيفعل هذا أبى من قبل نفسه أم بأمر ربه؟

فقال إبليس : بل بأمر ربه .

فقال إسماعيل : إذا كان الذبح بأمر ربى فكيف أعصى ذلك ؟ فرجع إبليس خائبا ، فكان كلما اتبع إسماعيل يرميه بالحصى . فصار من يومئذ رمى الجمار سنة(٥٤) .

بقية المناسك :

ثم أخذ جبريل بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام .

ثم ذهب حتى أتى به عرفات .

---

(٥٣) قصص الأنبياء للثعلبي ص ٩٥ .

(٥٤) بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس ص ٨٥ .

ثم قال له : هل عرفت ما أريتك ؟ – قالها ثلاثا –

قال إبراهيم : نعم . ولعل ذلك سبب في تسمية هذا المكان عرفة .. وهناك تعليلات أخرى لهذا الاسم ، قد سبق في قصة آدم تعليل منها .

قال جبريل : فأذن في الناس بالحج .

قال : كيف أؤذن ؟

قال : قل يأيها الناس أجيبوا ربكم ثلاث مرات :

ففعل إبراهيم ذلك . فأجاب العباد : لبيك اللهم لبيك ، فمن أجاب ابراهيم يومئذ من الخلق فهو حاج .

وقد ذكر الله – تعالى – ذلك في كتابه الكريم حيث قال :

«وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » [٥٥] .

الأمر بتطهير البيت :

وأمر الله – سبحانه وتعالى – إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – بتطهير البيت من الرجس والأوثان ..

وفى الواقع إن هذا الأمر منصرف إلى من جاء بعدهما ، فالبيت حين بنياه قام على الإسلام والتوحيد ، وظل كذلك فى عهدهما .. ولكن الأوثان نصبت حول الكعبة بعد ذلك بكثير بعد وفاة إسماعيل وخروج الولاية إلى غير بنيه ..

والأمر بتطهير البيت من الرجس ينصرف أيضا إلى من يطوف به من الناس ، فإنه يجب عليه أن يكون طاهر الثوب والجسد والقلب .

---

(٥٥) الحج ٢٧ : ٢٩ .

وفى الأمر بتطهير البيت قال تعالى :

﴿ وإذْ جَعَلْنا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَأمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إلَى إبْرَاهِيمَ وَإسْمَعِيلَ أنْ طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾[٥٦].

دعاء إبراهيم لمكة :

وقد دعا إبراهيم – عليه السلام – لمكة التى بوركت بهذا البيت فقال كما حكى القرآن الكريم :–

﴿ وإذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أضْطَرُّهُ إلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرِ ﴾[٥٧].

وقد استجاب الله هذا الدعاء.

فعمرت مكة وبوركت ، وأصبحت يجبى إليها ثمرات كل شىء ..

وفى عصرنا هذا أصبحت مكة من أرق الحواضر فى العالم عمارة ونظاما ونظافة وتنسيقا .. حتى إنها لتنافس فى ذلك أعظم المدن فى العالم ..

وزادها جلالاً وروعة وجود هذا البيت العتيق الذى تهفو إليه قلوب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وإليه يولون وجوههم فى صلاتهم صباح مساء يعبدون الله وحده ، يقدسون اسمه ويسبحون بحمده آناء الليل وأطراف النهار .

إسماعيل فى مكة :

ورحل إبراهيم – عليه السلام – بعد إنجاز المهمة التى وكلت إليه من الحق سبحانه ..

---

(٥٦) البقرة ١٢٥ .

(٥٧) البقرة ١٢٦ .

وبقى إسماعيل فى مكة ..

وكانت أمه قد ماتت منذ حين ودفنت فى حمى الكعبة فى الحِجْر ، ولها من العمر تسعون سنة[٥٨] ماتت قبل أن تبنى الكعبة .

وقيل : كان لها من العمر حين ماتت نحو ستين سنة ولإسماعيل من العمر عشرون سنة .

والمشهور أنها ماتت قبل زيارة إبراهيم لابنه إسماعيل بعد زواجه فى المرة الأولى . وإن كان بعض الرواة يذكر أنها كانت فى الزيارة الأولى على قيد الحياة ، ولم يلتق إبراهيم بها لأنها كانت مع ابنها فى رحلته لارتياد الرزق .

وأنجب إسماعيل من زوجته الثانية اثنى عشر ذكرًا ..

هم : بنايوت أو نابت ، وقيدار ، وأدبيل أو أدئيل ، ومبسم أو مبسام ، ومشمع أو مشمشاع ، ودوما أو دومة ، ومسّا ، وحداد أو حدار ، وتيما أو ثيما ، ويطور ، ونافش أو نافيش ، ودوام – كما يقول المسعودى[٥٩]، أو قدمه كما يقول غيره . وكل هؤلاء قد أنسل ، وأصبح رئيس قبيلة .

ومن قيدار هذا كان النبى – ﷺ – فيما يذكره ابن سعد فى نسب النبى – ﷺ –[٦٠] وهو الأشهر . وإن كان بعضهم ينسبه إلى نابت بن إسماعيل .

وكان النبى – ﷺ – إذا انتسب انتهى بنسبه عند معد بن عدنان بن أدد ، ويقول : كذب النسابون ، قال الله تعالى : ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾[٦١].

ويذكر ابن سعد أسماء أبناء إسماعيل على النحو الآتى :

---

(٥٨) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٢٠ ، الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢٥ .

(٥٩) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ص ٨٣ .

(٦٠) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢٨ .

(٦١) الفرقان ٣٨ .

قال : أخبرنا هشام بن محمد الكلبي عن أبيه قالا : ولد لإسماعيل بن إبراهيم - صلى الله عليهما - اثنا عشر رجلاً ، وهم : بناوذ وهو نبت وهو نابت ، وهو كُيْر ولده ، وقيذر ، وأذبل ، ومنسى وهو منشى ، ومسمع وهو مشماعة ، ودما وهو دوما وبه سميت دومة الجندل ، وماشي ، وأذر وهو أذور ، وطيما ، ويطور ، وبنش ، وقيذما .

وأمهم - في رواية محمد ابن إسحاق - رِعْلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي ، وفي رواية الكلبي : رعلة بنت يشجب بن يعرب .

وقد مرت بنا رواية المسعودي التي تذكر أن زوجته هي « سامة بنت مهلهل بن سعد بن عوف » ..

قال الكلبي : وكانت لإسماعيل امرأة من العماليق قبل الجرهمية ، وهي التي كان قد جاءها إبراهيم فجفته في القول ففارقها إسماعيل ولم تلد له شيئاً .

وقيدار هو الذي تناسل منه أجداد النبي ، ومن نسله كانت قريش التي حفظت الكعبة بعد انتزاعها من قبضة الجراهمة والخزاعيين ..

وقد ورد في التوراة ما يفيد ذلك وإن كانوا يلتوون في فهمه .

فمما ترجمه السريانيون من كتاب أشعيا - عليه السلام - إخبارًا عن الله - سبحانه وتعالى - أنه قال :

« قد أقسمت بنفسي كقسمي أيام نوح لأغرقن الأرض بالطوفان ، فإني كذلك أقسمت أني لا أسخط عليك ، ولأرفعنك ، فإن الجبال تزول والقلاع تنحط ، ورحمتي عليك لا تزول .

« يا مسكينة يا مضطهدة ، هأنذا بانٍ بالجص حجارتك ومزينك بالجوهر ، ومكلل باللؤلؤ سقفك ، وبالزبرجد أبوابك ، وتبعدين من الظلم ، ولا تخافين .

« وكل سلاح يصنعه صانع لا يعمل فيك ، وكل لسان يقوم معك بالخصومة ، ويسميك الله اسمًا جديدًا .

« فقومي وأشرقي فإنه قددنا نورك ، ووقار الله عليك ، انظرى بعينيك حولك ، فإنهم يجتمعون ، يأتيك بنوك وبناتك عنوًا ، فحينئذ تشرقين وتزهرين ، ويخاف عدوك ، ويشبع قلبك .

«وكل غنم «قيدار» تجتمع إليك ، وسادات «بناوت» يخدمونك ، وتفتح أبوابك دائما الليل والنهار ، ويتخذونك قبلة ، وتدعين بعد ذلك مدينة الرب» .

وقد علق ابن ظفر الحموى فى كتابه خير البشر بخير البشر على هذا النص بقوله :-

« فهذا - أيدكم الله - تصريح البشرى بنبوة محمد - ﷺ - لأنه خطاب يجب صرفه إلى الكعبة . ألا تسمعون إلى ذكر «قيدار» و«بناوت» ؟

« فقيدار . هو ابن إسماعيل - عليه السلام - و «بناوت» هى بنت قيدار بن إسماعيل ، والاسم الجديد الذى سميت به الكعبة هو البيت الحرام ، وقوله : تدعين مدينة الرب هو قولنا : حرم الله . وقوله : كل سلاح يصنعه صانع لا يعمل فيك إشارة إلى الأمن الذى خصصت به من دون الأرض . وقوله : غنم قيدار تصريح بذكر الهدايا المجلوبة إليها فى الحج والعمرة . وقوله : سادات «بناوت» يخدمونك إشارة إلى سدنة الكعبة وهم من أولاد بنت قيدار بن إسماعيل - عليه السلام - ثم غاية التصريح ونهايته قوله : ويتخذونك قبلة»[٦٢] .

فقد كثر نسل إسماعيل - إذن - وعمروا مكة فيما بعد ولكن بعد خطوب مرت ..

والذى تولى أمر الكعبة بعد وفاة إسماعيل - عليه السلام - هو بكره «نابت» .

---

(٦٢) خير البشر بخير البشر لابن ظفر - مخطوطة تحت الطبع ان شاء الله ص ٢٦ .

ثم قام من بعده أخواله الجراهمة لكثرتهم وغلبتهم ، وفى عهدهم حدث تغيير وتبديل لدين الله .

ويقولون : إن أول من ملك بمكة من الجراهمة رجل اسمه مضاصن بن عمرو بن سعد . وورث الأمر من بعده أبناء وأحفاد ظلوا كذلك حتى بادوا وزالت آثارهم .

وفى عهد الجراهمة حدثت قصة أساف ونائلة ، اللذين بغيا فى حرم الله فمسخهما الله حجرين صيرهما الجهل بعد ذلك وثنين يعبدان من دون الله وتنحر لهما القرابين فى حرم الكعبة .

وبمرور الأيام كثر ولد إسماعيل ، وصاروا ذوى قوة ومنعة ، فغلبوا على أخوالهم الجراهمة ، وأخرجوهم من مكة ثم عفت آثارهم بعد ذلك .

وبذلك انتقلت ولاية البيت إلى أهلها وعاد الأمر إلى نصابه من جديد .. وظلت كذلك حتى جاء الإسلام ، وسنعرض لذلك بشىء من التفصيل فى العدد الخاص عن الكعبة – إن شاء الله تعالى – .

رسالة إسماعيل :

من المسلم به أن إسماعيل – عليه السلام – كان رسولاً نبيًا – ، مصداقًا لكلام الله – تعالى – :

«وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا . وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَ الزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا»(٦٣) .

أما قومه فهم الجراهمة أخواله ، ومن كان يقيم معهم فى مكة . وقيل : أرسل إلى العماليق وقبائل اليمن(٦٤) .

وقد جاء ذكر إسماعيل فى أعقاب قصة إبراهيم قبل هاتين الآيتين بقليل مما يدل دلالة قاطعة أن المقصود بإسماعيل هو ابن إبراهيم الخليل – عليهما السلام – .

---

(٦٣) مريم ٥٤ ، ٥٥ .

(٦٤) قصص الأنبياء للثعلبى ص ١٠٦ .

ولكن بعض العلماء فى رأى ضعيف ذكره القرطبى أن إسماعيل هو إسماعيل بن حزقيل ، بعثه الله فى قوم فسلخوا جلدة رأسه ، فخيره الله - تعالى - فيما شاء من عذابهم ، فاستعفاه ورضى بثوابه ، وفوض أمرهم إليه فى عفوه وعقوبته .

ولكن الجمهور يرون أنه إسماعيل الذبيح أبو العرب ابن إبراهيم ..

ولم يرد ذكر إسماعيل بن حزقيل هذا فى سلسلة الأنبياء الذين ذكرهم القرآن .. وقد يكون هذا من تأويل الكتابيين الذين ينفسون على العرب كل مكرمة ..

وقد علمنا مما سبق أن الجراهمة الذين أرسل إليهم إسماعيل هم الوافدون إلى مكة بعد أن علموا بقصة زمزم التى تفجرت فى الصحراء ..

وكان العماليق قد سبقوهم إلى الإقامة هناك بعد أن أجهدهم الجدب واشتد بهم الظمأ حتى كاد يستأصلهم ، وفى ذلك يقول لهم زعيمهم يشجعهم على الانتجاع واستيراد الماء :

سيروا بنى الكركر فى البلاد إنى أرى ذا الدهر فى فساد
قد سار من قحطان ذى الرشاد جرهم لما هدها التعادى

فلما علمت جرهم بنزول بنى الكركر على ماء ، وعرفت ماهم فيه من خصب وسعة رزق بادرت إلى مكة تحت زعامة الحارث بن مضاصن بن عمرو .

وأصهر إليهم إسماعيل وتزوج منهم زوجته الثانية التى أنجب منها .. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

وبمرور الأيام كثر النازلون من القبيلتين ، وحدث ما يحدث بين الناس من صراع أدى إلى حروب ، وقد انتصر العماليق فى بادىء الأمر وصارت

لهم ولاية البيت ، ثم عادت كرة الحرب فانتصرت جرهم فأصبحت لها ولاية البيت ..[٦٥] .

ومما لاشك فيه أن رسالة النبي في مكان تتوجه إلى المقيمين فيه . ولما كان المقيمون عمالقة وجراهمة فقد توجهت رسالة إسماعيل - إذن - لهم جميعًا . وربما شملت رسالته البلاد التي وفدوا منها وهي اليمن . كما ذكر ذلك بعض الرواة .

ومضمون رسالة إسماعيل لايخرج على مضمون رسالة إبراهيم - عليه السلام - ومن سبقه من الأنبياء والمرسلين .

كان يدعو إلى عبادة الله وحده لاشريك له .

وكان يدعو إلى الإيمان باليوم الآخر .

وكان يحض على مكارم الأخلاق .

صدق وعد إسماعيل :

وقد وصف الله سبحانه وتعالى إسماعيل بصدق الوعد ، مع أن جميع الأنبياء كذلك .

ولكنه كان مشهورا بهذه الصفة مبالغا فيها ..

ومن صدقه في وعده أنه كان قد وعد الصبر من نفسه على الذبح فوفى بذلك .

وهذه قمة الوفاء والصدق ، فقد التزم بالوفاء بروحه وبذل دمه ، ولم ينكص عن ذلك ، ولم يتردد ، بل مضى ثابت الخطا قوى العزم .. والجود بالنفس أقصى غاية الجود ..

بل إن صبره على الذبح وعدم تردده في الاستجابة لأبيه أصبح مضرب الأمثال ، وحاك الرواة حول ذلك أقاصيص طريفة منها :

---

(٦٥) مروج الذهب للمسعودي حـ ١ ص .

إنه حين قال له أبوه إني أرى في المنام أني أذبحك . قال له : يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب ، واكفف عني ثيابك حتى لا ينتفع عليها دمي دمي فينقص أجري وتراه أمي فتحزن ، واشحذ شفرتك وأسرع بمر السكين على حلقي ، ليكون أهون للموت عليَّ ، فإن الموت شديد ، فإذا أتيت أمي فأقرئها مني السلام ، فإن رأيت أن ترد قميصي إليها فافعل ، فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني .

فقال له إبراهيم : نعم العون يابني أنت على ماأمر الله به .

ففعل إبراهيم ماأمره ابنه ، ثم إنه أقبل يقبله وقد ربطه وهو يبكي والابن يبكي[٦٦] .

ومنها : أن إبراهيم حين قال لولده «إني أرى في المنام أني أذبحك» وقال له إسماعيل : «ياأبت افعل ماتؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين» جلس إبليس على الجبل ليرى مايكون من أمرهما .

ثم إن إبراهيم أضجع ابنه على جنبه الأيمن ، وشد يديه ورجليه بحبل ، فقال إسماعيل : يا أبت لا تشدد رجلي ويدي بالحبل لئلا تقول الملائكة قد جزع من أمر ربه ، فحله ، واستمر إسماعيل مضجعا على جنبه الأيمن من غير وثاق[٦٧] .

فهذه القصص تدل على صدق وعده ، وشدة وفائه ، وعظيم بره : حتى استحق أن يخصص من بين الأنبياء بهذه الصفة النبيلة التي جرى على سننها النبي - ﷺ - وهو حفيده المصطفى .

من صور وفاء النبي - ﷺ -

قال القرطبي : خص الله إسماعيل بصدق الوعد وإن كان موجودًا في غيره من الأنبياء تشريفًا له وإكرامًا ، كالتلقيب بنحو الحليم والأواه والصديق ، ولأنه المشهور المتواصف من خصاله .

---

(٦٦) قصص الأنبياء للثعلبي ص ٩٤ .

(٦٧) بدائع الزهور في وقائع الدهور ٨٥ .

قيل : إنه وعد رجلا أن يلقاه في موضع ، فجاء إسماعيل وانتظر الرجل يومه وليلته ، فلما كان في اليوم الآخر جاء .

فقال له : مازلت هنا في انتظارك منذ أمس .

وقيل : انتظره ثلاثة أيام .

وقد فعل مثله نبينا - ﷺ - قبل بعثه ، ذكره النقاش وخرجه الترمذى وغيره عن عبدالله بن أبى الحمساء ، قال : بايعت النبى - ﷺ - ببيع قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها فى مكان فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاثة أيام ، فجئت فإذا هو فى مكانه ، فقال : يافتى لقد شققت على ، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك(٦٨) .

إن الوفاء بالوعد صفة نبيلة ، والمداومة عليها من أخلاق الصديقين . ومن علامات النفاق خلف الوعد ، كما جاء فى الحديث الصحيح : «آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان» .

وكان العرب قديما يتمدحون بصفة الوفاء ، واشتهر من بينهم أشخاص عرفوا بالوفاء وأصبحوا مضرب الأمثال ، ولكنهم على الرغم من ذلك لم يبلغوا مبلغ إسماعيل أبيهم عليه السلام ..

الأمر بالصلاة :

ومن صفات إسماعيل - عليه السلام - التى ذكرتها الآيتان السابقتان أنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وأنه كان عند ربه مرضيًا ..

أما الأمر بالصلاة فكان يأمر أمته ، وهذا من صلب شريعته وشريعة الأنبياء قبله وبعده . فلا دين بغير صلاة .

والصلاة صلة بين العبد وربه ، ولأهميتها بالنسبة للمسلمين فرضت فى ليلة الإسراء والمعراج من فوق سبع سموات ..

---

(٦٨) لفظ أبى داود - كما ذكر القرطبى - وذكره ابن الأثير فى أسد الغابة فى الترجمة رقم ٢٩٠٣ جـ ٣ ص ٢١٧ .

وأمره بالصلاة فيه استجابة لدعوة أبيه حين قال : « رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى » ..

وهى عماد الدين ومن تركها فقد هدم الدين ..

وأهله الذين كان يأمرهم إسماعيل هم أمته عامة وولده خاصة ..

والأمر بالزكاة ضرورة لتقويض دعائم الشح فى النفوس ، واستلال دوافع الأثرة والأنانية من القلوب . وهو من مقومات الشريعة فى أى دين . ودين الله كله واحد -

أما الصفة التى وصف بها بعد ذلك فهى أنه مرضى عنه من الله .. ورضاء الله غاية مايتمناه العبد من مولاه . ولايتم رضاء الله عن عبد إلا إذا بلغ الغاية العظمى فى الكمال الخلقى ، ورضا الله عن العبد شرط فى رضاء العبد عن ربه ، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾[69].

شريعة اسماعيل :

يقول المفسرون : إن إسماعيل لم يكن صاحب شريعة مستقلة ، وإنما كان على شريعة أبيه إبراهيم - عليه السلام - وقد أُرسل إلى قبيلة جرهم الذين عاش بينهم ، ولهذا وصفه الله بأنه رسول[70] .

والمراد بأهله - كما قدمنا - أمته ، وقيل : عشيرته كما فى قوله - تعالى - : «وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»[71] .

والمراد بالصلاة والزكاة اللتين كان يأمر أهله بهما العبادتان الشرعيتان المعروفتان ، وإن كنا لانعرف بالتحديد الوجه الذى كانتا تؤديان به .

وقد يكون المراد بهما المعنى اللغوى ، أى الدعاء والتطهير .

---

(٦٩) سورة البينة ٨ .

(٧٠) فتح القدير جـ ٣ ص ٣٢٨ .

(٧١) الشعراء ٢١٤ .

قال العلماء : ومما يدل على أن إسماعيل – عليه السلام – كان على شريعة إبراهيم قول الحق – سبحانه وتعالى – مخاطبا المسلمين:

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾(٧٢)

فعدم تكرير الفعل « أنزل » مع إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط دل على أن أولاد إبراهيم كانوا على شريعته ، فالصحف نزلت على إبراهيم – عليه السلام – ولما كان أبناؤه من بعده متعبدين بتفاصيلها ، داخلين تحت أحكامها فقد جعلت منزلة إليهم كما جعل القرآن منزلاً إلينا(٧٣).

وفاة إسماعيل .

ولابد من نهاية للحياة مهما عاش الإنسان ..

ولما حضرت إسماعيل الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق أن يزوج ابنته من عيص بن إسحاق ..

وعاش إسماعيل مائة وسبعا وثلاثين سنة ودفن بالحجر عند قبر أمه هاجر(٧٤) .

وروى عمر بن عبد العزيز أنه قال : شكا إسماعيل إلى ربه – تعالى – حر مكة فأوحى الله – تعالى – إليه : إنى فاتح لك بابًا من الجنة يجرى عليك روحها إلى يوم القيامة ، وفى ذلك المكان دفن(٧٥).

قال ابن إسحاق : تزوج عيص ابن إسحاق بنت عمه « نسيمة بنت إسماعيل بن إبراهيم – عليهما السلام – فولدت له الروم بن عيص ، فكل بنى الأصفر من ولده (٧٦).

---

(٧٢) البقره ١٣٦ .

(٧٣) تفسير ابى السعود مجلدا ص ١٦٦ .

(٧٤) قصص الأنبياء للنجار ص ١٠٩ وللثعلبى ص ١٠٢ ، ولابن إياس ص ٨٦ .

(٧٥) قصص الأنبياء للثعلبى ص ١٠٢ .

(٧٦) المرجع السابق ص ١٠٣ .

إسماعيل أبو العرب

سبق أن قلنا : إن نزول إسماعيل - عليه السلام - وأمه هاجر فى مكان الحرم كان سببًا فى إيجاد أمة من أعظم الأمم هى أمة العرب التى اختار الله منها سيد خلقه محمدًا - ﷺ - .

وقد سمي العرب بهذا الاسم - كما أشار اللغويون - نسبة إلى بلدهم « الْعَرَبَات » ، و « عَرَبة باحة » هى دار أبى الفصاحة إسماعيل - عليه السلام - وفيها يقول القائل :

ورُجّبْ « باحة العربات » رجًّا ترقرق فى مناكبها الدماء[٧٧]

ولتوضيح هذا المعنى يقول ابن منظور :

اختلف الناس فى العرب : لم سموا عربًا ؟

فقال بعضهم : أول من أنطق الله لسانه بلغة العرب هو « يعرب بن قحطان » وهو أبو اليمن كلهم ، وهم العرب العاربة ، ونشأ إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - بينهم - وذلك بعد أن نزحوا إلى مكة - فتكلم بلسانهم ، فهو وأولاده العرب المستعربة .

وقيل : إن أولاد إسماعيل نشأوا بعَرَبة ، وهى من تهامة ، فنسبوا إلى بلدهم ، وروى عن النبى - ﷺ - أنه قال : « خمسة أنبياء من العرب وهم محمد وإسماعيل وشعيب وصالح وهود - صلوات الله عليهم -[٧٨].

---

(٧٧) راجع الأدب العربى وتاريخه . محمد هاشم عطية .. هامش ص ٢٢ .
(٧٨) لسان العرب - مادة عرب ص ٢٨٦٤ ط دار المعارف .

وتجدر الإشارة هنا إلى أقسام العرب لنعرف مكان هود وصالح من العرب ، لأنهما سبقا إسماعيل بقرون .

وقد جرت عادة العلماء على تقسيم العرب إلى طبقات ثلاثة :

العرب البائدة :

أما العرب البائدة ، فهم الذين يضربون فى أعماق التاريخ ، وقد انقرضت قبائلهم ، وضاعت أخبارهم ، وذهبت معالمهم ، ولم يبق لنا عنهم إلا ما جاء فى الأخبار القديمة ، وما قصته علينا الكتب السماوية ومن هؤلاء « عاد » الذين كانوا يسكنون الأحقاف ، الذين أهلكهم الله بريح صرصر عاتية ، ونبيهم « هود » – عليه السلام – ، وقد مرت بنا قصتهم .

ومنهم قبيلة « ثمود » وكانوا يقيمون بالحِجْرِ – ناحية الشام عند وادى القرى[79]. وفيهم نزل قوله – تعالى – : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾[80]، وتسمي قراهم مدائن صالح ، وهى شمالى خيبر[81]، ونبيهم صالح – عليه السلام – وقد مرت أيضًا قصتهم .

ومن هؤلاء أيضًا العماليق الذين يقول فيهم الشاعر :

مضى آل عملاق فلم يبق منهم خطير ولا ذو نخْوَة مُـتَشاوسُ
عَتَوْا فأدال الله منهم ، وحكمه على الناس هذا وعده وهو سائس[82]

وكان العماليق يسكنون أولاً بلاد اليمن ثم انحدروا إلى الشام والعراق ويثرب وغيرها ، ومنهم « الشاسو » أو الهكسوس الذين غزوا مصر ويطلق عليهم ملوك الرعاة أو فراعنة الرعاة[32].

---

(٧٩) لسان العرب ج ٢ ص ٧٨٤ .

(٨٠) آية ٨٠ من سورة الحجر .

(٨١) تاريخ ادب اللغة العربية حامد مصطفى وعبد الجواد رمضان ص ١٦ ط الأزهر .

(٨٢) مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص ٣٢٣ . ومتشاوس : فيه تخد وكبر . وأدال منهم : غلبهم .

(٨٣) الأدب العربى وتاريخه محمد هاشم عطية ص ٢٣ .

ومنهم – أى العرب البائدة – قبيلتا « طسم وجديس » وقد تفانى أفرادهما فى نحو من سبعين سنة فى البرارى والقفار ، بسبب الشحناء التى دبت بينهم فاندثروا ، وبهم يضرب المثل فى سرعة الفناء .

وكانوا يسكنون اليمامة ، قريبًا من عهد ملوك الطوائف من الفرس[٨٤].

العرب العاربة :

وأما العرب العاربة فهم القحطانيون ، وكانوا يسكنون اليمن ، وهم أبناء « يعرب بن قحطان » الذى يزعم بعض الإخباريين أنه هو أول من نطق العربية ، وفى ذلك يقول الشاعر حسان بن ثابت مفتخرًا على الحجازيين :

تعلمتمو من منطق الشيخ يعرب أبينا فكنتم معربين ذوى نَفْر[٨٥]

والمشهور من القحطانيين دولتان هما « سبأ وحمير » جاءتا متعاقبتين .

فأما سبأ فقد ظهرت دولتهم قبل الميلاد بنحو ثمانية قرون ، ولهم قصة فى القرآن الكريم سميت بها سورة ، وفيها يقول الله تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ واشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾[٨٦] . وأشارت سورة النمل إلى طرف من قصة ملكة سبأ[٨٧].

وسيأتى تفصيل ذلك – إن شاء الله تعالى – فى موضعه .

وجاء بعد سبأ الحميريون فى القرن الثانى قبل الميلاد، والغموض يحيط بتاريخهم ، ومن أشهر بطونهم : حمير ، وكهلان ، وقضاعة[٨٨].

---

(٨٤) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٢٣ .

(٨٥) تاريخ أدب اللغة العربية ص ١٧ .

(٨٦) الآية ١٥ من سورة سبأ .

(٨٧) الآيات ٢٠ : ٤٤ من سورة النمل .

(٨٨) الأدب العربى وتاريخه ص ٢٤ .

العرب المستعربة :

وأما العرب المستعربة – ويسمون العدنانيين ، والنزاريين ، والحجازيين ، والإسماعيليين – فهؤلاء هم الذين ينتهي نسبهم إلى إسماعيل – عليه السلام – .

والمنطقة التى يسكنها هؤلاء هى ما تعرف بجزيرة العرب ، فى الطرف الغربى من آسيا ، فى الجزء الواقع جنوب الشام .

وتحيط بها البحار من جهات ثلاث :

ففى الغرب بحر القُلْزُم – البحر الأحمر – .

وفى الجنوب بحر الهند ، أو بحر العرب ، والمحيط الهندى .

وفى الشرق بحر عمان – الخليج العربى –[89].

فهى فى الواقع شبه جزيرة . وتنقسم إلى خمسة أقسام قديمة هى : تهامة ، والحجاز ، واليمن ، ونجد ، والعروض .

وهذا التقسيم يكاد يكون طبيعيًا .

وأصل العرب العام بأقسامهم المختلفة يتصل بسام بن نوح ، ويكاد المؤرخون يجمعون على أن المهد الأول لهذه الشعوب السامية هو وادي الفرات ، أو ما بين النهرين .

وإنهم لما كثروا ، وضاقت عليهم الرقعة التي يقيمون فيها تشعبوا إلى البقاع المجاورة ..

وكانت العرب المستعربة التي تتصل بإسماعيل – عليه السلام – تقيم فى شمال بلاد اليمن ، فى تهامة ونجد والحجاز إلى مشارف الشام والعراق .

وتسميتهم بالإسماعيليين نسبة إلى إسماعيل .

---

(٨٩) راجع الأطلس العربى .

وتسميتهم بالعدنانيين نسبة إلى عدنان الجد الأعلى لقريش .

وتسميتهم بالحجازيين نسبة إلى إقامة أكثرهم بالحجاز .

وتسميتهم بالنزاريين نسبة إلى نزار بن عدنان .

والعدنانيون هم أولاد معد بن عدنان ، وقد أعقب معد نزارًا ، وولَد نزارٌ أنمارا وإيادا وربيعة ومضر .

فأما ربيعة فأشهر بطونها بكر وتغلب .

وأما مضر ، فأعقب إلياس ، ومن أولاده : قيس عيلان ، وطابخة ومدركة ..

ومضر هي التى يفتخر بها الشاعر فى قوله :

إذا مضر الحمراء كانت أرومتى   وقام بنصرى خازم وابن خازم
عطست بأنف شامخ وتناولت   يداى الثريا قاعدا غير قائم

ومن قيس عيلان : هوازن وسُلَيم وغطفان .

ومن غطفان عبس وذبيان .

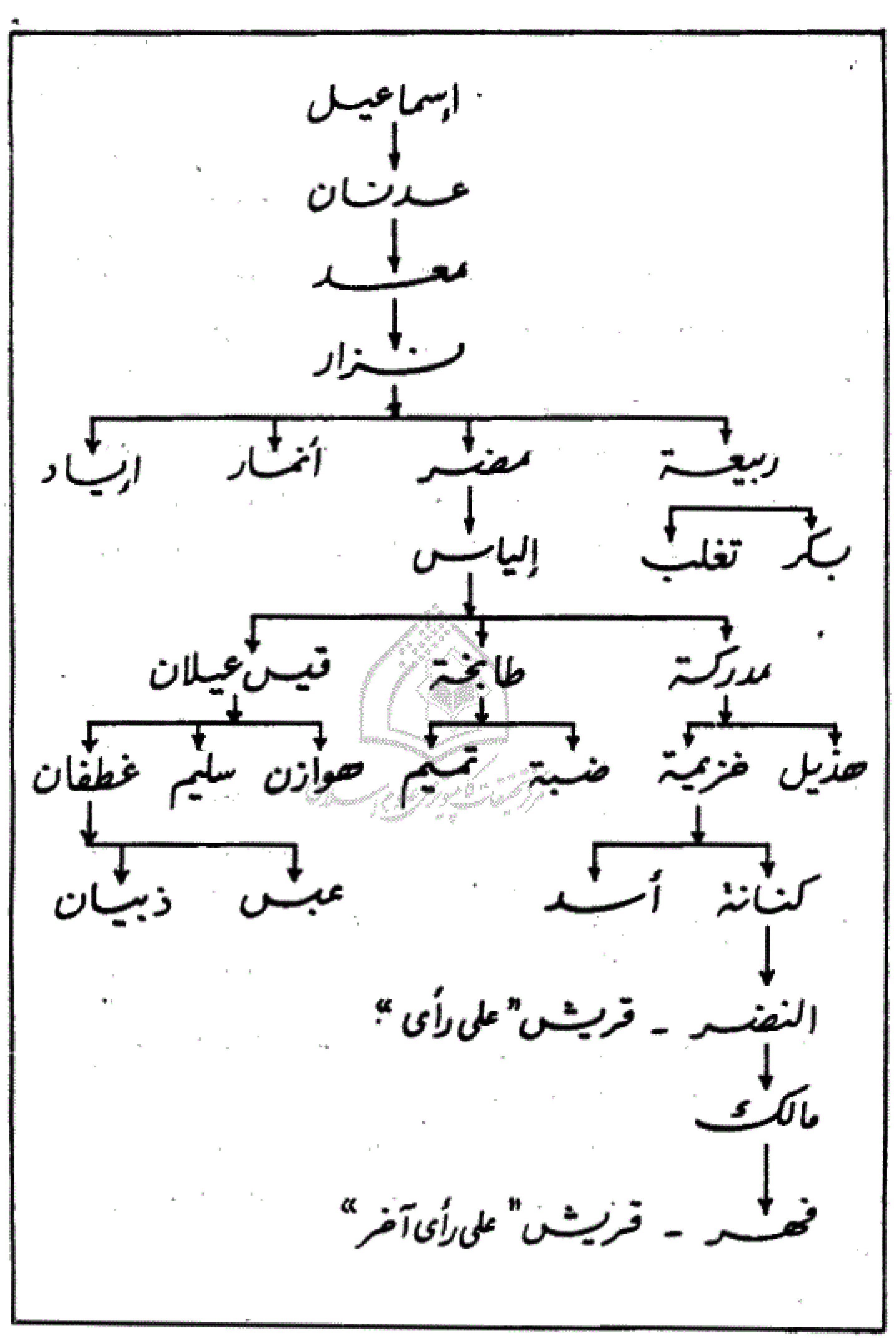
ومن طابخة ضبَّة وتميم .

ومن مدركة هُذَيل وخُزَيمة .

ومن خُزَيمة أسد وكنانة .

ومن كنانة قريش .

ولتقريب هذه الأنساب نضع أمامك الجدول الآتى ، مع ملاحظة أن بين عدنان وإسماعيل سلسلة من الآباء اختلف فيها الرواة ، ولذلك أضربنا عن ذكرها .



فها أنت ذا ترى أن العرب ينتهى نسبهم إلى إسماعيل - عليه السلام - الذى أنزله الله ذات يوم فى واد غير ذى زرع - واستجاب الله

دعوة أبيه إبراهيم حين قال : ﴿ واجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ﴾[٩٠].

إسماعيل واللغة العربية :

وقال ابن منظور : « وكان إسماعيل – عليه السلام – من سكان الحرم ، وكل من سكن بلاد العرب وجزيرتها ونطق بلسان أهلها فهم عرب ، يمنهم ومعدهم .

وقد أقامت قريش بعربة فاستقرت بها ، ثم انتشروا فى الجزيرة فنسبوا إلى عربة ، لأن أباهم إسماعيل – عليه السلام – بها نشأ ، ونشأ أولاده فيها ، فكثروا ، فلما لم تحتملهم البلاد انتشروا وأقامت قريش فى مكانها » .

وينتسب اللسان العربى فى فصاحته وذروة بلاغته إلى قريش التى نزل القرآن الكريم بلغتها .

وقد ورث عدنان جد قريش – والذى ينتهى إليه عمود النسب العربى الصحيح – اللغة العربية عن آبائه الذين تلقوها عن إسماعيل – عليه السلام – وهو أبو العرب المستعربة .

وإسماعيل كان قد أخذها من الجراهمة الذين نزلوا فى جواره فى الحرم بعد أن تفجرت زمزم .

وقد تفتحت عينا إسماعيل على هؤلاء الوافدين الذين صافحت لغتهم سمعه بعد أن شب وترعرع ، وإن كانت هناك لغة أخرى سمعها من أمه ، وهى خليط من القبطية القديمة لغتها الأصلية ، والعبرية التى تعلمتها من إبراهيم وسارة ، ولكن ظلت الغلبة على لسان إسماعيل للغة العربية ، التى أراد الله له أن تكون لغته ولغة أبنائه وأحفاده فهى اللغة التى سينزل بها القرآن المعجز

---

(٩٠) الآية ٢٧ من سورة إبراهيم.

الذى نزل فى شأنه قوله تعالى : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُون ﴾[٩١].

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾[٩٢] .

ولا ينكر أن يكون بين اللغات السامية وشائج وصلات ، وأن تكون اللغة العدنانية مزيجًا موروثًا من لهجات العرب المختلفة ، وفيها من اللغات السابقة .

إلا أنها أصبحت لغة خالصة مصفاة فى لسان ذريته بعده . وبخاصة فى ألسنة القرشيين منهم .

ذلك أن قريشًا حين امتدت نهضتها ، واتسعت سطوتها فشملت أكثر بقاع الجزيرة العربية ، أخذت تصطفى من لهجات العرب أصفى لهجة ، وتنتقى أسلس لغة ، حتى اجتمعت لها البلاغة والفصاحة وروعة البيان وجمال الأسلوب .

لقد انتهت اللغة العربية على لسان قريش « إلى وحدة لسانية عامة لا يشوبها إلا قليل من الخلاف المنطقى ، الذى لم يتعد صورة النطق بالكلام ، اصطلح العلماء على تسميته باختلاف اللهجات . وقليل من الأشباح المتخلفة من الحميرية القديمة فى بعض قاصية القبائل اليمنية التى لم تتأثر بهذه النهضة اللغوية انتهت برجة عنيفة اهتزت لها أقطار الجزيرة العربية وهى ظهور الإسلام »[٩٣].

وتوج الله اللغة العربية - لغة قريش - التى ورثتها من إسماعيل أبى العرب بالقرآن الكريم الذي نزل على أفصح العرب محمد - ﷺ - وكان

---

(٩١) الزمر ٢٨ .
(٩٢) الشعراء ١٩٢ : ١٩٥ .
(٩٣) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ص ٣١ .

معجزة الإسلام الخالدة الباقية التى تحدت العرب فوقفوا أمامها عاجزين مشدوهين .

وقد ذكر الجاحظ أن إسماعيل – عليه السلام – هو أول من انفتق لسانه بالفصحى[٩٤]، وبيان ذلك بالطبع أنه أول من تكلم بها بعد نشأتها الجديدة ، وليس المراد أنه أول من تكلم بالنهج القرآنى الفصيح ، لأن بين إسماعيل وبين نزول القرآن تسعة عشر قرنًا – أو ما يقرب من ذلك – لا يتصور أن تظل اللغة العربية فيها جامدة على ما كانت عليه لا تتغير ولا تتبدل[٩٥].

وكانت لغة قريش أفصح لغة لأنها ابتعدت عن عنعنة تميم وتلتلة بهراء ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة بكر ، وغمغمة قضاعة ، وطمطمانية حمير[٩٦].

وقد وصف أبو بكر الصديق – رضى الله عنه – قريشًا بأنهم أفصح العرب لأنهم أوسط العرب دارًا ، وأحسنهم جوارًا ، وأعربهم لسانًا .

قال قتادة : كانت قريش تجتنى أفضل لغات العرب ، فنزل بها القرآن ، وجعل الله القرآن عربيًا لأنه نسبه إلى العرب الذين أنزله بلسانهم ، وجعل النبى – ﷺ – عربيًا لأنه من صريح العرب[٩٧].

ويؤيد هذا المعنى ما ذكره الآلوسى :

« ولما كانت العرب فى قوة الفهم وحدة الذهن إلى غاية الغايات كانت معجزتهم القرآن ، فإن المعجز من كل قوم بحسب أفهامهم ، وعلى قدر

---

(٩٤) البيان والتبيين للجاحظ جـ ٣ ص ١٧٨ .

(٩٥) تاريخ أدب اللغة العربية فى العصر الجاهلى ص ٩٠ .

(٩٦) تاريخ الآداب للحصرى جـ ٣ ص ٤٨ . والعنعنة ابدال الهمزة عينًا ، والكشكشة : إبدال الكاف شينًا ، والكسكسة : إبدالها سينًا ، والتلتلة والغمغمة والطمطانية : عجمة فى اللفظ عند الكلام لا تجعله بينًا .

(٩٧) لسان العرب لابن منظور –مادة عرب– .

عقولهم وأذهانهم ، والعرب أصح الناس أفهامًا وأحدهم أذهانًا ، قد ابتكروا من الفصاحة أبلغها ومن المعانى أغربها ، ومن الآداب أحسنها ، فخصوا من معجزة القرآن بما تجول فيه أفهامهم وتصل إليه أذهانهم ، فيدركونه بالفطرة دون البديهة ، وبالروية دون البادرة ، لتكون كل أمة مخصوصة بما يشاكل طبعها ويوافق فهمها »[٩٨].

وقد وصف عتبة بن أبى سفيان كلام العرب بأنه أرق من الهواء وأعذب من الماء ، مرق من أفواههم مروق السهام من قسيها ، بكلمات مؤلفات ، إن فسرت بغيرها عطلت ، وإن بدلت بسواها من الكلام استصعبت ، فسهولة ألفاظهم توهمك أنها ممكنة إذا سمعت ، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طلبت ، هم اللطيف فهمهم ، النافع علمهم ، بلغتهم نزل القرآن ، وبها يدرك البيان وكل نوع من معناه مباين لسواه ، والناس إلى قولهم يصيرون وبهديهم يأتمون[٩٩].

كل ذلك يرجع الفضل فيه إلى إسماعيل - عليه السلام - فهو أبو العرب الباقين إلى اليوم ، وكان لسانه العربى هو لسانهم الذى به يتحدثون ، ولغته هى لغتهم التى امتدت اليوم واتسعت ، وخرجت من حدود الجزيرة العربية وانساحت مع الفتوح الإسلامية إلى مختلف البلاد التى رفعت لواء الإسلام واستظلت براية القرآن ، كتاب الله الخالد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

وما أجمل أن نختم هذا الفصل بحوار يبين عن فضل العرب ذكره ابن عبد ربه فى كتابه « العقد الفريد » قال :

رُوى عن شبيب بن شبة قال :

---

(٩٨) المختار من كتاب بلوغ الأرب فى أحوال العرب -لمحمود شكرى الآلوسى ص ١٤ دار المعرفة .

(٩٩) زهر الآداب جـ ٢ ص ٤٨ .

كنا وقوفًا بالمربد ، وكان المربد[100] مألف الأشراف ، إذ أقبل ابن المقفع ، فبششنا به وبدأناه بالسلام ، فرد علينا السلام ، ثم قال :

لو ملتم إلى دار نيروز وظلها الظليل ، وسورها المديد ، ونسيمها العجيب ، فعودتم أبدانكم تمهيد الأرض ، وأرحتم دوابكم من جهد الثقل ، فإن الذى تطلبونه لم تُفاتوه ، ومهما قضى الله لكم من شىء تنالوه .

فقبلنا ، وملنا . فلما استقر بنا المكان قال لنا :

أى الأمم أعقل ؟

فنظر بعضنا إلى بعض ، فقلنا : لعله أراد أصله من فارس ، فقلنا : فارس .

فقال : ليسوا بذلك ، إنهم ملكوا كثيرًا من الأرض ، ووجدوا عظيمًا من المُلك ، وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبث فيهم عقد الأمر فما استنبطوا شيئًا بعقولهم ، ولا ابتدعوا باقى حكم فى نفوسهم .

قلنا : فالروم .

قال : أصحاب صنعة .

قلنا : فالصين .

قال : أصحاب طُرفة .

قلنا : فالهند .

قال : أصحاب فلسفة .

قلنا : فقل أنت . قال : العرب . فضحكنا .

---

(١٠٠) المربد : المراد سوق بالبصرة كان مجتمع الناس للمنافع المادية والأدبية .

قال : أما والله ما أردت موافقتكم ، ولكن إذا فاتنى حظى من النسبة ، فلا يفوتنى حظى من المعرفة ؛ إن العرب حكمت على غير مثال مثل لها ، ولا آثار أثرت ، أصحاب إبل وغنم ، وسكان شعر وأدم ، يجود أحدهم بقوته ، ويتفضل بمجهوده ، ويشارك فى ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويُحَسِّن ما شاء فَيَحْسُن ، ويُقَبِّح ما شاء فَيَقْبُح ، أدبتهم نفوسهم ، ورفعتهم هممهم ، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم ، فلم يزل حباء الله فيهم ، وحباؤهم فى أنفسهم ، حتى رفع لهم الفخر ، وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر . علا الخير فيهم ولهم ، فقال : ﴿ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ العَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١٠١) فمن وضع حقهم خسر ، ومن أنكر فضلهم خُصِم ، ودفع الحق باللسان أكبت للجنان(١٠٢).

هذه هى أمة العرب التى ازدانت فى أولها بإسماعيل - عليه السلام - وفى شرفها بمحمد - ﷺ - وفى لغتها بالقرآن الكريم ..

* * *

(١٠١) الأعراف ١٢٨ .

(١٠٢) العقد الفريد لابن عبد ربه جـ ٢ ص ٤٢ .

قصة

إسحاق

عليه السلام

- البشارة بإسحاق .
- لم سمي بإسحاق ؟
- لماذا ضحكت سارة ؟
- البشرى وما ورد فى التوراة بخصوصها .
- أثر البشارة فى نفس سارة .
- رأى الكتابيين فى الذبيح .
- متى ولد إسحاق ؟
- إسحاق فى كنف والده .
- العبرة من القصة .

إسحاق – عليه السلام

هو بشرى الملائكة لإبراهيم الخليل – عليه السلام – كان مجيئه معجزة خارقة تتحدى سنن الحياة العادية ، وتثبت قدرة الله التى تقول للشيء كن فيكون .

وقد ورد ذكر اسحاق فى القرآن الكريم سبع عشرة مرة فى اثنتى عشرة سورة[1] .

وهو فى هذه المواضع كلها محل ثناء من الله – سبحانه وتعالى – ومبعث قدوة طيبة وأسوة حسنة .

واسمه كما ورد فى التوراة « إبساك » ومولده فى عيد الفصح[2] .

وهذه التسمية ليست دقيقة ، بل هى ترجمة محرفة للكلمة العبرية « يصحق » .

وتعليل هذا التحريف – كما ورد فى تعليق كتب على هذه المادة[3] – أن الأوربيين ليس فى لغتهم الحرف « ض » .

فهم يبدلون الضاد المعجمة صادا مهملة ، فيقولون فى أرض : أرص . ويصحق أصلها العربى « يضحك » ، ومن الواضح قرب العلاقة بين القاف والكاف .

واختيار هذا الاسم مرجعه إلى قوله – تعالى – حين بشرتها الملائكة بأنها ستلد غلامًا عليمًا ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[4]

قالت سارة حين سمعت بشارة الملائكة كما وردت عبارتها فى التوراة : قد صنع الله لى ضحكا . كل من يسمع يضحك لى[5] .

---

(١) هى البقرة – آل عمران ، النساء ، الانعام ، هود ، يوسف ، إبراهيم ، مريم ، الأنبياء ، العنكبوت ، الصافات ، ص .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٣ مادة إسحاق .

(٣) كتبه الشيخ عبد الوهاب النجار على مادة إسحاق فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٤) آية ٧١ – هود . (٥) دائرة المعارف – والعبارة من سفر التكوين ف ٧ – ٢١ .

وذكر الكتابيون ان إسحاق – عليه السلام – ولد فى عيد افصح، ويذكر بعض علماء المسلمين أنه ولد فى ليلة عاشوراء .

وكان قد وعد إبراهيم به قبل ولادته بعام[٦].

أما تحديد زمن الولادة فلم يرد به نص قاطع يؤكده أو يرجحه ، والقول بأحدهما لا يقدم فى مغزى القصة ولا يؤخر ، والذى يمكن أن يقال فى اختلاف الزمنين الظاهر ، أنه لا تعارض بينهما إذا اعتبرنا إمكان ورود اليومين – عيد الفصح ، وعاشوراء – فى وقت واحد ، هذا على فرض صحة ولادته فى ذلك الوقت . وخاصة إذا أدركنا أن عيد الفصح خاضع للشهور القبطية ، وعاشوراء واقعة فى الشهور العربية[٧].

لماذا ضحكت سارة ؟

والآية السابقة تشير إلى أن ضحك سارة كان سابقا على البشارة ... فلماذا ضحكت إذن ؟

يعلل المفسرون ضحك سارة تعليلات مختلفة

فمنهم من يقول : إن الضحك هو الحيض ..

ولا ينكر بعض علماء اللغة هذا التفسير، وهم يقولون : ضحكت الأرنب إذا حاضت . قال الزمخشرى : وتزعم العرب أن الجن تمتطى الوحش وتجتنب الأرنب لأنها تحيض[٨] .

وقد أنكر هذا التفسير بعضهم وقالوا : إنه ليس بمستقيم إلا أن يكون كناية .

والأقرب من ذلك أن يكون ضحكها تعجبًا ، وهذا ما يتبادر إلى الذهن ويساير المنطق .. فما مثار عجبها ؟

---

(٦) دائرة المعارف .

(٧) يأتى عيد الفصح يوم الجمعة الحزينة التى تسبق يوم الأحد وهو عيد القيامة عند المسيحيين اما عشوراء فهى اليوم العاشر من المحرم .

(٨) اساس البلاغة للزمخشرى . مادة ضحك .

إنها رأت أن إبراهيم حين زاره الملائكة ، وامتنعوا عن تناول طعامه ، أوجس فى نفسه خيفة منهم . فتعجبت سارة، كيف يفزع إبراهيم وهو بين حشمه وخدمه مع قوته التى يتحدثون عنها ويقدرونها أنها تقوم بمائة رجل[9]. كيف يفزع - إذن - من ثلاثة ؟

وقد يكون مبعث الضحك السرور بالضيافة ، وكان إبراهيم - عليه السلام مضيافا يكنى أبا الضيفان - وقد مر ذلك - وكان أهله فى خدمة الأضياف وكانت « سارة » تُسر إذا طرقتهم ضيوف .

والذى يشهد أنها فى خدمة الأضياف قوله تعالى : ﴿ وامرأته قائمة ﴾ فقيامها فى خدمتهم ، اهتمامًا بأمرهم .

وقد استنبط العلماء من قيام زوجة إبراهيم جواز أن تكون الزوجة معينة لزوجها فى إكرام الضيوف ، بل استحباب ذلك[10].

ومما يشهد لذلك ما رواه مسلم عن سهل بن سعد قال : دعا أبو أسيد الساعدى رسول الله - ﷺ - فى عرسه ، فكانت امرأته يومئذ خادمهم .

وذكروا أن الملائكة حين قالوا لإبراهيم لا تخف وأخبروه بأنهم رسل ربه فرح بذلك ، ففرحت زوجته لفرحه - والزوجة الصالحة تفرح لفرح زوجها وتغتم لغمه - فضحكت لذلك .

وقد يكون ضحكها استبشارا بمقدم هؤلاء الذين ترى البشر فى منظرهم واليمن فى مطلعهم والبركة فى مقدمهم والنور فى موكبهم.. فهؤلاء وإن كانوا بشرا فى مظهرهم إلا أن الإحساس الروحى الذى يداخل نفوس المؤمنين والمؤمنات يُشعر بأنهم ليسوا بشرا عاديين ... فلماذا لا تبتهج وتسر ؟ والضحك هنا كناية عن السرور . كما يقال : ضحك وجهه استبشارا ..

---

(٩) تفسير القرطبى - هود - ص ٣٢٩٥.

(١٠)الإكليل فى استباط التنزيل للسيوطى ص ١٥١.

البشرى :

وتتحدث الآيات الكريمة عن تبشير سارة بالولد فتقول :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾[11] .

ووردت هذه القصة أيضا فى سورة الحجر[12] وفى سورة الذاريات[13] باتفاق فى المعنى والمضمون مع تغاير فى اللفظ يقتضيه إعجاز البيان القرآنى الحكيم .

وقد تقدم فى قصة إبراهيم – عليه السلام – أن الملائكة الثلاثة جبريل وميكائيل واسرافيل – عليهم السلام – وردوا على إبراهيم .

وعلى عادته فى كرمه وحسن استقباله لضيوفه وتقديم القرى لهم . أمر بذبح عجل سمين لهم ..

وحين قدم لهم الطعام رفضوا التقدم إليه ..

وأنكر إبراهيم منهم ذلك ، وأوجس فى نفسه خيفة منهم .. ولكنهم طمأنوه بأنهم ليسوا بشرا ، ولكنهم ملائكة والملائكة لا تأكل ولا تشرب. وأخبروه بأنهم فى طريقهم لتنفيذ وعيد الله فى قوم لوط الذين بغوا وطغوا وعاثوا فى الأرض فسادا ... وبشروه بأن الله – جل وعلا – سيرزقه من زوجته سارة غلاما عليما وسيكون نبيًا صالحًا .

---

(١١) الآيات ٦٩ : ٧٣ – هود .

(١٢) آيات ٥١ : ٥٦ – الحجر .

(١٣) آيات ٢٤ : ٣٠ الذاريات .

وسمعت سارة هذه البشارة فعجبت ... عجبت من أنها تلد وهى طاعنة فى السن ، وهى عاقر من الأصل فقد فاقت الثمانين، بل إنها قد بلغت التسعين فى بعض الروايات. وقد صرحت بالإنكار فى أسلوب استفهامى قائلة :

أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخًا ؟

وكان إبراهيم قد بلغ من العمر مائة وعشرين عاما .

وهى تعنى أنها إن كان فى إمكانها أن تلد فكيف بإبراهيم وقد بلغ الغاية فى السن التى يعجز فيها مثله عن الإنجاب .

فكيف إذا اجتمع العاملان : إياسها وعقمها مع كبر سن زوجها ؟

إنه أمر يثير العجب حقا، ويستدعى الإنكار ممن يسمعه ولكن الملائكة الذين يرون بعين غير التى ينظر بها البشر ردوا عليها تساؤلها وأفهموها أن قدرة الله لا يعجزها شيء .

وقالوا لها : أتعجبين من أمر الله ؟

وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ..

إنه وحدهُ القادر على خرق حجاب الأسباب، وإذا آمن الإنسان بذلك فلا عجب ولا ارتياب ..

ثم أتبع الملائكة بشراهم وحديثهم بقولهم .

رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد .

وهو دعاء بالرحمة والبركة لهم جزاء ما يقومون به من أعمال صالحة مبرورة، تستحق من الله حسن الجزاء وطيب الثناء..

ما ورد فى التوراة بخصوص البشرى :

وقد ذكر كتاب العهد القديم الذى بأيدى الكتابيين العبارة التى تشهد بتبشير إبراهيم بإسحاق ، ليس عن طريق الملائكة ، ولكن عن طريق الخطاب المباشر من الله لإبراهيم :

« وقال الله لإبراهيم : أما « سرّى » امرأتك فلا تدع اسمها « سرى » وليكن اسمها « سارة » وأبرك عليها وأعطيك منها ابنًا وأباركه ، ويكون منه ملوك الشعوب ، فخر إبراهيم على وجهه وضحك ، وقال فى قلبه : بعد مائة سنة يولد لى غلام ، و « سرى » تلد وقد أتى عليها تسعون سنة ؟

وقال إبراهيم : ليت إسماعيل يعيش قدامك .

فقال الله : بحق لتلدن « سرى » امرأتك غلاما ، وتدعو اسمه إسحاق، وأوثقه ميثاقا هو خلفه من بعده إلى الدهر . وفى إسماعيل قد سمعتك وبركته وكثرته جدا جدا وسيلد اثنى عشر عظيما ، وأعطيه شعبا جليلا ...»[١٤] .

والخلاف واضح بين النص القرآنى وهذا النص ..

فالبشرى فى القرآن جاءت على لسان الملائكة ، وفى هذا النص كانت البشرى من الله مباشرة .

وفى القرآن ليس فيه تصريح باسم الزوجة. وفى هذا النص تصريح باسمها. وأمر بتغيير هذا الاسم من « سرّى » إلى « سارة ».

وفى النص القرآنى أن سارة هى التى ضحكت – أما فى هذا النص فإن إبراهيم هو الذى ضحك. وهو الذى تعجب من الإنجاب بعد كبرهما فى السن .

وفى نص التوراة بشارة أخرى هى أن إسماعيل سيكون أباً لاثنى عشر عظيما، وأبا لشعب جليل ...

ولكنه مع هذا الاختلاف فإن جوهر البشارة بإسحاق بعد اليأس من الولادة واقع .

على أن هناك رواية أخرى تشير إلى أن إسحاق قد ولد وإسماعيل لم يرحل بعد عن الشام .

تقول الرواية :

---

(١٤) الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين – العهد القديم – ط دار الكتاب المقدس.

ورأت « سرى » ابن هاجر المصرية التى ولدت لإبراهيم يستهزىء بإسحاق ، فقالت لإبراهيم : أخرج عنى هاجر وابنها ، إن ابن الأمة لا يرث مع ابنى إسحاق شيئًا .

فساء إبراهيم ما قالت .

فقال الله لإبراهيم : لا يهمك ولا يحزنك أمر الغلام ، وامتثل ما قد أمرتك « سرى » به فأطعها من أجل أنه بإسحاق يدعى لك الخلف .

وسأجعل لابن الأمة شعبا عظيما من أجل أنه خلفك .

وغدا إبراهيم فأخذ الغلام ، وأخذ خبزًا وسقاء ، ودفعه إليها وحمله عليها وقال لها : اذهبى[١٥].

ومفهوم هذا النص يشير إلى أن إسحاق كان قد ولد قبل أن يهاجر إبراهيم بابنه إسماعيل إلى مكة .

وأن مبعث الهجرة هو تخوف سارة من أن يرث إسماعيل وهو ابن الأمة مع ابنها إسحاق - وهو ابن الحرة - شيئا .

وربما انساق بعض الإخباريين وراء هذا الخبر، فقد ذكر الثعلبى فى كتابه[١٦] أن حمل سارة بإسحاق كان متواكبًا مع حمل هاجر بإسماعيل ، فوضعتا معًا ، فشب الغلامان معًا ، فبينما هما يتناضلان ذات يوم - وقد كان إبراهيم - عليه السلام - سابقا بينهما - فسبق إسماعيل ، فأخذه إبراهيم وأجلسه في حجره ، وأجلس إسحاق إلى جانبه ، وسارة تنظر إليه ، فغضبت وقالت : عمدت إلى ابن الأمة فأجلسته فى حجرك وعمدت إلى ابنى فأجلسته إلى جنبك وقد حلفت ألا تضرني ولا تسوءنى ؟

وأخذها ما يأخذ النساء من الغيرة .

فحلفت لتقطعن بضعة منها ولتغيرن خلقها .

---

(١٥) الإصحاح الحادى والعشرون من سفر التكوين .

(١٦) قصص الأنبياء ص ٨١.

ثم ثاب إليها عقلها ، فبقيت متحيرة فى ذلك – فقال لها إبراهيم : اخفضيها[17] واثقبي أذنيها ، ففعلت ذلك فصارت سنة فى النساء

ثم إن إسماعيل وإسحاق اقتتلا، فغضبت سارة على هاجر وقالت لها : لا تساكنيني فى بلد واحد[18] .

أما تواكب الحمل فمردود بقوله – تعالى – بعد أن ذكر قصة الرؤيا بالذبح وتصديق الرؤيا : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ »[19] .

لأن الآيات الواردة قبل هاتين الآيتين تقص علينا كيف أن إبراهيم أخبر ابنه بأن الله أمره بذبحه، فصدقه، واستسلم كلاهما لأمر الله ، ثم فدى الله الابن بذبح عظيم. ثم جاءت البشارة بإسحاق بعد ذلك. فليس من المعقول أن يكون الابنان فى سن واحدة،بل المنطق يقضى بأن يكون إسماعيل قد سبق إسحاق فى الولادة بسنوات.

وكان إسماعيل قد بلغ من السن ما يمكنه من تفهم الأمور والحكم على الأشياء والتصديق بأحكام السماء، كما فهم من حواره مع أبيه .

والغيرة ليست أمرا غريبا – وعلى النساء خاصة – ولكن بواعثها التى تؤدى إلى الغضب الشديد الذى يترتب عليه القسم بالاعتداء ينبغى أن يكون لها مايبررها .

ووضع إبراهيم إسماعيل فى حجره وإسماعيل إلى جانبه ليس مبررا كافيا لهذه الغيرة الشديدة التى أدت إلى الاندفاع فى الغضب والقسم على أن تقتطع من هاجر جزءا.

إن المبرر الذى يدفع إلى ذلك هو الحرمان – وهو الذى يفعل فعله فى النفوس ، وقد اندفعت سارة فى غيرتها بدافع رؤيتها هاجر –وهى أمتها– تحمل وتلد ويصبح لها ولد يفرح به أبوه وتقربه عينه – وهى عاجزة عن ذلك، وقد تقدمت بها السن وتشعر بأن هاجر أمتها قد تربعت على عرش قلب زوجها.. وقد قدمنا تفصيل ذلك فى قصة إسماعيل .

---

(١٧) الخفض : الختان .

(١٨) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٨٢.

(١٩) الآيتان ١١٢ ، ١١٣ – الصافات .

فرح سارة بالبشارة :

وينقلنا النص القرآنى فى البشارة بإسحاق إلى أثر هذه البشارة فى نفس سارة .

ولا شك أن هذا الخبر بالنسبة لها كان مفرحا ، وان كان غير ما يتوقع لقد كان بالنسبة لها الماء البارد الذى ينقع غلة الظمآن فى صحراء مجدبة. وكان رد الفعل السريع لهذا الخبر السار كلمة ترد على ألسنة النساء عادة فقد قالت :

يا ويلتا أألد وأنا عجوز ؟

وهى لا تريد أن تدعو على نفسها بالويل، والويل هو الهلاك. والموقف موقف فرح وسرور. ولكن هذه الكلمة درجت النساء على ترديدها كثيرا فى مختلف المواقف السارة والمحزنة على حد سواء. أليست المرأة هى القائلة على لسان الأعشى :

قالتُ هريرة لما جئت زائرها ويلى عليك وويلى منك يا رجل ؟

وهى كلمة تعجب بمعنى ويح[٢٠].

وقد ردت الملائكة عليها تعجبها، وأفهموها أنه لا ينبغى التعجب من أمر يريده الله، بل العجب من ورود الأمر الذى يعسر حدوثه من البشر ولذلك قالوا لها : أتعجبين من أمر الله ؟

ثم وجهوا إليها تحية طيبة مباركة تتضمن الرحمة والبركة – على النحو الذى قدمناه – ما أعظم ذلك حين تسمعه سارة – وكأنها تحية خاصة بها فهى أهل البيت – وأهل بيت الرجل زوجه .

ولا شك أنها بهذه التحية يطمئن قلبها وتقر عينها ويسعد وجدانها وتشعر بأن الله معها يرعاها برحمته، ويكلؤها بعنايته، فهى – إذن – لا خشية عليها من آلام الحمل والولادة التى تنتاب من يحملن بعد فوات الأوان .

وسيكون حملها وذريته محفوفا بالبركة مشمولا بالهداية والتوفيق.

وحملت سارة، ومر الحمل خفيفا هينا لا ثقل له .

---

(٢٠) لسان العرب – مادة ويل – جـ ٦ .

ثم وضعت هذا الغلام الذى بُشِّرت بأنه سيكون نبيًا من الصالحين . ولاشك أن قدوم هذا الولد قد أسعد إبراهيم وأسعد سارة . وقد وعدهما الله بأن عمرهما سيمتد ليريا ذريته الطيبة المباركة ممثلة فى نبى الله يعقوب . وقد كان ..

رأى الكتابيين فى الذبيح :

ويعتقد أهل الكتاب أن الذبيح هو إسحاق. قالوا : «لما بلغ إسحاق السابعة من عمره ذهب إلى السعى، وأمر إبراهيم فى منامه بأن يقدم قربانا إلى الله، فلما أصبح ذبح عجلا وفرق لحمه على الفقراء. وسمع فى الليل صوتا يقول : إن الله يريد أن تذبح ابنك فانتبه من نومه مذعورا »[٢١] .

وقد أسندت دائرة المعارف هذا النص إلى سفر التكوين ٥٦ وفى الواقع لا يوجد هذا النص فى المصدر المذكور بهذه الصيغة، بل النص المذكور فى التوراة هو « خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق ».

وكلمة إسحاق مقحمة فى النص إقحامًا ، لأن إسحاق لم يكن وحيدًا فى يوم ما لإبراهيم، بل كان إسماعيل مولودا قبله بسنين . وإذن فكلمة وحيدك تنطبق على إسماعيل لا على إسحاق – عليهما السلام – وقد قدمنا مناقشة ذلك فى قصة إسماعيل – عليه السلام .

متى ولد إسحاق ؟

ويصعب تقدير المدة بين ولادة إسماعيل وإسحاق بالدقة ، **ولكن يمكن استخلاص ذلك على وجه التقريب** من سلسلة الأحداث التى دارت .

فقد تمت البشارة بعد الامتحان بالذبح بناء على قوله تعالى فى « أعقابها » «وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين»[٢٢] .

وكانت سن إسماعيل فى ذلك الوقت منبئة بتفهمه للأمور، وتمكنه من الاستقلال بالرأى لأن أباه قال له : فانظر ماذا ترى ؟

---

(٢١) دائرة المعارف – مادة إسحاق .

(٢٢) الصافات ١١٢ .

وقد قدر البعض أن سن إسماعيل كانت ثلاثة عشر عاما(٢٣) وبعضهم قدرها بأربعة عشر عاما ..

فتكون المدة بينهما نحو ذلك ..

وقدر ابن إياس أن ولادة إسحاق كانت بعد إسماعيل بثلاثين سنة(٢٤) .

إسحاق فى كنف والده :

وشب إسحاق فى كنف النبوة ، ومن أبيه ورث الحكمة وذكروا فى أوصافه أنه كان يشبه أباه تماما ما عدا الشيب الذى كان يكلل رأس إبراهيم- عليه السلام.

وعلل بعض الكتابيين هذا الشبه بأنه كان قد شاع بين الناس أن إسحاق ليس ابنا لإبراهيم، فإنه قد التقطه وتبناه ، فخلق الله إسحاق على شبه إبراهيم ليرد هذا الزعم ويُقضى على تلك الشائعة(٢٥) .

ولكن القرآن الكريم أجل إبراهيم وابنه عن مثل هذه الشائعات وكرمهما بما هو أهله وأثنى عليهما ثناء جميلا .

وقد نظم الله إسحاق فى سلك الأنبياء الذين تناسلوا من ابراهيم فقد قال تعالى:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾(٢٦) .

---

(٢٣) القرطبى عن الفراء – تفسير سورة الصافات .

(٢٤) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ص ٨٥ .

(٢٥) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٣ ص ٢٦٢ عن سفر التكوين ٥٣ وقصص الأنبياء للكسائى ص١٥٢ .

(٢٦) البقرة ١٣٠ : ١٣٣ .

وقال تعالى :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[27]

لقد تنبأ إسحاق في حياة والده بين أهل الشام الذين نشأ فيهم، ونبوته ثابتة بنص القرآن الكريم «.وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ..».

وتزوج إسحاق في حياة والديه .

قيل إنه تزوج من امرأة من حران اسمها «رفقا بنت بتويل» وحملت بتوأمين هما عيصو ويعقوب .

وسيرد ذكر ذلك في قصة يعقوب إن شاء الله تعالى .

وعاش إسحاق - كما يقول الرواة مائة وستين سنة[28] أو مائة وسبعين سنة[29] وكانت سنه حين ولد له ستين سنة أو سبعين .

ودفنه أولاده عند أبيه في مزرعة جبرون[30].

ومن دعاء إسحاق الذي أخبر به النبي - ﷺ -:

« اللهم من لقيك من الأولين والآخرين لا يشرك بك شيئا فاغفر له »[31] .

---

(٢٧) الأنعام ٨٣ ، ٨٤ .

(٢٨ ، ٢٩) بدائع الزهو ص ٩٠ .

(٣٠) قصص الأنبياء للثعلبي ص ١٠٣ .

(٣١) الدميري في حياة الحيوان جـ ٢ ص ٤٧٥ نقلا عن البيهقي في البعث والنشور عن أبي هريرة .

العبرة من القصة :

فى هذه القصة دلائل وعظات وعبر نقتطف منها ما يأتى :

● لفت الأنظار إلى قدرة الله الخارقة التى لا يعجزها شىء وأنه فوق الأسباب وأنه إذا أراد شيئا قال له كن فيكون .

● التنبيه إلى عدم اليأس وقطع الأمل، فرحمة الله واسعة وقد حذر الملائكة إبراهيم من القنوط واليأس وقد حكى ذلك القرآن الكريم .

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾(٣٣) .

● التيقن بأن الله يرقب أحبابه بعين وداده ، وهو معهم برحمته ، يمدهم بعونه ويحضهم برعايته وعطفه، يستجيب دعاءهم، ويقبل رجاءهم. وقد استجاب دعاء إبراهيم حين قال : ربِّ هَبْ لى من الصالحين . فوهبه إسماعيل . ثم وهبه إسحاق بعد ذلك .

● مؤازرة الزوجة لزوجها فى مهام الأمور، فقد كانت سارة معينة لإبراهيم فى دعوته وفى مكارم أخلاقه، ومسارعة فى تلبية أمره بإكرام ضيوفه بل تقوم فى خدمتهم إكراما له ولهم .

● ارتباط البشارة بتنفيذ وعيد الله فى قوم لوط . دليل على أن الحياة مزيج من الخير والشر والمحبوب والمكروه، وأن الله كما يتوعد أهل الكفر وينزل بهم نقمته، يكرم أهل طاعته ويسعدهم برحمته .

● إمكان رؤية الملائكة لغير الأنبياء فسارة رأت الملائكة وحادثتهم، والملائكة قد يأتون فى صورة بشرية .

وقد حدث أن رأى أصحاب رسول الله ﷺ جبريل وغيره من الملائكة وكتب السيرة والسنة غاصة بذلك .

والله أعلم

---

(٣٣) الحجر ٥٤ : ٥٦ .

تنبيه

نرجو القارىء الكريم تصويب الأخطاء الواردة فيما يأتى :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠	الثانى من أسفل	مُكرمون	مُكْرمون
٣٧	٩	مِنْ رَبِّه	من رَبِّه
٥٨	الثانى من أسفل	خلقكُمْ مِنْ	خلقكم مِّن
٧٧	٢	أبويكُمْ مَن	أبويكم مِّن
٨١	٦	زما	وما
٨٧	٦	إنهمْ	إنهم
٩٢	١٥	نَبِيًّا	نُبيًّا
٩٧	٨	بلد	بل
١٠٤	١٧	أنبئكمْ	أنبئكم
١١٦	١٦	مِنْ	من
١٢٢	١٩	مِّمَّنْ	مِّمَّن
١٢٥	١١	ومَنْ	ومن
١٣٥	١٣	نحنُ	نحن
١٣٦	٧	مَنْ	مِن
١٩٦	١٠	أن	ألاَّ
٢٠٠	٣	جاهاداك	جاهداك
٢٠٤	٦	سبيلُ	سبيلِ
٢١٥	٧	ائتينا	إئتنا
٢١٥	الأخير	لكَ	لكَ
٢١٦	١١	لا تصيبنَّ	لا تصيبنَّ
٢١٩	٩	عصيبٌ	عصيبٌ
٢٢٥	٤	محسنُ	محسنٌ
٢٢٨	٣	وإذا ابْتُلَى	وإذ ابْتَلَى
٢٥٠	٥	أنْ	أن

فهرس المجلد الأول

الصفحة	الموضوع
١٦١	إبراهيم – عليه السلام – :